العصور الحجرية

وما قبل الاسرات
فى مصر والشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

أحمد أمين سليم

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾

(سورة الممتحنه، آية : ٤)

إهداء

إلى روح أستاذى الجليلين

الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري

الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار

تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جناته

تقديـــم:

يسعدنى فى هذه الطبعة الجديدة لكتاب العصور الحجرية أن أتناول منطقة أوسع من بلدان الشرق القديم والتى كان لها دورها المميز فى الإنتاج الحضارى خلال هذه المرحلة، ولقد راعيت قدر الإستطاعة أن تكون المادة العلمية فى مستوى الطالب الجامعى فى هذه المرحلة من بداية دراسته الأكاديمية حتى يتمكن من تتبع المراحل الحضارية المتتالية للعصور الحجرية وماقبل الأسرات فى مصر والشرق الأدنى القديم.

ويتكون هذا المؤلف من ستة فصول رئيسية، تناولت فى الأول منها طرق التقويم الزمنى، ولقد إستعرضت فيه طرق التقويم التى يعتمد عليها الباحثون فى تقديرهم الزمنى لهذه المرحلة التى لم تكن الكتابة قد ظهرت بعد، ومن هذه الطرق: الوسائل التحليلية، وطريقة الكربون المشع، وطريقة البوتاسيوم - آرجون ٤٠، وطريقة الإضاءة الحرارية، وطريقة الطبقات، والتوقيت المتتابع، وحلقات جذوع الأشجار، وأخيراً الدراسة المقارنة.

وتناولت فى الفصل الثانى العصور الحجرية وماقبل الأسرت فى مصر وتناولت فيه موضوعين رئيسيين، ناقشت فى الأول منهما الظروف البيئية والبشرية وأثرها فى التطور الحضارى خلال هذه المرحلة أما الموضوع الثانى فلقد خصصته لدراسة العصور الحجرية وماقبل الأسرات، وتناولت فيه التطورات الحضارية المتعاقبة خلال هذه المرحلة- بدءاً من العصر الحجرى القديم بأقسامه الأسفل والأوسط والأعلى، ثم مرحلة العصر الحجرى الوسيط وناقشت فيه بعض آراء الباحثين حول وجود الإنتاج الحضارى لهذه المرحلة فى مصر، ثم تناولت حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر موضحا أهم مظاهر إنتاجها الحضارى، ويلى هذه المرحلة عصر الحجر والنحاس والذى قدم لنا إنتاجا حضاريا مميزاً ولقد أبرزت أهم مميزات هذا الإنتاج الحضارى وذلك من خلال المواقع الأثرية التى كشف فيها عن الإنتاج الحضارى لهذه المرحلة. وأنهيت هذه

الدراسة بدراسة عصر ماقبل الأسرات فى مصر، وتناولت فيه ببعض التفصيل الحضارات المميزه لهذه المرحلة فى كل من مصر العليا ومصر السفلى.

وخصصت الفصل الثالث لدراسة العصور الحجرية وماقبل الأسرات فى العراق، وتناولت فيه موضوعين رئيسين، الأول منهما دراسات تمهيدية وتناولت فيه بالدراسة ثلاثة موضوعات رئيسية، ناقشت فى الأول منها التسميات المتعددة التى أطلقت على العراق، ومنها التسمية «ميزوبوتاميا» التى أطلقها المؤرخون اليونان على هذه المنطقة وسار على دربهم الكثير من الباحثين حتى الوقت الحاضر، وأوضحت أن هذه التسمية لاتؤدى الغرض منها حيث أنها تعنى «أرض مابين النهرين» بينما كانت الحضارة العراقية القديمة تمتد خارج النهرين وداخلهما، كما ألقيت الضوء على التسميات الأخرى مثل العراق والسواد، وأشرت أيضاً إلى التسميات القديمة التى أطلقت على البلاد مثل «مات شوميرى» التى تعنى «بلاد سومر»، و«مات بابل» و«مات آشور» التى تعنى أرض بابل وأرض آشور على التوالى. وتناولت فى الموضوع الثانى الظروف الجغرافية للعراق والمظاهر الجغرافية البارزة التى أثرت على التاريخ السياسى والحضارى للعراق القديم، ولاشك أن نهرى دجلة والفرات يمثلان شريان الحياة الرئيسى وإرتبطت بهما وبمجراهما الحضارة العراقية القديمة، وتناولت ظاهرة تقسيم البلاد إلى قسمين شمالى وجنوبى وناقشت العوامل التى أدت إلى ذلك وأثر تلك الظاهرة على تاريخ البلاد. أما الموضوع الثالث فقد خصصته لتاريخ الكشف الأثرى فى العراق، وتتبعت تاريخ الإهتمام بآثار بلاد النهرين منذ القرن الثانى عشر الميلادى، وحتى الوقت الحالى الذى تنوعت فيه مظاهر الإهتمام بآثار هذه المنطقة حتى أصبحنا نرى الكثير من دول العالم تقوم بعمل حفائر فيها لاستجلاء تاريخ وحضارة هذه المنطقة.

أما الموضوع الثانى، فلقد تناولت فيه العصور الحجرية وماقبل الأسرات وقسمته إلى خمسة موضوعات رئيسية على النحو التالى:

١- العصر الحجرى القديم بأقسامه مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل ثم مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط فمرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى.

٢- العصر الحجرى المتوسط.

٣- العصر الحجرى الحديث، وتناولت فيه أهم الحضارات التى ظهرت خلال هذه المرحلة، وهما حضارتى جرمو وتل حسونه.

٤- عصر الحجر والنحاس، وتناولت الحضارة المميزة لهذه المرحلة وهى حضارة حلف.

٥- حضارات جنوب العراق القديم، وهى حسب ترتيبها الزمنى: حضارة أريدو، حضارة الحاج محمد، حضارة العبيد، حضارة الوركاء، وأخيراً عصر حضارة جمدة نصر التى تمثل المرحلة الأخيرة لعصور ماقبل الكتابة والتدوين فى العراق القديم.

ويتناول الفصل الرابع دراسة العصور الحجرية وماقبل الأسرات فى إيران، وتسمى المرحلة الأخيرة فى إيران بالمراحل الحضارية الأولى والثانية والثالثة، وتناولت فى هذا الفصل دراسة موضوعات رئيسية يتصل الأول منها بجغرافية إيران ومواردها الطبيعية حيث تناولت دراسة مظاهر السطح الرئيسية فى إيران وأثرها فى التطور السياسى للتاريخ الإيرانى القديم، وكذلك الثروات الطبيعية التى تجود بها الأراضى الإيرانية وأثرها فى تاريخ وحضارة إيران منذ أقدم العصور.

وتناولت بالدراسة فى الموضوع الثانى عصور ماقبل الكتابة والتدوين فى إيران وبدأت الدراسة بالعصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاث الأسفل والأوسط والأعلى، ثم مرحلة العصر الحجرى الوسيط، واتبعت ذلك بدراسة المراحل الحضارية التالية فى إيران، والتى تبدأ بالمرحلة الحضارية الأولى والتى تمثل بداية الإستقرار البشرى على

الهضبة الإيرانية، ثم المرحلة الحضارية الثانية والتى تمثل عصر إستخدام النحاس والحجر، وأخيراً المرحلة الحضارية الثالثة والتى تمثل الجزء الأكبر من الألف الرابع قبل الميلاد وهى تعاصر حضارة العبيد والجزء المبكر من حضارة الوركاء فى العراق القديم، وتعاصر فى مصر حضارة جرزه الأولى وحضارة العمره وحضارة نقادة الأولى.

ويتصل الفصل الخامس بدراسة عصور ماقبل التاريخ فى سورية وتناولت فيه موضوعين رئيسيين يتصل الأول منهما بجغرافية سورية وسكانها، وتناولت فيه مظاهر سطح الأقليم السورى والذى يتكون بشكل رئيسى من السهل الساحلى وسلسلة الجبال الغربية ومنطقة البقاع وسلسلة الجبال الشرقية ثم الصحراء السورية، وأشرت بعد ذلك إلى الثروات الطبيعية التى يزخر بها الإقليم السورى والتى كان لها أبلغ الأثر فى تطوره الحضارى أثناء عصور ماقبل التاريخ وإستمر ذلك خلال العصور التاريخية، وبعد ذلك قمت بدراسة خطوط المواصلات الرئيسية فى هذه المنطقة الهامة فى الشرق الأدنى القديم.

وتناولت فى الموضوع الثانى عصور ماقبل التاريخ فى سورية وذلك بدءاً من العصر الحجرى القديم بأقسامه الأسفل والأوسط والأعلى، ثم العصر الحجرى المتوسط، ثم العصر الحجرى الحديث، فعصر الحجر والنحاس، وأخيراً عصور ماقبل الأسرات.

ويتصل الفصل السادس والأخير من الكتاب بدراسة العصور الحجرية وماقبل الأسرات فى آسيا الصغرى وتناولت فيه مظاهر السطح فى آسيا الصغرى وأثرها على التطور الحضارى لهذه المنطقة، ثم تناولت المظاهر الحضارية للعصور الحجرية وماقبل الأسرات فى الهضبة الإيرانية.

وأخيراً فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه، وماتوفيقى إلا بالله عليه

توكلت وإليه أنيب، وأجد لزاما عليّ أن أتقدم بخالص الشكر إلى الأخ الفاضل الحاج صابر عبد الكريم صاحب مكتبة دار المعرفة الجامعية للنشر والسادة العاملين معه على نشر هذا الكتاب فى هذه الطبعة الجديدة المميزة.

وخير ما أختتم به هذه المقدمة قوله جل من علا فى سورة البقرة الآية ٢٨٦ :

﴿ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

صدق الله العظيم

الفصل الأول
طرق التقويم الزمنى

يعتمد الباحثون في دراستهم للعصور الحجرية على العديد من طرق التقويم الزمنى لمحاولة الوصول إلى التقدير الزمنى الصحيح لهذه العصور اعتمادا على البقايا الأثرية التى يكشف عنها سواء كانت نباتية أم حيوانية أم مصنوعات إنسانية حجرية أم فخارية أو مواد أخرى، وستتناول فيما يلى بعض هذه الطرق.

١- الطرق التحليلية:

لقد انتشرت التقنيات التحليلية فى القياسات الأثرية وتنوعت حتى أصبح من العسير أحيانا اختيار التقنيه الملائمة بالنسبة للعينة المطلوب تقدير عمرها. ويحدد الطريقة التى يمكن استخدامها طبيعة العينات الأثرية، فهى عادة قليلة جدا، حتى أنها فى بعض الأحيان لاتكاد تحاجيات تحليل كامل، وقد يتعذر تعويضها إذا ما استعملت الاحتفاظ بالعينات النادرة لتكون مرجعا موجودا أمام الباحثين.

وفى حالة ما إذا كانت مجموعة العينات المتوفرة كبيرة، فإنه يحسن القيام بتحليل كيماوى فى وسط مائى لتعيين النسبة لأهم مركباتها، وقد يستعمل التحليل الذرى لاثبات نسبة المعادن القلوية كالصوديوم والبوتاسيوم والليثيوم، وإذا كانت العناصر أو المركبات غير موزونة فإنه يكون من الأفضل استعمال التحاليل بطريقة التفلور أو المتعلقة بعبور أشعة إكس، ونتائج هذه الطريقة تحترى على خطأ يتراوح مابين ١٠ - ١٠٪ (١) وهو مايضعف من الآمال المرجوة منها.

إما إذا كانت العينات ضئيلة، وإذا كان من اللازم تحليل عدة عناصر، يلجأ الباحث إلى الاستضواء الطيفى أو إلى حيود أشعة إكس، وإذا تعذر على الاثرى أن يوفر عينة مهما كانت صغيرة، فتعالج المادة المزمع تحليلها بواسطة التحليل الطبقى أو التفلور فى صورة ما إذا مكن حجمها وشكلها من استخدام هذا التحليل.

وتختلف نوعية المواد المحللة طبقا لطبيعة المادة الأثرية، فالبقايا الأثرية المحتويه على مواد عضوية تعالج بمواد وطرق تختلف عن البقايا الأثرية غير المحتويه على مواد عضوية، وذلك حسب طبيعة البقايا الأثرية.

---

(١) زكى اسكندر: «علم الآثار وقضاياه بما فى ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار» فى تاريخ افريقيا العام، المجلد الأول، المنهجية وعصر ماقبل التاريخ فى افريقيا، اليونسكو، ١٩٨٠، ص ٢١٤.

وتستخدم الطرق التحليلية للتعرف على هوية الأشياء وبخاصة تلك التى تختلط بنظائرها عند النظر إليها بالعين المجرده، فكثيرا مايشتبه النحاس بالبرونز ولذا يلزم استخدام الطرق التحليلية لمعرفة طبيعة المعدن المكتشف في الآثار، كما تساعد الطرق التحليلية فى الكشف عن أصل البقايا الأثرية الحجرية وأماكن استيردها فعند الكشف على بقايا حجرية فى منطقة اثرية، ويلاحظ أن الطبيعة الصخرية لهذه المنطقة لاتحتوى على هذه النوعية من الاحجار فإنه يتم تحليلها وعن طريق ذلك يتم معرفة الاحجار التى تنتمى اليها فى المناطق الأخرى التى جلبت منها، ويساعد ذلك المؤرخ فى معرفة الاتصالات الحضارية المبكره بين بلدان العالم فى العصور القديمة.

وتساعد الطرق التحليليه أيضا فى معرفة الطرق القديمة لبعض الصناعات، مثل صناعة الأزرق المصرى، ومعرفة طريقة صناعة الأدوات المعدنية، فهل صنعت بواسطة الطرق أو الصب، أو استخدام الطرق والصب فى صناعتها.

كما تساعد هذه الطرق في التعرف على الأصباغ والألوان المستخدمة فى التصدير واللوحات.

ومن أهم الطرق المستخدمة للتحليل فى القياسات الأثرية نذكر:

أ- **الفحص المجهرى:**

يستخدم الفحص المجهرى بواسطة عدسات مبكرة بسيطة ذات تضخيم من ١٠ إلى ٢٠ على أن يكون هناك بحال فسيح بين العدسة والمستوى البؤرى، على أنه يتم الحصول على نتائج أكثر دقة بواسطة استخدام مجهر مركب يشتمل على عدسة ذات تضخيم أكبر يتراوح مابين ١٠٠ إلى ١٢٥٠ مرة.

ويستخدم الفحص المجهرى لفحص تركيب جسم العينات الأثرية، ودراسة الخواص البلورية لمركباتها، كما تستخدم الطرق المجهرية فى التحاليل الكمية بمركبات متباينة متشعبة من الصعب معالجتها بالطرق الكيميائية الاعتيادية، فهى تمكن من تعيين عدد مختلف المركبات وحجمها، وإذا ماعلمت كثافة كل منها،

أمكن تحويل نسبة مئوية فى الحجم إلى نسبة مئوية فى الوزن [١].

ب- التحليل الكيميائى المعيارى فى وسط مائى:

تستعمل هذه الطريقة فى البقايا المعدنية المتآكلة وبقايا الطعام وأدوات التجميل وغيرها من المواد المشابهة سواء كانت عضوية أم معدنية [٢].

وهناك طرق تحليلية أخرى عديدة مثل: التصوير الاشعاعى، وتحديد الوزن النوعى، والقياسات الطيفيه، والتحليل بواسطة الامتصاص الذرى، وتفلور أشعة إكس والتحليل بتنشيط الكهربات المحايدة [٣].

٢- طريقة الكربون المشع Radiocarbon Dating

تعتمد هذه الطريقة على بعض الحقائق العلمية الخاصة بكربون ١٤ وعلاقته بالأشعة الكونية، فإن الاشعة الكونية الصادرة من الشمس بصفة خاصة تصل إلى الغلاف الجوى للكرة الأرضية فتصدم به، وحيث أن كل ذرة من هذه الأشعة تتكون من نواه والكترونات محيطة بها، وهى عبارة عن شحنات كهربائية سالبة، أما النواة فإنها تتكون من شحنات موجبة تسمى بروتونات وشحنات متعادله وتسمى نيترونات، ونتيجة التفاعل هذه النيترونات مع النيتروجين الموجود فى الهواء ينتج كربون وزنه الذرى ١٤ مضافا إليه هيدروجين وزنه الدرى ١.

ويحمل كربون ١٤ الناتج هذا التفاعل الصفة الاشعاعية، ويتحول بمجرد تكونه إلى ذرات غاز ثانى أكسيد الكربون المشع، ويمتزج هذا الغاز بثانى أكسيد الكربون الموجود فى الجو. وتنتقل هذه الذرات الكربونيه المشعه بدورها إلى النبات الذى يعتمد فى حياته على ثانى أكسيد الكربون وبالتالى إلى الحيوان الذى يعيش على

---

(1) Kolthoff, I.M., Sandell, E.B., Meehan, E.J., et Bruckenstein, S., Quantitative Chemical Analysis, N.Y., 1969.

(2) Zaki, A., Iskander, Z., "Ancient Egypt Cheese", in A.S.A.E., ILI (1942), pp. 295 - 313

(٣) انظر: زكى اسكندر المرجع السابق، ص ٢١٥ - ٢٢٠

النبات وعندما تنتهي حياة النبات يبدأ كربون ١٤ فى التحول التدريجى وبسرعة ثابتة إلى كربون وزنه الذرى ١٢ فاقدا ظاهرة الإشعاع.

وقد توصل العلماء إلى تقدير نصف عمر كربون ١٤ وهو ٥٥٦٨ ± ٣٠ سنة أو بصفة أدق ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة. وعلى ذلك فإنه عندما يعثر علماء الآثار على بقايا موا عضوية يمكنهم قياس بقايا كربون ١٤ المتخلف فى هذه المواد واحتساب عمرها الأصلى بعد اعتبار الزمن الذى يستغرقه هذا التحول من كربون ١٤ إلى كربون ١٢ وبذلك يمكن التوصل إلى عمر هذه الآثار.

وتطبق هذه الطريقة على المواد العضوية كالخشب والفحم والعظم والجلد والأنسجة والنباتات والأغذية... الخ، ويحسب ملاحظة أنه عند جمع العينات ينبغى ألا تجرى عليها أى معالجة كيميائية، بل يجب أن تعزل فى قوارير من زجاج أو أكياس من نايلون كى يتجنب اتصالتها المحتمل بمواد عوضية أخرى، ويتم العمل فى العينة على عدة مراحل وهى: تطهير العينة، ثم احراقها، ثم تطهير غازات ثانى أكسيد الفحكم الناتجة، ثم عد الجزئيات المنتشرة.

ونظرا لأن أقدم طريقة تاريخية وأشهرها طريقة التأريخ المصرية، فقد تقرر على المستوى الدولى أن يقاس الفحم المشع فى سلسلة طويلة من العينات المصرية مدققة التأريخ، والتى تنتمى إلى فترة تمتد من الأسرة الأولى إلى نهاية التاريخ الفرعونى(١).

---

(١) انظر: رشيد الناضورى: المدخل فى التحليل الموضوعى المقارنه للتاريخ الحضارت والسياسى فى جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا، الكتاب الأول، بيروت، ١٩٧٧، ص ٨٩ – ٩١، وكذا:

- Libby, W.F., Radiocarbon Dating, Chicago, 1952, p. 2 FF., Berger, R., "Ancient Egyptian Chronology", in P.T.R.S, 269, 1193 (1970) pp. 23 - 36.
- Edwards, I.E.S., "Absolute Dating from Egyptian Records and Comparison With Carbon - 14 Dating", in P.T.R.S. 269, 1193 (1970) pp. 11 -19.

ومن المآخذ التى يجب مراعاتها عند استخدام هذه الطريقة، أن قدراتها محدودة، فهى لايمكن تطبيقها على العينات التى يرجع تأريخها إلى أبعد من ٥٠,٠٠٠ سنة وذلك لانه - كما سبقت الاشارة - بمجرد موت المواد العضوية، فإن الكربون المشع يتوقف عن التجدد، ويأخذ فى النقصان بمعدل تدريجى تبعا للفترة الزمنية، فينقسم النشاط الاشعاعى إلى اثنين بعد ٥٧٣٠ عام، وإلى أربعة بعد ١١٤٦٠ سنة وإلى ثمانية بعد ١٧,١٩٠ عام، وهكذا باستمرار إلى أن تصبح الكمية المتبقية ضعيفة جدا ولايمكن قياسها.

كما أن استخدام هذه الطريقة ينتهى بإفناء العينة، مما يضيعها للأبد، وذلك أثناء عمليات تنقيتها واستخلاصها، ويقدر العلماء أنه من أجل استخلاص جرام واحد لاتمام القياس فإن الامر يستلزم اعداد عدة جرامات من كربون الخشب أو عدة مئات من الجرامات من العظم(١).

٣- طريقة البوتاسيوم - آرجون ٤٠ Datinx Potassium Argon 40

تستعمل هذه الطريقة غالبا لمعرفة تواريخ العصور الجيولوجية القديمة، وتقوم هذه الطريقة على أساس أن البوتاسيوم كما نجده فى الطبيعة يتكون من ٩٣,٢٪ بوتاسيوم، ومن ٦,٨,٣٩ ٪ من البوتاسيوم ٤١، ومن ٠,١١٨ ٪ من البوتاسيوم ٤٠ وكانت نسبة البوتاسيوم ٤٠ وقت تكوين الأرض تقارب ٠,٢ ٪، ولكنه تجزأ فى جزء كبير منه كل يحدث مشتقين الكلسيوم ٤٠ والأرجون ٤٠.

ومن بين ١٠٠ ذرة من بوتاسيوم ٤٠ تتبدد، تتحول ٨٩ إلى كلسيوم ٤٠ وتصير أرجون ٤٠ وهو العنصر محل القياس، وجميع الصخور حتى الحديثة منها تحتوى على هذا العنصر محل القياس، وجميع الصخور حتى الحديثة منها تحتوى على هذا العصر، والأرجون جسم غازى محبوس فى حبة المعدن، وإذا ماتم تقبير هذا العنصر بالقياس إلى كمية البوتاسيوم المتبقية، فإنه يمكن حساب عمر هذه

(١) حسن بكر الشريف فى البحث عن طرق تقويم زمنى للماده الاثرية لما قبل التاريخ مجلة كلية الآداب، سوهاج، العدد الثالث، ١٩٨٣، ص ١٥٣

الصخور البركانية، والمدى الزمنى الذى يمكن تطبيق هذه الطريقة فيه قد يصل إلى ١,٣ مليار من السنين(١).

وكمثال على تطبيق هذه التقنية فى تعيين تواريخ المحجرات البشرية، نمت تجربة أجريت على عظام بشرية، وهى قطعة من إنسان رودبسيا من هضبة بروكين - هل فى زامبيا، وعندما حللت أعطيت مؤقتا عمرا يصل إلى ١١٠٠٠٠ سنة(٢).

كما طبقت هذه الطريقة عام ١٩٦٢ فى تنزانيا، وأعطت عمراً للبقايا الانسانية فيها يصل إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ سنة والانسان الزنجى عمراً يصل إلى ٢,٣٠٠,٠٠٠ سنة(٣).

إلا أنه يلاحظ أن هذه الطريقة قد تكون مناسبة لقياس عمر الصخور، وهو مايحدث بالفعل، ويكون من النادر أن توجد علاقة بين الحفريات الانسانية التى يتم العثور عليها وبين الصخور البركانية التى تؤخذ لاجراء عملية القياس.

٤- طريقة المغناطيسية القديمة Paleomagnetic Dating

تعتمد هذه الطريقة على دراسة المغناطيسية المتبقية فى الأنقاض الأثرية، وتستند هذه الدراسة إلى كون الحقل المغناطيسى الأرضى يتغير دائما اتجاها وقوة، وفى حالة الصخور البركانية أو الرسوبية، فإن جزيئاتها عندما تأخذ فى التجمد ببطء بفعل التبريد فإنها تأخذ الاتجاه المغناطيسى السائد وقت حدوث هذا التجمد، وعليه يتكون فى الطبيعة مايوصف ببوصلة متحجرة، فإذا ماعثر على طبقات أثرية أسفل رواسب صخرية فإنه يمكن تحديد تواريخها بناء على تحديد الاتجاه المغناطيسى للبقايا الصخرية الموجودة فوقها. كما أن تغيرات الحقل المغناطيسى الأرض تبقى أثرا فى الخزف على شكل مغناطيسى حرارى متبق.

---

(١) زكى اسكندر: المرجع السابق، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(2) Buda, J.L., Schroeder, R.A. Protsch, R., and Berger, R., "Concordance of Collagen Based Radiocarbon and Aspartic Acid Raumization Ages" in AATA, (1974), 11, 2, p.121.

(٣) حسن بكر الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٢ وكذا

Hugot, A.S., L'Afrique Prehistorique, Paris, 1970, p. 14.

ولتعيين تاريخ الطين المحروق بواسطة المغناطيسى لابد أن يكون قد ظل فى مكانه منذ حرقه، ويجدر أولا اثبات احتمال الحقل المغناطيسى الأرضى بقياساً تجرى فى الجهة التى اختيرت لتطبيق الطريقة على بنيات أثرية عمرها معروف، وترسم النتائج على منحنى يمثل التغييرات الطويلة المدى فى هذه الجهة طيله فترة ممتده، وإذا ماعرف اتجاه الحقل المغناطيسى المسجل فى طين محروق مجهولة العمر فى هذه الجهة نفسها، يصير من اليسير تعيين تاريخه بالمقارنة مع منحنى التغيرات الطويلة المدى، عينات الطين المحروق المستمدة من أفران أو مواقد بقيت فى محلها حتى اليوم[١].

٥- طريقة الإضاءة الحرارية Thermoluminescence

تعتمد هذه الطريقة على حقيقة أن كل خزف أو صينى يشمل نسبا ضعيفة من المركبات المشعة، وقوة الضوء أى الإضاءة الحرارية تتبع طردا عمر الخزف، وهى تتبع أيضا الطبيعة الخاصة لمولدات الاضاءة الحرارية الموجودة فى الخزف وفى الجوار المباشر للموضع الذى اكتشف فيه، ويمكن قياس عناصر المركبات المشعة بالأشعة التى تقبلتها كل سنة، ويعين العمر مبدئيا حسب المعادلة الآتية:

$$\text{العمر} = \frac{\text{شدة الأشعة المتجمعة}}{\text{شدة الأشعة السنوية}}$$

وتساعد هذه الطريقة الباحثين فى حقل دراسة الدهور الحجرية نظراً لأنها تعتمد على الخزف وهو موجود بوفرة فى المواقع الاثرية أكثر من المواد العضوية، كما أنها تحدد وقت حرق الخزف أى صناعته، وذلك بعكس طريقة الكربون المشع التى تعتمد على وقت قطع الشجرة، لاوقت استخدام الاخشاب فى الصناعات الانسانية.

إلا أنه يؤخذ على هذه الطريقة أن نتائجها الحالية صحيحة إلى ± ١٠٪،

---

(١) زكى اسكندر، المرجع السابق، ص ٢٣١.

ويعتقد الباحثون أن تصل نتائجها فى المستقبل إلى ± ٥ ٪[١].

٦- طريقة التوقيت المتتابع Sequence Dating

وتعرف هذه الطريقة أيضا بـ«دراسة الطرز ومقارنتها» Typology وبمقتضى هذه الطريقة تقارن الآثار التى يعثر عليها فى مناطق مختلفة بعد دراستها دراسة فاحصة شاملة، بحيث يصبح فى الامكان استنتاج تاريخ تلك الآثار بعضها إلى بعض الآخر، ويمكن القول اجمالا بأن تشابه آثارا جهة من الجهات لآثار منطقة أخرى يوحى بأن الحضارات المنتجة لها كانت متعاصرة، أما اختلاف تلك الآثار فيدل على أن هذه الحضارات لم تكن متعاصرة.

ومن أوائل الذين استعملوا هذه الطريقة الاثرية الانجليز، سير فلندرز بترى[٢] Sir Flinders Petrie، حيث قام بدراسة الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى حياته نقاده والبلاص دراسة مقارنه من حيث طريقة الصنع وأشكال هذه الأوانى وطرق التزيين المختلفه، وذلك على أساس حقيقة التطور فى الصناعات منذ البداية، بمعنى أن أية أدلة أثرية قد مرت بعدة مراحل من التطور فى انتاجها، وعندما يعثر علماء الآثار على مجموعات من هنا الأدله المختلفه يستطيعون بالدراسة المقارنة ترتب هذه الآثار حسب طرازها آخذين فى الاعتبار الامكانيات الخاصة بكل منطقة وظروف الانسان فيها ومستواه الحضارات فى كل موقع على حده.

ولقد صنف بترث الأوانى الفخارية تصنيفا دقيقا، واعتمد فى نظامه على الترقيم، فقسم هذه الأدوات إلى مجموعات، وبدأ أدلى هذه المجموعات برقم ٢١ تاركا ماقبل ذلك لما يحتمل أن يستجد به البحث، وبدأ أولى هذه المجموعات برقم ٢١ تاركا ماقبل ذلك لما يحتمل أن يستجد به البحث، وبدأ المجموعة الأولى من

---

(١) انظر:
Aitken, M.J., "Dating by Archaeomagnetic and Thermolumine Scent Methods", in P.T.R.S., A.269, No.1193, pp. 77-88.

(2) Petrie, W.M.F., The Making of Egypt, London, 1931

رقم ٢١ - ٢٩ وهى خاصية بحضارات العصر الحجرى الحدث وعصر الحجر والنحاس، ومن رقم ٣٠ - ٣٧ وهو خاص بحضارة نقادة الأولى، ومابعد ذلك لحضارة نقادة الثانية أو حضارة جزره الأخيرة.

وهذه الطريقة لاتعطى تقويما ثابتا، بل هى تساعد على ترتيب التطور الحضارى للأدلة الاثرية وبخاصة الأوانى الفخارية، وقد ساعدت هذه الطريقة الباحثين فى ترتيب الحفارات المصرية السابقة للعصر التاريخى، ولكن حدث تعديل فى الترقيم بناء على الدراسات المقارنة وكذا الفور على بعض الأدلة الأثرية الجديدة[1].

ويؤخذ على هذه الطريقة أنها طريقة نسبية صرفه ولاتعطى تأريخا ثابتا، كما أنه لايمكن تطبيقها على جميع أنواع الفخار. ومن ناحية أخرى فإنها إذا كانت تتطبق على فخار مصر العليا، فإنها لاتنطبق على فخار الشمال، ويضاف إلى ذلك حدوث اختلاف فى بعض الصناعات التالية بين الشمال والجنوب من ناحية تطورها الحضارى وبداية ظهورها فإذا أضفنا إلى هذا أن بعض الآثار الفخارية فى مجموعة بترى ليس لها تاريخ معروف وعلى ذلك فإنه يجب الحرص عند استخدام هذه الطريقة على الحضارات المصرية فيما قبل عصر الأسرات فى مصر كلها.

٧- طريقة الطبقات Archaeological Stratification

تعتمد هذه الطريقة على دراسة الطبقات الأثرية فى الأماكن التى عاش فيها الانسان والتى تكونت نتيجة لسكنى الانسان فى منطقة ما، ثم هجرته منها ربما لأسباب اقتصادية أو بيئية أو سياسية، ثم سكنى مجموعة بشرية أخرى فى نفس هذا المكان بعد ذلك ثم تركها له، وحجر مجموعة تالية فى نفس المكان وهكذا ، ؤدى ذلك إلى تكوين طبقات تمثل آثار سكنى وإقامة هذه المجموعات البشرية، وتجمعت هذه الآثار بعضها فوق بعض مكونه طبقات التلال والأكوام والتبات.

---

(١) رشيد الناصورى. المرجع السابق، ص ٩٤

ويقوم العلماء بدراسة المخلفات الحضارية وتقدير عمرها جيولوجيا وبالتالى يمكنه تأريخ الآثار التى توجد فى هذه الطبقات، ومن أهم مايعتمد عليه الجيولوجيون فى تقدير عمر الطبقات احتساب معدل الارساب فى حالة الطبقات، ومن أهم مايعتمد عليه الجيولوجيون فى تقدير عمر الطبقات احتساب معدل الارسابت فى حالة الطبقات الرسوبية أو تقدير عمر الحفريات الموجودة فى الطبقة المراد تأريخها، ويمكن الاستعانة بعلم النبات القديم وبعلم الحيوان الوصفى، ومن ذلك يمكن أيضا استنتاج الظروف المناخية التى كانت تسود فترة قيام الحضارات التى تدرس آثارها ومخلفاتها، بل ومن الممكن عند وجود آثار مصنوعة نم الأشجار تقدير الزمن الذى استغرقته الحضارة التى انتجت هذه الآثار[1].

وتساعد هذه الدراسة المؤرخ فى التعرف بصورة نسبية على مدى عمر هذه الحضارة أو ذلك كما هو مبين فى طبقات هذه التلال. هذا وبمعاونة الطرق التقويمية الأخرى يتمكن الباحثون من الوصول إلى تأريخ هذه الحضارات.

٨- طريقة حلقات جذوع الأشجار Tree Ring Dating

تعتمد هذه الطريقة على أساس أن مراحل نمو البنات تعتمد على كمية المياه وأشعة الشمس ونوع التربة التى ينمو فيها، وتظهر مراحل نمو النبات فى شكل دوائر أو حلقات فى داخل جذوع الأشجار، ويتضح ذلك فى القطاع الأفقي لها، وتتفاوت المسافة بين هذه الحلقات على مدى تأثر الأشجار بالظروف الطبيعية التى تساعد على النمو وخاصة كمية الأمطار، وبالدراسة المقارنة، وبالاستعانة بعلم النبات لمعرفة الزمن اللازم لمراحل نمو النبات يمكن التوصل إلى عمر الأشجار وبالتالى عمر المجتمعات الانسانية التى استخدمها.

٩- طريقة الدراسة المقارنة Comparative Archaeology

تعتمد هذه الطريقة على مقارنة الأدلة الأثرية المختلفة فى المناطق الأثرية

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجىء الإسكندرية، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٨

المتعددة، وبواسطة تقدير عمر الآثار فى احدى المناطق يمكن بواسطة المقارنة التحديد النسبى لعمر الآثار المشابهة فى مناطق أخرى، ويتطلب ذلك من الباحث إلماماً كافيا بالمادة الأثرية فى كل موقع على حده، وكذلك فى أماكن متفرقة حتى يتمكن من مقارنتها على أساس سليم، والوصول منها إلى تقدير معاصرة أو أسبقية بعض الحضارات على الأخرى(١).

(١) رشيد الناضورى، المرجع السابق، ص ٩٩

الفصل الثانى
عصور ماقبل التاريخ
فى
مصـــــر

أ- الظروف البيئية والبشرية

تشمل الحضارة كل ما انتجه الانسان من النواحى المادية والمعنوية، ويرتبط الانتاج الحضارى بتطور حياة الانسان واستجابته بيئته وتطور تجاربه المتوارثه والمكتسبه والمؤثرات الخارجية.

والحضارة في اللغة خلاف البداوة لأنها تدل على سكنى الحضر، وهى مظاهر الرقى العلمى والفنى والاجماعى فى الحضر(١).

ونظراً لاتجاه الانسان الدائم لمحاولة توفير حاجياته التى تكفل له الحياة، فإنه يحاول ابتكار الأدوات التى تساعده وتيسر له حياته، فإن كل مجتمع انسانى مهما كان بدائيا يصيب شيئا من التصور يبذل الجهد والكفاح الدائم، فإن هذا اللفظ خرج عن مدلوله الأصل إلى مدلول عام شامل، فأصبحت كلمة الحضارة تطلق على كل انتاج مادى أو أدبى للإنسان سواء كان انتاجا ذاتيا أو بدائيا، فطالما فكر الانسان وحاول أن ينقل هذا الفكر إلى حيز الواقع فى صورة انتاج مادى أو أدبى، أصبح هذا الانتاج فى هذه الحالة انتاجا حضاريا.

فالحضارة تمثل كل مظهر من مظاهر الانتاج البشرى، ويحددها سلوك الانسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة، ولذا كان من الطبيعى أن يختلف المظاهر الحضارية لكل بلد عن المظاهر الحضارية للبلاد الأخرى.

وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الانسان من الخوف، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والابتكار، وبعدئذ لاتنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها(٢).

وتشابهت الظروف المناخية أثناء مرحلة الدهر الحجرى القديم الأسفل، حيث يرجح أنه يتفق وفترة تراجع الجليد الثالث (رس Riss) ولذا تشابهت الحضارات الانسانية خلاله، وفى الدور الحجرى القديم الأوسط انقسم العالم القديم إلى

---

(١) المعجم الوجيز، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٥٧.

(٢) دل ديورانتك قصة الحضارة، جـ١، الطبعة الخامسة، ص ٣.

قسمين كبيرين: أوراس وافريقى، إذ أخذت الظروف المناخية تتغير لتقدم الجليد خلال عصر الجليد الثالث إلى العروض الوسطى، واختلفت تبعا لذلك مظاهر الحضارة فى كل منهما، واستمر المال كذلك طوال عصر الجليد الثالث وفترة الانحسار التى تلته وعصر الجليد الرابع (فرم Wurm). وازدادت الاختلافات المناخية

بعد هذا العصر الأخير حيث تراجع الجليد فكانت لكل اقليم ظروفه الخاصة وتباينت تبعا لذلك الحضارات التى سادت خلال الدهر الحجرى القديم الأعلى، ثم أخذ الجفاف يتزايد فى العروض الوسطى والمدارته فاشتد تباين الظروف الطبيعيه حتى تميز البيئات المحلية بعضها عن البعض وأصبحت لكل منها ظروفها الخاصة فى العصور التالية، ولذا فإن مايشاهد من مظاهر حضاريته فى بيئة ما لايمكن العثور على نظائرها لها فى بيئات أخرى إلا إذا تشابهت الظروف أو نتيجة لانتقال هذه المظاهر الحضارية من بيئاتها الأصلية إلى تلك البيئات[1]. وعلى ذلك فإننا سنقوم بدراسة الظروف البيئية والبشرية فى مصر

البيئة المصرية:

إن أرض مصر من الناحية الجيولوجية جزء مما يسمى «كتلة النوبة – الصحراء العربية Arabo - Nubian Massip، التى هى بدورها جزء من «درع الصحراء الكبرى أو الدرع الافريقى العظيم» والذى يعد بدوره هو الآخر جزءا من قارة جوندوانا الأركية القديمة، والتاريخ الجيولوجى لمصر نتاج التفاعل بين التطور الجيولوجى القارى فى الجنوب وكذا التطور الجيولوجىالبحرىفى الشمال.

فالقطب الجنوبى هو الكتلة القارية أو المركب القاعدى الجوندوانى، الذى يشكل الأساس السفلى الأعمق لأرض مصر حميعا، أما القطب الشمالى البحرى فهو بحر التثير، وهو البحر الجيولوحى العميق القديم Geosgncline الذى كان يقع إلى الشمال من قارة جوندوانا متوسطا قارات الزمن الآركى أو ماقبل الكامبرى والذى يعد البحر المتوسط الحالى آخر بقاياه، أى أن نواة أرض مصر هى أساسا، وإن

(١) محمد أبو المحاسن عصفور المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣

لم يكن بطريق غير مباشر جدا، من النسل الجيولوجي لقارة جوندوانا. كما أن البحر المتوسط الحالي هو بالمعنى نفسه سليل التثيز[١]

وسنقوم بتتبع أثر البيئة المصرية على المقومات الحضارية المصرية وذلك بدراسة الأحوال البيئية منذ الزمن الجيولوجي الرابع (البليستوسين)، ولقد كان المناخ خلال هذا الزمن يختلف عما يسود العالم الآن، فكان معظم أوربا يكسوه الجليد، على حين كانت الأقاليم الصحراوية الواقعة جنوب البحر المتوسط ذات مناخ يشبه من وجوه كثيرة مناخ جنوب أوربا في الوقت الحاضر، ويعرف ذلك العصر في أوربا بالعصر الجليدي، وفي أقاليم الصحراء بالعصر المطير.

ومن ناحية الثروة النباتية، فقد وجدت في المنطقة الواقعة جنوب البحر المتوسط ثروة نباتية متوسطه من الحشائش والأعشاب والأشجار المتفرقة التي كانت تتركز في بعض الوديان إلى درجة تقربها من الغابات الخفيفة غير المتكاثفة، وعاشت في هذه البيئة العديد من الحيوانات كالوعل والغزلان والضباع والأغنام الوحشية والبقر الوحشي والنعام.

وعند نهاية العصر المطير، وانعدام الامطار أو قلتها الشديدة في خطوط العرض الصحراوية فقد زاد اعتماد الجماعات البشرية على مياه النهر الجارية، وانتقل مسرح نشاطها من الصحاري وحافاتها إلى وادي النيل، وأخذ الإنسان يتحول تدريجيا نحو استنبات النبات بدلا من الاعتماد على النباتات البريه التي تنمو في الطبيعة، فاهتدى إلى معرفة الزراعة واستقر في أوطان صغيرة على ضفاف نهر النيل. وكان الوادي ودلتاه في أول الأمر كثير المستنقعات، ولذلك اقتصر نشاط الانسان في العصر الحجري الحديث على حافات الوادي الخارجية وعلى بعض المناطق الملحقه كإقليم الفيوم[٢].

ومن أهم العوامل المميزة والمؤثرة في البيئة المصرية، نهر النيل الذي أعطى

---

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، دار الهلال ١٩٩٤، ص ٦٨

(٢) سليمان حزين: حضارة مصر أرض الكنانة، القاهرة، ١٩٩١، ص ٩٩ - ١٠١

الحياة لهذه المنطقة من العالم. ويعتبر نهر النيل من أحدث الظاهرات الطبيعية الهامة في مورفولوجية مصر، كما أنه يعتبر أحدث أنهار افريقيا كلها من الناحية الجغرافية[1]

ولم ينشأ النيل دفعة واحدة كنظام نهرى واحد، وانما تكون أصلا من مجموعة من النظم النهرية الإقليمية التى بدأت منفصله بعضها عن البعض الآخر، ثم أخذت فى الاتصال ببعضها إلى أن توحدت فى نظام نهرى واحد.

ويعتبر نهر النيل من أطول أنهار العالم، إذ يبلغ طوله أكثر من ستة آلاف كيلو متر، وهو كذلك يمتد فى استقامة غير عادية، إذ أن اتجاهه العام هو من الجنوب إلى الشمال فيما بين خطى طول ٢٩°، ٣٩° شرقا، رغم وجود بعض الثنيات الموضعية فى مجراه، وتقع أقصى منابعه الجنوبية عند خط عرض ٣,٥° جنوب خط الاستواء، وينتهى مصبه عند خط عرض ٣١° شمالا، أى أنه يقطع أكثر من أربع وثلاثين درجة عرضية، وليس هناك نهر من أنهار العالم الكبرى له مثل هذه الصفة الفريدة، فهو ينبع فى المنطقة الاستوائية المرتفعة، وتمر بعض منابعة فى أخاديد يشبه مناخها النوع الاستوائى المنخفض، ثم يمر فى منطقة حوض الجبل والغزال ذات المناخ شبه الاستوائى، ويتلقى بعد ذلك من الشرق متابعة الحبشية التى تأتى من منطقة شبه موسمية، ثم يمر بالسودان، وهو يمثل منطقة مناخية قائمة بذاتها، ثم يعبر النيل النطاق الصحراوى الحار حتى يبلغ فى النهاية أطراف منطقة حوض البحر المتوسط

وبذلك يجمع نهر النيل بين مناطق تختلف بعضها عن بعض، ليس فقط من الناحية الطبيعية العامة أو الناحة المناخية، وانما كذلك من الناحية النباتية ومايترتب عليها من اختلاف فى المظهر الحضرى العام، وهو أمر لايوجد له مثيل بين أنهار العالم الأخرى[2]

(١) محمد عوض محمد: نهر النيل، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٤٢

(٢) سليمان حزين: «سكان وادى النيل» محمد ... ج لحضارة المصرية، العصر الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٦١، ص ٧ ٨

ويرى العديد من الباحثين إلى أنه قبل أن يتكون نهر النيل بصورته الحالية فى مصر، كان هناك نهر آخر يطلق عليه اسم «النيل القديم» أو «النيل الليبى» ومن أوائل الذين نادوا بهذا الرأى الجيولوجي ماكس بلانكنهورن، ولقد اعتمد أصحاب هذا الرأى على بعض الأدله فى اتجاههم هذا ومنها، وجود بعض الرواسب النهرية وحفريات المياه العذبة والأشجار المتحجرة فى التكوينات الجيولوجية القديمة فى أجزاء من الصحراء الغربية، ومن هنا فقد اعتقدوا أن نهرا ضخما واحدا هو الذى كونها وكان يجرى إلى الغرب من مجرى النيل الحالى وموازيا له تقريبا متجها نحو الشمال إلى البحر المتوسط الذى كان يمتد آنذاك إلى الجنوب من خط ساحله الحالى.

ويرى أصحاب هذا الرأى[1] أن هذا النهر قد بدأ فى عصر الايوسين حيث كان يصب فى البحر قرب بحيرة قارون، ثم استمر فى عصر الأوليجوسين، ثم الميوسين حين بلغ أقصى نموه حيث انتقل مصبه قريبا من وادى النطرون، وفى عصر البليوسين أخذ النهر يتضاءل ويتدهور حتى انقرض تماما فى آخره، وفى أواخرعصر البليوسين طغت مياه البحر المتوسط على أدنى وادى النيل الحالى وغمرته لبعض الوقت ونتج عن ذلك تكون عدة انكسارات وفوالق مهدت لمجرى النيل الحالى فى مصر.

ويعترض الاستاذ الدكتور جمال حمدان اعتراضا شديدا على هذا النيل السابق لنهر النيل الحالى وفى ذلك يقول[2]:

«ليس للنيل فى مصر أب ولاجد، لا «بروفة» ولانواة، وليس له أصل سابق من الغرب (النيل الليبى) ولامن الشرق (أودية الصحراء الشرقية)، لا أور - نيل Ur - Nil، ولانيل مستعار Pseudo - Nile. ثمة فقط نيل واحد من البداية إلى

---

(١) انظر:

محمد عوض محمد: المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٧٠

سليمان حزين: المرجع السابق، ص ٩-١٠.

(٢) جمال حمدان. المرجع السابق، ص ١٤٣.

النهاية، هو النيل الأول (البروتو - نيل) فى الحالة الأولى، والنيل الأعظم فى الحالة الأخيرة، فإنما ولد النيل فى مصر مرة واحدة ولادة كاملة.

* ويقول الاستاذ الدكتور جمال حمدان أيضا أنه بالنسبة للنيل الليبى القديم، بغرض وجوده، فهو نهر مختلف ومستقل تماما عن نيل مصر الحالى المعروف فجذعه الأساسى يقع إلى الغرب من نيلنا بنحو ١٠٠كم على الأقل تصل إلى ٢٠٠ كم فى بعض المواضع، ويشير أيضا إلى أنه من الواضح أن الخطأ الجوهرى إنما يكمن فى تسميته بالنيل، فهذا مصدر الخلط كله، وكل مافى الأمر أنه نهر جيولوجى انقرض، أى نهر حفرى ولايمت إلى النيل بنسب[١].

وانطوى تكوين نهر النيل فى مصر على كثير من التنظيم والتتابع المتسق، الذى كان له أكبر الأثر فى أن البيئة المصرية الطبيعية، أصبحت بيئة صالحة لان تقوم فيها حضارة مستقرة للانسان. فالوادى نفسه قد حفر فى هضبة مستوية، ثم ردم برواسب جلبتها امطار العصر المطير فى اواخر البلايوسين وخلال البلايستوسين، وهى مواد رملية أو حصاوية غطت الطبقات الخليجية الملحة التى توجد فى قاع الوادى، ومما يلاحظ أن النيل الشمالى فى معظم العصر المطير كان يقتصر فى جريانه على مصر وصحراتها الشرقية وبلاد النوبة وشرق السودان والاطراف الشمالية القصوى من الحبشة ولذلك فان الجانب الأكبر من الرواسب انما كان يأتى من النوبة والصحراء الشرقية وهى مناطق تجلب الاودية، منها مواد خشنة أو حصاوية، هى التى ردمت وادى النيل فى مصر، وكونت المدرجات الجانبية من جهة، والرواسب التى ملأت قاع الوادى من جهة أخرى.

كانت تلك الرواسب بمثابة البطانة لما جاء بعدها من رواسب الحبشة الدقيقة، والتى تتكون من الطمى وقشيرات الميكا الدقيقة، والتى جلبتها الروافد الحبشية، وهذا التتابع فى الرواسب كانت له قيمته المؤثرة فى تكوين التربة المصرية. اذ اننا نجد فى القاع طبقات خشنة تعتبر بمثابة المصفاة التى تتشرب المياه وتجرى بها تحت السطح

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢٧

حتى تبلغ البحر. اما الطبقة العليا من التربة فهى تلك المواد الغرينية الناعمة وغير السامية، والتى امدتنا بها الحبشة فيما بعد، ولقد جاء الانسان واستقر فوق التربة السطحية واشتغل بالزراعة وتمكن من تكوين حضارته المستقرة.

مما هو جدير بالذكر ان وصول طمى الحبشة إلى النوبة ومصر العليا ثم إلى مصر الوسطى والدلتا، انما جاء في وقت كانت فيه الامطار قد اخذت تقل فى أقصى الشمال، وبذلك كان وصول مياه الحبشة، ومعها المياه الاستوائية، بمثابة انقاذ نهر النيل، ولولا ذلك لتحول النيل الشمالى بالتدرج إلى واحد من الاودية الجافة مثل تلك التى نشاهدها الان فى الصحراء الشرقية ولكن مياه الحبشة جاءت غزيرة وفيرة الطمى، تجرى على الخصوص فى فصل الفيضان وتساعد بما تحمل من رواسب على تمهيد مجرى النيل وازالة العقبات منه.

وكان لوصول مياه الحبشة فى الوقت الذى بدأت فيه الصحارى تجف تدريجيا، الاثر الأكبر فى تمركز حياة الانسان فى وادى النيل، اذ بدأت عناصر السكان التى كانت تعيش فى العصر الحجرى القديم الاعلى تضيق بها سبل العيش فى المناطق الصحراوية، نتيجة لقلة الامطار، ومن ثم فقد حدث تركز اقليمى لحياة النبات والانسان والحيوان فى قاع وادى النيل وعلى جوانبه، وانحصر مجال تنقل السكان على طوال ذلك المجرى أو فى بعض أرجاء دلتاه، وكان هذا أول دور تركزت فيه الحياة البشرية وأخذت حضارة مصر تصبح حضارة مميزة وذات طابع اقليمى محلى، جعلها فى النهاية تختلف عن بقية حضارات العالم. ويبدو أن هذا التركيز فى الحياة كان تمهيدا لتطور جديد فى الحضارة ظهرت نتائجه فيما بعد فى العصر الحجرى الحديث.

ولقد عادت أحوال المطر إلى التحسن قليلا خلال الدور الممطر فى العصر الحجرى الحديث ومابعده، وأدت زيادة المطر قليلا إلى اتساع مجالات الحياة والاتصالات الحضارية، فاتصلت حياة السكان بعض الاتصال بالصحارى المجاوره، بل بما وراء الصحارى فى بعض بلاد الشرق الأدنى وشمال افريقية، كما امتد

الاتصال أيضا على طول مجرى النيل، بل على طول بعض الأودية مابين مصر وبلاد النوبة والسودان.

وامتازت هذه المرحلة أيضا بزيادة الأمطار كذلك فى الحبشة وفى شرق أفريقيا وترتب على ذلك ازدياد فى كمية المياه والرواسب التى تصل إلى مصر إبان الفيضان، وكان من نتائج ذلك أن جاءت سلسلة من الفيضانات العالية التى جلبت مزيدا من الرواسب إلى مصر، وألقت بها على سطح التربة، فردمت ماتخلف من مستنقعات قديمة وأكملت تكوين الدلتا وقاع الوادى فى كل من مصر الوسطى والعليا، وبذلك زاد تمهيد الأرض واعداد التربة، وتوسيع رقعة الطمى والأرض السوداء، مما أعان بالتدريج على تكوين بيئة الاستقرار الزراعى فى مصر.

واذا كانت الدلتا لم تبدأ فى الظهور والتكون إلا منذ البلايستوسين وليس قبله، فإنها كانت قد بلغت نحو نصف امتدادها الراهن منذ العصر الحجرى القديم الأوسط على الأقل، وأخذت تنمو تدريجيا وتتقدم شمالا على حساب البحر على مراحل كان آخرها فى العصر الحجرى القديم الأعلى والعصر الحجرى الحديث، إلا أنها عادت وتقلصت بعض الشيء فى منتصف الحجر الحديث، ويبد أن هذا الاتجاه قد استمر فى العصر التاريخى حيث أنه من الثابت أن شريطا من ساحل الدلتا قد تعرض للهبوط والغرق.

ويتضح من الأدلة النصية والأثرية أن شبكة فروع الدلتا كانت فى حالة تغير وتطور لاتنقطع طوال تاريخ مصر، ومن هذه المصادر ما أشار إليه هيرودوت، وسنذكر ما أشار إليه بالتفصيل وذلك كمثال يوضح لنا التطورات التى حدثت لفروع النيل فى الدلتا حتى استقرت فى النهاية فى فرعين رئيسيين، وفى ذلك يذكر هيرودوت[١].

«... وينساب النيل فى مجرى واحد حتى مدينة «كركاسور Cercasore، ومن

---

(١) انظر: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجه، وقد لها وشرحها أحمد بدوى، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٩١ - ٩٣.

عند هذه المدينة يتفرع إلى فروع ثلاثة، أحدهما يتجه نحو الشرق، ويسمى الفرع البيلوزى، والثانى يسير نحو الغرب وهذا يسمى الفرع الكانوبى. أما الفرع المستقيم من النيل فيجرى هكذا: عندما ينحدر النهر ويصل إلى رأس الدلتا، (عند هذا الرأس) ينشطر الدلتا فى الوسط، ويصب فى البحر. وليس هذا الفرع هو أشح الفروع ماء، ولاهو أقلها شهرة واسمه الفرع السبنيتى. وهناك أيضا فرعان آخران ينفصلان عن هذا الأخير ويجريان إلى البحر، أحدهما يسمى الفرع «السايس» والثانى الفرع «المنديس». أما الفرعان البوليثى والبكولى فليسا طبيعيين ولكنهما صناعيان» (شكل ١).

يلاحظ من النص السابق الذى أورده هيرودوت أنه جعل رأس الدلتا ونقطه تفرع أفرعها عند بلدة «كركاسور» التى يرجح أنها كانت عند المكان المعروف اليوم باسم «الوراق» على الشاطىء الغربى للنيل تجاه جزيرة الوراق الحالية شمال غرب مدينة القاهرة.

ويميز هيرودوت بين مجموعتين من فروع الدلتا رئيسية وثانوية، أما الفروع الرئيسية فهى ثلاثة[١]:

١- الفرع البيلوزى Pelusiac: وهو يقع إلى أقصى الشرق ويصب عند بيلوز (الفرما) التى ينسب اليها، ويمثله حاليا عند دطوسون البحر الشبينى والخليلى وترعة أبوالأخضر ثم بحرفاقوس وترعة السماعنه.

٢- الفرع الكانوبى Canopic: وهو الفرع الغربى الأقصى والرئيسى فى غرب الدلتا ويصب عند كانوب، ومن هنا جاءت تسميته بهذا الاسم.

٣- الفرع السبنيتى: نسبة إلى سبنيتوس Sebennytos، سمنود الحالية وهو الفرع الرئيسى الوحيد داخل الدلتا، يبدأ عند رأسها ويكاد يتوسطها مارا بمدينة ب (بوتو / أبطو الحالية شمال قرية العجوزين بحوالى ٣ كم. مركز دسوق -

(١) انظر: نفس المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٣ حواشى ٢- ٧، وكذلك جمال حمدان: المرجع السابق، ص ١٩٣ - ١٩٥.

محافظة كفر الشيخ)، ومنها إلى بحيرة البرلس عند فتحه برج البرلس. ويذكر الأستاذ الدكتور جمال حمدان أن طوسون يضع السبنيتى بامتداد فرع دمياط الحالى من رأس الدلتا حتى سمنود، ثم يجريه بعد ذلك فى بحر تيره مارا بالحامول ثم حافا بطرف بحيرة البرلس الشرقى إلى أن يصب عند برج البرلس.

أما الفروع الثانوية فهى:

١- الفرع السايس: نسبة إلى سايس (صا الحجر)، ويذكر طوسون أنه يخرج من الجنوب عند اتريب (قرب بنها الحالية)، ويجريه فى بحر مويس وينتهى على الساحل عند ام فرج فى منتصف المسافة بين بيلوز وبورسعيد.

٢- الفرع المنديس: يصب فى بحيرة المنزلة جنوب شرق رأس البر بنحو ١٣ كم، ويذكر طوسون أنه يبدأ قرب ميت غمر ثم يجرى ليمر بمنديس (تل الربعه الحاليه) ليحتل البحر الصغير، ثم يخرج فى النهاية من فتحه الدبية بالمنزله.

٣- البوكولى: يقول هيرودوت أنه فرع صناعى من صنع الانسان، ويتمثل الآن فى النصف الشمالى تقريبا من فرع دمياط الحالى ابتداء من شبرا اليمن ومارا بسمنود.

٤- البولبيتى: وهو الفرع الصناعى الثانى، وهو يتفرع من الكانوبى نحو الشرق وذلك قرب دمنهور متجها شمالا شرقا ليحتل الثلث الأخير من فرع رشيد الحالى ابتداء من الرحمانية.

وحذا سترابو حذو هيرودوت فذكر أيضا سبعة أفرع بالدلتا، يشترك معظمها فى نفس الأسماء وكذلك مساراتها (شكل ٢).

ويعرد بطليموس بأنه قد وصلتنا منه خريطة رسمها بنفسه للدلتا، ولقد ذكر ستة فروع للدلتا تنتهى بتسعة مصبات، وأشار إلى أن من هذه الأفرع والمصبات ماهو صناعى وليس طبيعى، وينفرد أحد فروعه بمحور عرضى إتماما قسم بعضها الدلتا إلى ثلاث وحدات أو دالات أصغر.

والأفرع التى ذكرها بطليموس هى: البوبسطى، البوصيرى، الاتريبى، التيرمونى، تالى، اجاثو دايمون، التانيس، المنديس، الفاتمينى، ديولوكس (وهو مصب زائف)، بنبتمى (وهو مصب زائف)، السبنيتى، البولبيتى، الهرقلى (شكل ٣-٥).

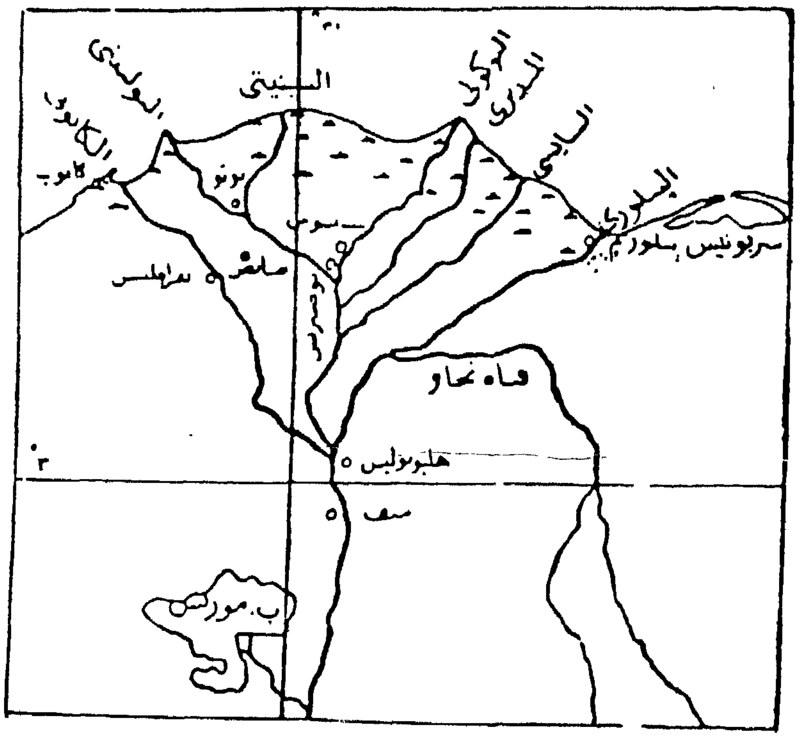
ويلاحظ أن أغرب فروع بطليموس، وأكثرها مدعاة للدهشة، هو الفرع البوتى (نسبة إلى مدينة بوتو) فكل الفروع مروحية ماعداه فهو الوحيد العرضى المحور بينها، وهو يمتد من الغرب إلى الشرق فى محاذاة أو موازاه الساحل تقريبا وعلى بعد متجانس منه نحو ٥٠- ٦٠كم، وواصلا بين كل الفروع الطولية الرئيسية الأخرى، وهو يبدأ عند نهر تالى بالقرب من دمنهور، أو لعله تفرع منه عند كوعه قرب الرحمانية، متجها نحو الشمال الشرقى ليمر بمدينة بوتو التى ينسب إليها، وبعدهايمضى شرقا حيث يتقاطع على التوالى مع التيرمونى قرب قرية الحمراء ومع الاتريبى قرب لمنيخ ومع البوصيرى قرب تمى الأمديد وأخيرا مع البوبسطى قرب دفناى (تل دفنه الحاليه).

ويتضح من ذلك أن هذا الفرع من صنع الإنسان حفره لأغرض الرى، وربما كان لذلك لتحقيق توزيع أكمل للمياه اثناء الفيضان فى المناطق الواقعة جنوبه وصرف أفضل لها بعده، حيث كان يحفظ مياه الفيضان فى الجنوب، ويمكن بسهولة تصريف الماء الزائد إلى الشمال بفتحة فيه.

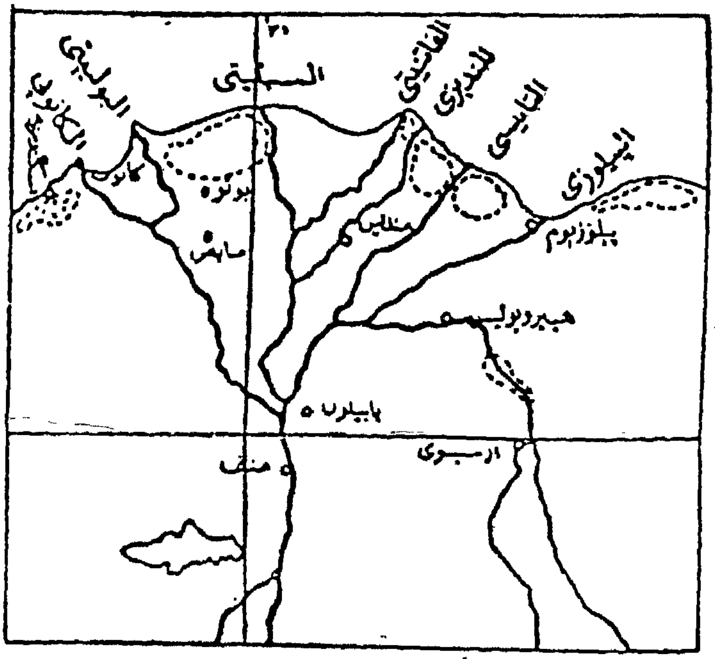
ومما يدعم نظرية الأصل الصناعى لهذا الفرع وجود سلسلة من المرتفعات والتلال البارزه فى شمال شرق الدلتا، ترتفع فوق مستوى السهل المنبسط المحيط بنحو٢-٣ مترا ممتدة من الشرق إلى الغرب تماما وذلك لنحو ٢٠كم بين تمى الأمديد وصان الحجر، وتعرف محليا باسم «تل القنان»[١].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩.

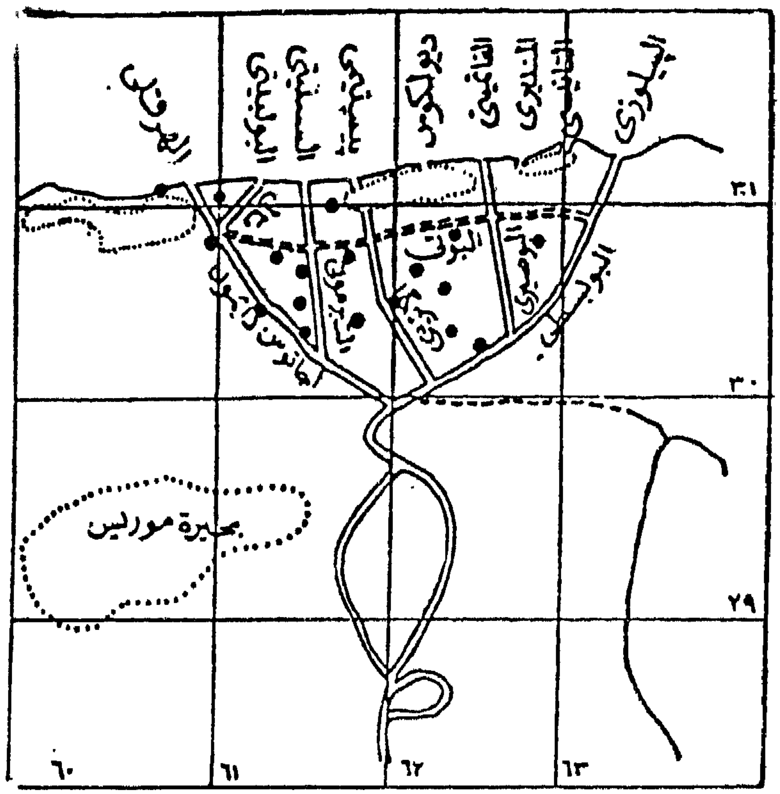


شكل (١) - فروع الدلتا عند هيرودت

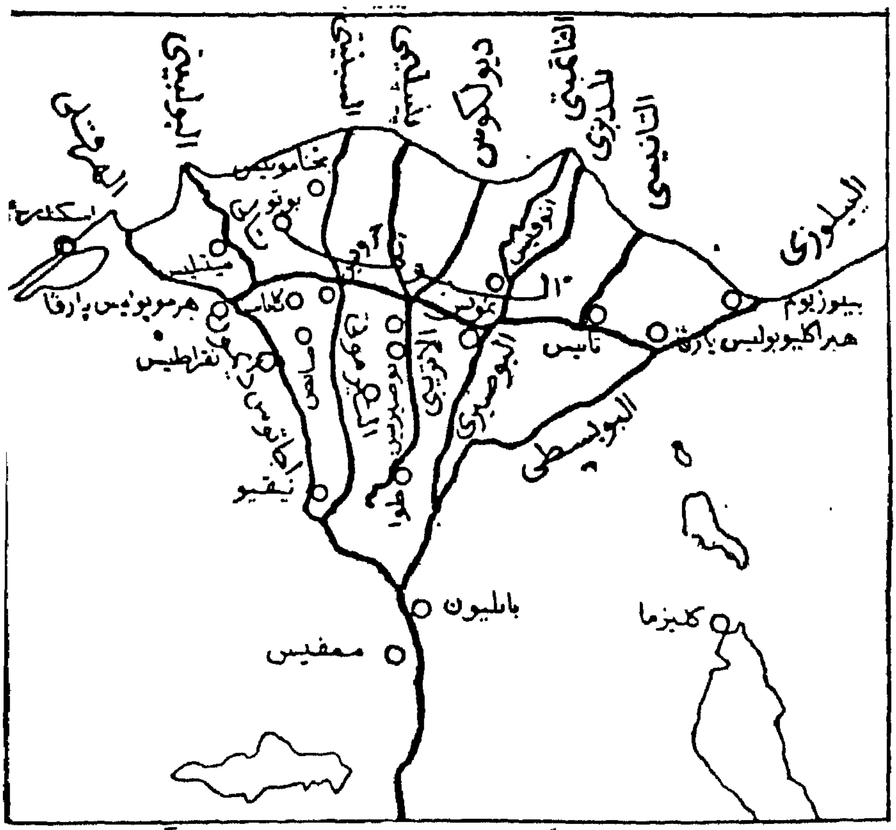


شكل (٢) - فروع الدلتا عند سترابو

حسب المستر بول .



شكل (٣) -خريطة بطليموس الاصلية لمصر وفروع الدلتا



شكل (٤) - فروع الدلتا عند بطليموس

وكان لفيضان نهر النيل أكبر الأثر فى الإنتاج الزراعى، ويبدأ الفيضان فى أواخر الصيف ويستمر حتى نهاية فصل الخريف، فكان الفيض يأتى فيمد أرض مصر بالطمى أى الخصوبة والمياه، وعند انحسار المياه فى اواخر الخريف يكون الوقت مناسبا لزراعة نباتات الحبوب الشتوية واهمها الشعير والقمح وعندما تبدأ بذور هذه النباتات فى النمو يكون فصل الشتاء قد حل، فتتغذى على امطاره، حتى اذا ما بدأ فصل الصيف، تكون تلك النباتات قد أكملت نموها وبالتالى يحل فصل الحصاد. وهكذا تكامل فى مصر الفيضان والامطار الشتوية وأدى ذلك إلى أن اصبحت أرض النيل صالحة كل الصلاحية لتكون مهدا للزراعات الشتوية القديمة.

ويبدأ النهر فى الارتفاع تدريجيا منذ أوائل شهر يولية، ويزداد هذا الارتفاع قوة فى النصف الآخير من شهر يولية، ومن نهاية سبتمبر حتى أواخر اكتوبر يصل الماء إلى حدود ارتفاعه فتغدو مصر بحيرة عظيمة تغمرها المياه وتبرز فيها القرى العالية والمدن كجزر تربط بعضها بالبعض الآخر سدود وجسور عريضة، وبعد أن يبلغ الفيضان أعلى منسوب له يبدأ فى التناقص فى سرعة متزايدة حتى أنه فى شهر يناير يكون قد عاد إلى مجراه الأصلى ثم يستمر فى التناقص حتى فصل الصيف.

وقد اتخذ المصريون بدء الفيضان فاتحة لسنتهم الجديدة، وكان ذلك فى اليوم التاسع عشر من شهر يوليو، ويلاحظ ان هذا الموعد كان خاصا بحلول الفيض فى المناطق الواقعة بين عين شمس والقاهرة، أما فى المناطق الأخرى الواقعة إلى الجنوب فكان يحل الفيض مبكرا بعض الشيء عن هذا الموعد.

ومع ذلك فقد كانت أيام الفيضان قلق بالنسبة للمصرى، اذ أن البلاد جميعها كان يتركز مصيرها على فيض النهر. فلو أن الماء قل فى ارتفاعه شيئا ما فلم يملأ القنوات التى تروى الحقول المرتفعة لنتج عن ذلك هلاك الزرع وأخذ شبح المجاعة يخيم على البلاد، ولو أنه زاد فى ارتفاعه شيئا ماتسبب عن ذلك خراب شديد عندما تتداعى السدود والجسور امامه. فمن اجل هذا كان فيضان النيل منذ

أقدم العصور محلا لرقابة شديدة محكمة. وكانت الحكومة نفسها تضطلع بهذا الواجب وبخاصة ان تقدير الضرائب التى تستحق الاداء كان يختلف من عام إلى عام باختلاف نسبة الفيضان. ومنذ عصر الاسره الاولى اهتم ملوك مصر بتسجيل ارتفاعات النيل. ويتجه كل من الاستاذ ادولف ارمان والاستاذ هرمان رانكة إلى الاعتقاد بانه ربما كان بالقرب من مدينة أون (هليوبوليس - عين شمس الحالية) مقايس للنيل يمكن نسبته إلى عصر الأسرة الأولى.

ومقياس النيل عبارة عن بئر مشيدة، مبين على جدرانها الداخلية مقدار ارتفاع الماء كما هى الحال فى المقاييس المائية. وكانت الدولة تضع مثل هذا البناء تحت رعايتها وحمايتها الخاصنين. وكان موظفوها هم الذين يراقبون ويعلنون عن ارتفاع الفيضان. ومن حسن الحظ فقدتخلف لنا من العصر المتأخر أمثلة من هذه المقاييس فى جهات مختلفة من مصر. ومن أشهر هذه المقاييس المقياس الذى وصفه سترابو فى جزيرة الفنتين. وفى العصر الاغريقى كانت مصر تعتبر الفيضان مباركا ميمون الطالع حين يبلغ ستة عشر ذراعا.

والاعتقاد السائد بأن النيل يغطى البلاد جميعا طولا وعرضا تحت فيض من مياهه دون عناء هو اعتقاد لايطابق الواقع، أو هو على الأقل يطابقه فيما يختص بالفيضان المتوسط المنسوب. اذ ان الكثير من الايدى العاملة كانت تكد وتتعب لتمكن المياه من الوصول إلى الحقول وريها. فكان لابد فى بادىء الأمر ان تحفر الترع الكبيرة التى تصل مياه النيل بالقنوات الصغيرة التى تمد الحقول بمياهها. وهكذا كان لامندوحة للمصرى من أن يكد ويكدح اذا أراد ان يستغل استغلالا كاملا الخير والبركات التى يضفها عليه نهره الميمون.

ويستمر تكامل البيئة الطبيعية فى أرض مصر، فبعد أن يتم الحصاد فى فصل الصيف، تتعرض التربة لحرارة الشمس طوال هذا الفصل، فتجف مكوناتها جفافا شديد يؤدى إلى حدوث تشققات فيها، ويتيح لها ذلك فرصة دخول الهواء إلى مسامها ، حتى اذا ماجاء الفيض من جديد غطاها بطبقة جديدة من الطمي الخصب. وهكذا أصبحت دورة الطبيعية متكاملة العناصر والعوامل، وتلك ظاهرة

لاتكاد نجدها في نهر اخر من انهار العالم الكبرى، واستمرت تلك الظاهرة في أرض مصر منذ فجر التاريخ وكانت هي العامل الاساسي فيما عرفناه من استمرار الحياة والحضارة وتجددهما في أرض مصر على مر السنين.

وفيما يتصل بوادى النيل في مصر، فبعد المكان الذى يقع على مقربة من مدينة اسوان الحالية، والذى يجتاز النيل فيه اخر الجنادل الجرانيتية، والتي يبلغ عددها عشر جنادل وهي تمتد في مساحة يبلغ طولها نحو الاثنى عشر كيلو مترا، يعد هذا المكان منذ أقدم العصور الحد الجنوبي لمصر

ويلاحظ أن طبيعة وادى النيل تتغير بدءا من اسوان فتتخذ صورة جديدة، فالوادى الذى لم يكن يتجاوز عرضه في بلاد النوبة مابين الثلاثة كيلو مترات والخمسة سرعان مايتسع عرضه بشكل ملحوظ حتى انه يصل في بعض المناطق الى مايقرب من الخمسة والعشرين كم، ويرجع السبب في ذلك ان النيل بعد اسوان ومايليها يشق طريقه في نوع اخر من الاحجار، وهي الاحجار الجيرية بعد ان كان يشق طريقه في الاحجار الرملية الموجودة في النوبة وتمتد الاحجار الجيرية على جانبي الوادى حتى تبلغ الدلتا، فتحد مصر من الجانبين في مسافة تبلغ نحو السبعمائة والخمسين كيلو مترا. وعندما يصل النيل إلى منطقة فروعه التى اطلق عليها الاغريق اسم الدلتا لمشابهتها لحرف الدلتا عندهم الذى هو على شكل المثلث فان الحجر الجيرى يختفى لتحل مكانه تكوينات جيولوجية أحدث.

وينحصر جنوب مصر بأكمله بين جدران صخرية يتراوح ارتفاعها في بعض الاحيان بين مائتى متر وثلاثمائة، وهي عبارة عن هضبة واسعة خالية من الماء تماما تتخللها وديان صغيرة عدة ترتفع في القليل النادر إلى قمم جبلية، كما هو الحال على مقربة من الجانب الغربي لطيبة، وتمتد هذه الهضبة في غرب مصر في الصحراء الغربية في سلسلة من التلال الرميلية المتصلة واهم الاخاديد الموجودة في الهضبة الغربية هي الواحات التى توجد فيها عيون مياه جوفية جعلتها مناطق خصبة

أما الهضبة الواقعة إلى شرق وادى النيل، فهي تشبه في شكلها الهضبة الحجرية الا انها تتغير كلما اقتربنا من البحر، فتوجد فيها سلسلة من الجبال العالية والتي تتميز بوجود احجار الجرانيت والرخام السماقي والصخر البلوري وغيرها من الاحجار المتبلورة وهي ترتفع بقممها الداكنة إلى ارتفاع قد يزيد عن الف متر. ومع قلة مياه الابار في هذه الناحية الا ان قربها من البحر يعطيها قدرا كبيرا من الرطوبة يجعل نباتات الصحراء تنمو في كل مكان، حتى انها تتسع في بعض المواضع إلى واحات صغيرة مليئة بالنباتات يجد فيها الحيوان وقطعان البدو غذاء غير ان شدة حرارة الشمس فيها مع قلة المياه يجعل الاستقرار في هذه المناطق الجبلية امرا من الصعوبة بمكان.

ونظر المصرى إلى أرضه على اعتبار أنها الارضين أو الشمال والجنوب، ويلاحظ انها من الناحية الطبيعية مقسمة الى قسمين يختلفان عن بعضهما، فالدلتا عبارة عن أرض مستنقعات فسيحة تتخللها الترع، يتأثر مناخها بالبحر وتسقط فيها الامطار بانتظام في فصل الشتاء. أما الجنوب فهو عبارة عن وادى ضيق يمتد على طول مجرى نهر النيل، وهو خالى في معظم الاحايين من الامطار. وادى هذا التغير في المناخ بين الشمال والجنوب دورا خطيرا في تاريخ وحضارة مصر القديمة، فبينما حفظت لنا أرض الوجه القبلي بسبب جفافها وانعدام الرطوبة فيها اكثر الاشياء سرعة في التلف، ومنها على سبيل المثال لفائف البردى وقطع القماش التي وصلت سليمة وفي حالة حفظ كبيرة، فان جو الدلتا الرطب لم يحفظ الكثير من الاثار مما أدى إلى الاعتقاد في وقت ما بأنه لم تكن للدلتا حضارة، وانها كانت مليئة بالمستنقعات التي لايمكن اختراقها، اما الان فاننا نعلم مدى خطأ هذا الرأى فقد كانت نقطة التثقف الطبيعية في مصر منذ فجر التاريخ وحتى العصور متأخرة تقع في المكان الذى يلتقى فيه الوجه البحرى بالوجه القبلي، أى بالقرب من مدينة القاهرة الحالية.

ويذكر الاستاذ الدكتور سليمان حزين انه يمكن تقسيم وادى النيل في مصر إلى سبعة اقاليم جغرافية، كان لكل منها دوره الخاص في نشأة المدنية وتطورها، ومن

هذه الاقاليم السبعة تكونت مصر التى ربط النيل بين اجزائها بحيث تصبح كل منها يتمم الاخر ويكمله، وهذه الاقاليم هى[(١)]:

١- اقليم النوبة:

ويمكن تقسيمه إلى النوبة الجنوبية وتتمثل فى السودان الشمالى جنوب الجندل الثانى ولاسيما اقليم دنقلا. وتسربت إلى هذه المنطقة معالم الحضارة المصرية القديمة ثم الثقافة العربية عن طريق مصر. والنوبة الشمالية، وهى المنطقة الواقعة بين وادى حلفا واسوان، ويضيق نهر النيل فى هذه المنطقة وتقل الأراضى الزراعية على جانبى النهر، ويمثل هذا الاقليم حلقة الاتصال بين مصر والسودان.

٢- اقليم ادفو (واسنا):

ويلاحظ ان وادى النيل يتسع فى هذه المنطقة بعض الشيء، ويلاحظ كذلك ان الصحارى الموجودة على الجانبين تتكون من الحجر الرملى. ورغم فقر التربة فى هذا الأقليم، الا أنه كان اول اقاليم مصر العليا اتساعا، واستقرت فيه جماعات بشرية منذ أقدم العصور. وفى هذا الاقليم قامت مدينتنا نخب ونخن القديمتان على ضفتى النيل الشرقية والغربية.

٣- اقليم ثنية قنا:

ويتميز هذا الأقليم بزيادة اتساع الوادى وتعرج نهر النيل مما يؤدى إلى زيادة ارسابه، كما يتصل هذا الاقليم ببعض الاودية القادمة من الصحراء الشرقية وبصفة خاصة وادى حمامات ووادى قنا، وتجلب هذه الاودية بعض المواد التى تضيفها إلى رواسب النيل مما يؤدى إلى تنوع عناصر التربة فى هذا الاقليم، مما يزيد خصوبته وثراءه. ويتميز هذا الاقليم بتربته الصلصالية التى تصلح بصفة خاصة لصناعة الفخار. ومن ناحية اخرى فانه يتميز بموقعه الجغرافى الهام، فهو قريب من البحر الاحمر نظرا لانعراج التيار فيه نحو الشرق، وتنوع فيه العديد من الاودية التى تصله

(١) سليمان حزين، «البيئة والانسان والحضارة» ص ٢٠ - ٢٤

بالبحر الاحمر، كما اتصل كذلك فى الغرب بالواحات الخارجية وماورائها من دروب الصحراء. وادى ذلك إلى زيادة النشاط التجارى والثروة التجاريه في هذه المنطقة، ومن أجل هذا كله امتازت ثنية قنا بثروتها فى الزراعة والصناعة والتجارة منذ القدم، ومهد ذلك لهذا الاقليم ان يقوم بدور سياسى كبير فى تاريخ مصر الفرعونية، ففى هذا الاقليم نشا أول ملوك مصر الموحدة الذين حملوا على عاتقهم مهمة توحيد أرض الكتانة فى اقليم واحد وبلد واحد. ويرجح ان يكون مسقط رأسهم فى مدينة طيبة (ـثنى) التي تقع بالقر من البلينا. وفى هدا الاقليم كذلك، وفى منطقة طيبة ومايجاورها جنوبا نشأت الاسرتان الحادية عشر والثانية عشرة اللتين قامتا بدور كبير فى تاريخ مصر القديم وحضارتها خلال مايعرف بعصر الدولة الوسطى، ومن هدا الاقليم كذلك، ومن منطقة طيبة خرج فراعنه مصر الذين حملوا راية الدفاع عن مصرضد الاحتلال الاجنبى والمتمثل فى عناصر الهكسوس وتمكنوا من تطهير ارض الكتانة من دنسهم، ثم أسسوا عصر الدولة الحديثة فى مصر، الذى يعتبر ازهى عصور الامبراطورية المصرية

٤ – اقليم مصر الوسطى:

يمكن اعتبار المنطقة من شمال اقليم ثنية قنا إلى رأس الدلتا اقليم واحدا وان كانت منطقة اسيوط تكون حدا طبيعيا بين مصر العليا والوسطى ويلاحظ ان هذا الاقليم يتسع فيه الوادى وبخاصة فى اجزائه الشمالية، حيث تمتد الاراضى الزراعية على جانبى النهر خصوصا فى الغرب، ويتميز هذا الاقليم بغناه باراضيه الزراعية الفسيحة، الا انه لم يكن متنوع الثروات مثل اقليم ثنية قنا وقام هذا الاقليم وبصفة خاصة اجزائه الشمالية بدور حلقة الاتصال بين الجنوب والشمال، وقامت عند طرفه الشمالى العاصمة منف.

٥ – اقليم الفيوم:

وهو عبارة عن حوض يقع فى غرب الوادى، خارجا عنه، وان كان يرتبط به بفتحة اللاهون أو هوارة، حيث يمر بحر يوسف ليغذى الاراضى الزراعية وبركة

قارون، وكان لهذا الاقليم اهمية كثيرت في تطور الحضارة المصرية في العصر الحجرى الحديث، واستطاع هذا الاقليم ان يحتفظ بطابعه الخاص في المدنية والحياة البشرية خلال العصور التاريخية، ففيه يختلط رعاة الصحراء بالزراع، وفيه يختلف مظهر الريف عن بقية بلاد مصر، فتتدرج الحقول على هيئة مدرجات تنحدر إلى البحيرة.

٦- االدلتا:

وتتميز باتساع الاراضى وتشعب افرع النيل وتتنوع مصار الثروة في الدلتا عنها في الصعيد، فتوجد فيها الاراضى الصالحة للزراعة، والبرارى الصالحة للرعى، والمستنقعات والمجارى المائية التى تكثر بها الاسماك، وتكثر بها الطيور، ومن ناحية أخرى فقد اتاح الموقع الجغرافي للدلتا سهولة الاتصال بالمناطق الواقعة إلى شرقها وغربها وجنوبها وسهل لها البحر طرق الاتصال شمالا فاتصلت حضارتها بالخارج، وادى ذلك إلى زيادة ثرواتها المادية والثقافية والحضارية لذلك كله كان هذا الاقليم منذ فجر التاريخ أوفر خيرا وأوسع أفقا من ناحية المدنية والثقافة، ولكنه كان في الوقت ذاته اكثر عرضة للغزاة والوافدين الذين اندفعوا نحوه من جهات متعددة من ماوراء الصحراء وماوراء البحر. ومع ذلك فانه يلاحظ أن بيئة الاستقرار وطبيعة الحياة في هذا الاقليم المتسع كانتا من القوة والتركيز بحيث ساعدتا دائما على «هضم» الوافدين، وعلى ادماجهم في سكان الاقاليم الذى كانت تصله العناصر الوافدة ثم يصبغها بالصبغة المحلية قبل ان يمتد اثرها إلى بقية البلاد. وهكذا كان للدلتا وظروفها الجغرافية فضل كبير في احتفاظ مصر بطابعها السكاني والحضاري. وكان لكثرة افرع النيل في الدلتا وتغيرها وتحولها من سنة إلى أخرى اثره في تغير الحدود باستمرار بين الاقاليم المتجاورة. وقد نشأت في الدلتا عدة عواصم قديمة مثل ب (بوتو - ابطو الحالية التى تقع شمال شرق مدينة دسوق بحوالى ١٢ كم وتقع إلى الشمال من قرية العجوزين بثلاثة كيلو مترا) وسايس (صالحجر) وتانيس (صان الحجر).

٧ - الأقاليم الصحراوية على جانبى النيل :

وتقع خارج وادى النيل بمعناه الضيق، وتتضمن الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء والصحراء الغربية، وكان لهذه الصحارى أثر هام فى تاريخ مصر العام، فهى تمثل مورداً اقتصادياً كبيراً يضم الأحجار الكريمة ونصف الكريمة كما كانت تمثل الدرع الذى حافظ على وادى النيل من شر الغزوات. وكانت الطرق التجارية تخترق الصحارى شرقاً إلى البحر الأحمر وماوراءه وغرباً وجنوباً إلى شمال أفريقيا والمناطق السودانية. وجنت مصر من هذه التجارة فوائد جمة طوال تاريخها الطويل. فالصحارى إذن كانت ولاتزال تكون جزءاً مهماً من البيئة له أثره البعيد فى حياة السكان، ولولا وجودها على جانبى النيل لتغير وجه التاريخ فى كثير من نواحيه.

وإلى جانب هذا كله فإن مصر قد أفادت من موقعها الجغرافى فى كثير من أدوار تاريخها، ولو أن هذا الموقع كان وبالاً عليها فى بعض العهود، فقد كانت مصر تستفيد من هذا الموقع على الخصوص فى عصور قوتها، كما كان خيرها من أهم الدوافع لمن يطمع فى التسلط عليها، وإستغلال موقعها الجغرافى فى عصور ضعفها وإنكماشها، ومكن هذا الموقع الجغرافى المتوسط كثيراً من الغزوات وموجات الهجرة من الوصول إلى أرض الكنانة. وكثيراً ما حولت تلك الغزوات مجرى التاريخ، ولكنها كثيراً ما جددت حياة السكان وثقافتهم.

ومع ذلك فإن مصر قد استطاعت دائماً أن تدمج الوافدين فيها وأن تصبغهم بصبغتها، واستطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص فى الحضارة المادية ومظاهر حضارتها الأخرى. ويرجع السبب وراء هذا الإستمرار العجيب والمحافظة الشديدة على الماضى والتمسك به فى بلد اتصل فى جانب كبير من تاريخه بالعالم الخارجى، ولم يكن بمعزل عنه إلى عدة عوامل من أبرزها طبيعة المجتمعات الزراعية التى تتمسك بصفة عامة بالمحافظة على القديم ولاترغب فى تغييره أو تبديله وفوق ذلك فقد ساعدت الصحراء على هذا الإتجاه. فبعد أن كانت هى

مسرح النشاط الإنسانى فى العصر الحجرى القديم، جفت أو كادت تجف تماماً فى العصور التاريخية، وقل بها السكان، عدا بعض القبائل المتنقلة فى الصحراء الشرقية، وفى شمال الصحراء الغربية، وبعض السكان المستقرين فى الواحات وعدت تلك الصحارى فى العصور التاريخية كالدروع تقى أرض مصر شر الغزوات وهى وإن لم تقطع صلات هذه الأرض بالخارج، فإنها قد نظمت تلك العلاقات وخففت من أثرها، بحيث أنها لم تستطع أن تغير من أسس الحضارة المحلية ولا أن تطمس معالمها.

واستطاعت أرض الكنانة بفضل ذلك أن تتحمل الغزوات، وأن «تهضمها» وتصبغ العناصر الوافدة بالصبغة المحلية فى النهاية، وذلك على الرغم مما استتبعته تلك الغزوات فى بعض الأحيان من عهود الفوضى والإنقطاع.

والواقع أن الدور الذى قامت به الصحارى فى تاريخ مصر كان سلبياً إلى حد ما، ولكنه كان فى غاية الأهمية، لأنه مكن للكنانة فى عصور التاريخ المتعاقبة من أن تساير حياتها فى أمن وإطمئنان، كما أنه جعل الغزوات من القلة النسبية فى العدد والتأثير بحيث أن مصر استطاعت فى جميع الحالات أن تنهض وتعاود سيرتها الأولى بعد فترة طالت أو قصرت من الإضطراب.

ثانياً : طبيعة الإنسان المصرى :

يرجع تكامل الحياة والحضارة فى مصر إلى طبيعة الإنسان المصرى وإستجابته لدوافع بيئته، فلم تكن مظاهر البيئة المصرية هينة لينة وادعة، بل استلزمت الكثير من الجهد الشاق المتواصل والعمل الدؤوب والتعاون والتكاتف لترويضها وإستثمارها، وعلى سبيل المثال، فلو ترك فيضان النيل لدمر القرى والحقول الواقعة على ضفتيه، ولكن الإنسان عمل دوماً على ضبطه وتنظيم وسائل الإستفادة منه بإقامة الجسور وشق الترع والقنوات، ويحتاج مثل هذا العمل إلى جهود جبارة ومنظمة فى الوقت نفسه. ونفس الأمر نلاحظه فى إقامة القرى، إذ كان الأمر

يستلزم أن تبنى القرية فوق كومة كبيرة وعالية [illegible] من تراب الأرض، لتكون من الضخامة بحيث لايجرفها التيار ولايتخللها الرشح، وبحيث تكون من الإرتفاع بما يجعلها فوق مستوى الماء. وقد ترتب على ذلك تركيز القرى فى وحدات كبيرة واستلزم ذلك كله توحيد جهود السكان وتنظيم تلك الجهود، بحيث تقام القرى فى مأمن من غائلة الفيضان. وعلى ذلك فإنه يلاحظ أن الفيضان كان يمثل من بعض جوانبه مصدر خطر مشترك لسكان وادى النيل الأعلى، وكان لذلك فائدته الكبيرة إذ علم سكان وادى النيل الوحدة كما علمهم فى الوقت نفسه حسن النظام وأحكام التنظيم.

وفيما يتصل بعنصر السكان وتكوينهم السلالى فى مصر، فيلاحظ أن المصريين منذ أخريات العصر الحجرى القديم (العصر الحجرى القديم الأعلى) كانوا فرعاً من سلالة البحر المتوسط الجنوبية. وقد عثر من هذا العصر على بقايا من عظام السكان فى قرية السبيل على مبعدة كيلومترين إلى الشمال من مدينة كوم أمبو، ويلاحظ أنها قريبة الشبه فى تكوينها من عناصر سكان ماقبل الأسرات. وكانت هذه السلالة قد استقرت فى مصر خلال العصر الحجرى الحديث واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوان. وقد عثر على عظامها فى مقابر هذا العصر فى غرب الدلتا، وفى الصعيد. وقد استمرت صفات السكان فى التنوع خلال عصر ماقبل الأسرات. فأصبح عنصر الشمال وعنصر الجنوب يمثلان فرعين من سلالة واحدة، لكل منهما صفاته المميزة - بجانب الصفات المشتركة بينهما - ولكنهم جميعاً من سلالة البحر المتوسط، تلك السلالة التى انتشرت فى بلاد العرب وغرب آسيا (فيما وراء هضبة الأناضول) وفى ساحل أفريقيا الشمالى، وبعض أطراف أفريقيا الشرقية، كما انتشرت كذلك فى سواحل أوروبا الجنوبية، ولاسيما فى غرب البحر المتوسط.

واحتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التى ربطتهم منذ عصور ماقبل التاريخ

بسكان غرب آسيا الذى أصبح يعرف فيما بعد بالشرق العربى، وذلك رغم الغزوات التى تعرضت لها حول أرض الكنانة خلال العصور الفرعونية. وحتى عندما جاء العهد الإغريقى، ونزحت بعض العناصر من بلاد الإغريق إلى بعض مناطق فى شمال مصر وغربها مثل تل دفنة على مبعدة خمس عشرة كيلومتراً من القنطرة شرق الحالية على الطريق الذى يربط بين فلسطين ومصر، وماريا على الساحل الجنوبى لبحيرة مريوط فى مواجهة سيدى كرير تقريباً وعلى بعد أربعين كيلومتراً جنوب غرب الأسكندرية، ونقراطيس بالقرب من العاصمة القديمة سايس، بقى أثرهم محصوراً فى نطاق ضيق حتى تحلل فى كتلة السكان الأصليين. ولئن كان هذا الأثر قد ظهر بين بعض السكان فإن وجوده لم يغير شيئاً من الصفة العامة لسكان وادى النيل الأدنى.

وظلت مصر محافظة على كيانها وصفاتها الجسمية خلال العصور الفرعونية وما تلاها من عصور حتى الفتح العربى لمصر، حيث نزحت عناصر جديدة من القبائل إلى وادى النيل الأدنى. وكانت هذه القبائل تتكون من قلة من القطحانيين الذين يمثلون عرب الجنوب، وكثرة من العدنانيين الذين يمثلون عرب الشمال. وهناك فرق بين الإثنين، فالجنوبيون يمتازون بإستعراض الرأس، وبروز الملامح بالنسبة للشماليين الذين يمثلون سلالة البحر المتوسط بصورة أوضح. ومع ذلك فإن القبائل الجنوبية التى دخلت مصر عن طريق الحجاز وشبه جزيرة سيناء كانت قليلة ولعل هذا هو السر فى أن موجات العرب المتلاحقة لم يترتب عليها تغيير تكوين المصريين العام، ذلك أن العناصر الجديدة إنما كانت متشابهة فى صفاتها العامة مع سكان مصر، هذا فضلاً عن أن صلات السلالة والدم بين وادى النيل الأدنى وشبه الجزيرة العربية، إنما هى صلات بعيدة الأصل ترجع إلى عصور ماقبل التاريخ، وماحدث فى العهد الإسلامى إنما كان تسجيلاً وإبرازاً لما كان هناك من صلات سبقت العصور التاريخية، ولكن زادتها مسحة الثقافة العربية والإسلامية ظهوراً وتوكيداً.

وعندما تمكن الأتراك من إحتلال مصر، لم يستطيعوا أن ينقلوا إلى مصر عناصر كثيرة منهم غير الجيوش والحكام، وهم قلائل بالنسبة لهجرات العرب السابقة. وعلى الرغم من أن صفات الأتراك الجسمية كانت تختلف عن صفات كل من سكان شمال بلاد العرب وسكان مصر، وذلك من حيث شكل الرأس الذى كان مستديراً عند الأتراك، وشكل الأنف ولون البشرة وبنية الجسم على الجملة، فإن الأثر التركى بقى محصوراً فى مناطق وطبقات خاصة من السكان ولم يستطع الأتراك أن يغيروا معالم التكوين الجنسى للسكان، لاسيما فى البيئات الريفية فى الصعيد والدلتا.

وهكذا جاء العصر الحديث ولم تغير مصر طابعها الأصيل، بل حافظت فى الجملة على صفات سكانها الجسمية، وعلى صلات الدم والسلالة التى ربطتها منذ أقدم العصور ببيئة المشرق العربى فى غرب آسيا وإمتداده فى شمال القارة الأفريقية وشرقها.

ومن ذلك يتضح لنا أنه منذ مايزيد عن ستة آلاف عام، لم يكن هناك تغير ملحوظ فى مظهر الغالبية العظمى من المصريين، حتى أصبح من العسير التفرقة بين تقاطيع وجوه تماثيل مصر القديمة، وتقاطيع وجوه كثير من الفلاحين المصريين اليوم، وليس أدل على ذلك من تمثال شيخ البلد الشهير، والذى أطلقت عليه هذه التسمية، نظراً للتشابه الشديد بينه وبين شيخ بلد العمال الذين كانوا يعملون فى الحفريات الأثرية وكشفوا عنه. ومن المعروف أن هذا التمثال يخص «كا - عبر» وهو من رجال الدولة فى عصر الدولة القديمة.

يتضح مما سبق أن وادى النيل فى مصر كان يمثل منطقة خصبة وواديا غنيا كللت فيه جهود الإنسان بالنجاح وتمكن من إنشاء حضارة عريقة متصلة الحلقات استطاعت أن تغالب الدهر وأن تبقى على مر الزمن. ويرجع هذا القدم والإستمرارية، كما سبق القول، إلى تكامل عناصر البيئة فى مصر تكاملاً كبيراً كان له أثره فى مختلف نواحي الحياة. فالصحراء تحيط بالوادى من الشرق والغرب

تقيه وتحميه من أى هجوم خارجي، والنهر تجرى مياهه بالخير فى كل عام، والتربة الزراعية دائمة الخصب، والمناخ صالح للإنبات والنمو والإنتاج والثروة الزراعية غنية وفيرة بما لايكاد يضارع فى بلاد غير مصر. والإتصال النهرى سهل ميسور بين مختلف أجزاء الوادى، ويضاف إلى ذلك موقع مصر الجغرافى الفريد. كل هذه العوامل مجتمعة قد تضافرت وأكمل بعضها بعضاً فى هذا الوطن الصالح الذى أخرج للناس شعباً عريقاً فى الحياة وفى الحضارة والمدنية.

وإمتازت مصر بظاهرتين ترتبت عليهما ظاهرة ثالثة، وتتمثل الظاهرة الأولى فى ظروف مصر الجغرافية التى فرضت على الناس الوحدة، فأساس الحياة فى أرض مصر واحد، ومصدرها واحد، والفائدة التى يجنيها السكان من تنظيم شئون الرى والزراعة مشتركة، كما أن الخطر الذى يتهددهم به الفيضان فى كل سنة مشترك، والواقع أن الطبيعة قضت بأن يكون وادى النيل الأدنى وطناً واحداً، ترتبط فى داخله تلك الأوطان الصغيرة، ويتضامن سكانه فى الغاية والوسيلة، والسراء والضراء.

وأما الظاهرة الثانية، فهى التضامن والتكافل، وقد فرضت البيئة النيلية هذا النظام على الإنسان المصرى منذ بدء إستقراره على ضفاف نهر النيل، فكان من الضرورى تنظيم الجهود وتنسيقها، لضمان نجاح المجهود الجماعى فى إقامة الجسور، وتدعيم جوانب النهر، وتكديس أكوام التراب التى تقام عليها القرية المصرية فوق مستوى الفيضان، وشق الترع والقنوات وغير ذلك من مرافق الحياة، ولقد كان شعب مصر بطبيعة بيئته شعباً نظامياً متكاملاً منذ البداية. وكانت إستجابته لدواعى النظام والتكافل سجية فطرته عليها الطبيعة. والحق أن مصر، إنما اختل أمرها وضعف شأنها، وعمت بها الفوضى، وسادها الإهمال عندما خرج الناس على الوحدة والنظام والتكافل. وإذا كانت هذه القاعدة مما ينطبق على غيرنا من الإقوام والأمم القديمة والحديثة، فإن إنطباقها على الحالة فى بلادنا كان أظهر وأشد وضوحاً.

وترتبت على هاتين الظاهرتين ظاهرة ثالثة، اتصلت بعامل جغرافى آخر، هو

موقع مصر بالنسبة لبقية الوطن المجاور من جهة، وبالنسبة للعالم البعيد من جهة أخرى، فقد كان هذا الموقع مما يصح أن يكون خيراً لمصر ولعالمنا المجاور، أو وبالاً عليهما معاً. ففى العصور التى استعصمت فيها البلاد بوحدتها، إزدهرت الحضارة وترعرت وأفادت العالم كله. وفى العصور التى انحلت فيها الوحدة وعمت الفوضى وتراخت الصلات بين مصر والعالم المجاور لها، طمع فيها الطامعون وسعى إليها الغزاة من أقصى الأرض وإمتدت أطماعهم إلى بقية الوطن الكبير، وصارت مصر أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها كما يستغل مواردها وموارد بقية الشرق العربى من حولها، ويحاول بذلك كله أن يوجه تاريخها وتاريخ المشرق والعروبة وجهة تنحرف بهذا التاريخ عن مجراه الطبيعى ولو إلى حين.

وبعد هذه الدراسة عن دور البيئة المصرية والإنسان المصرى فى تطور الأحداث السياسية والمظاهر الحضارية فى مصر القديمة، ننتقل إلى دراسة عصور ما قبل التاريخ فى مصر.

* * *

ب- عصور ماقبل التاريخ

• تعرضت مصر للعديد من المتغيرات منذ العصور الجيولوجية القديمة وأدت هذه التغيرات فى النهاية الى الوضع الحالى لتضاريس مصر وطبوغرافيتها. ففى خلال عصر الإيوسين كانت مياه البحر المتوسط تصل حتى جنوب اسنا (بمحافظة قنا جنوب الاقصر بحوالى ٥٥ كيلو متر)، ولكن خلال العصر الاوليجوسينى حدثت تغيرات جيولوجية أدت إلى إنحسار مياه البحر وظهور أرض مصر، وفى عصر الميوسين اتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وعند نهاية هذا العصر حدثت هزات أرضيه فصلت البحرين عن بعضهما وجعلت النيل يصل حتى البحر المتوسط، وكان هذا الاتصال يقع عند موقع القاهرة حاليا. وخلال عصر البيلوسين حدثت هزة ارضية كبرى أعادت اتصال البحرين ببعضهما البعض، وحدث هذا الاتصال بواسطة ممر ضيق بقى منه بعد ذلك خليج السويس والبحيرات، اما النيل فقد احد يلقى برواسيه من الغرب فى الفجوة التى كان يصب فيها شمالى القاهرة حاليا، وادى ذلك الى بداية تكوين الدلتا، وكان للنيل فيها ما يقرب من عشرة فروع

وأخذ النيل يحاول شق مجرى له وملأت مياهه الوادى حيث وصلت الى مسافات بعيدة شرقا وغربا، وواكب ذلك انكماش خليج العقبة الى ما يقرب من شكله الحالى، أما خليج السويس فقد وصل إلى ما هو عليه الآن تقريبا(١)

وسنقوم فيما يلى بدراسة لعصر ما قبل التاريخ فى مصر وسنراعى فيها الإيجاز قدر الاستطاعة بما لا يخل بالموضوع حتى يمكن تتبع المراحل الرئيسية للتاريخ الإنسانى فى مصر منذ البداية وحتى نهاية العصور الفرعونية.

---

(١) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق، ص ١٨

أولا : العصر الحجرى القديم

ساد مناطق البحر المتوسط وشمال افريقيا أثناء هذه المرحلة مناخ مطير حول الصحراوات الكبرى الى مناطق غابات تنتشر فيها المستنقعات ونعيش فيها قطعان كبيرة من أنواع الحيوان، وعلى مقربه منها عاش الأنسان.

ومن ناحية الاستقرار البشرى، فلقد عاش الإنسان خلال هذه المرحلة متجولا ومتنقلا من مكان إلى آخر باحثا عن مصادر طعامه فاعتمد فى سد حاجياته الغدائية على الصيد وجمع البذور والحبوب وإلتقاط الثمار، مما دعا ببعص الباحثين إلى إطلاق تسمية «مرحلة الصيد والجمع والإلتقاط» على هذه المرحلة.

واعتمد الانسان فى جمعه للبذور وصيده للحيوان ودفاعه عن نفسه على آلات حجرية صنعها من حجر الظران، وكان دلك بداية تفكيره فى صنع حضارته فى المجال المادى، واستخدم كذلك الحصى المتجمع فى وديان الأنهار.

ولقد أمكن العثور على مخلفات العصر الحجرى القديم فى مصر فى مدرجات النيل، أى على مقربه من شواطئ النهر القديمة قبل ان يعمق مجراه الحالى. وكان يصل الى مستويات اكثر ارتفاعا من مستواه الحالى، وتوجد هده المخلفات ايضا على شواطئ البحيرات التى تكونت فى عصور قديمه، مثل بحيرة الفيوم، وبحيرة كوم أمبو، وكذلك فى منخفضات الواحات، ورواسب خليج النيل القديم على مقربة من حى العباسية كما توجد ايضا فى مناطق شاسعة من صحراوات مصر الشرقية والغربية

ويقسم العلماء الانتاج الحضارى للإنسان خلال مرحلة العصر الحجرى القديم الى ثلاث مراحل، وذلك حسب ترتيبها الزمنى من الأقدم للأحدث، وذلك على النحو الاتى : مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل، مرحلة العصر الحجرى

القديم الأوسط، ثم مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى. وتبدأ الدراسة بمرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل.

١ - مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل :

تعتبر هذه المرحلة بداية تمكن الانسان من صنع أدواته عن قصد وهدف، واعتمد فى صنع أدواته بصفة رئيسية على الحجر الذى شكله بما يناسب مطالبه المحدودة واستخدم بجانبه مواد أخرى كالعظم والخشب والعاج والاصداف البحرية. ويتميز الحجر بتوفره كما انه يسهل وبخاصة حجر الظران، قطعة بسهولة الى شظايا تؤدى وظيفة القطع مما يساعد الانسان على تحقيق أغراضه المختلفة.

ونظرا لان عمليات الدراسة العلمية لاثار مرحلة العصر الحجرى القديم قد بدأت فى أوربا فان الاصطلاحات الخاصة بها تحمل اسماء أماكن أوربية وبخاصة أماكن فرنسية، وبما يتصل بمرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل، فقد سادت خلالها حضارتان هما : الابيڤيلية وهى أقدم الحضارات الانسانية ثم الحضارة الاشولية، - ولقد كانت الحضارة الابيڤلية تسمى بالحضارة الشيلية نسبة الى بلدة Chelles التى تقع على نهر المارن فى فرنسا، ولكن نظرا لان هذا الموقع وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والاشولية، فقد تركت تسمية الحضارة الشيلية.

وتتميز هذه المرحلة بصناعة الفأس اليدوية، ولقد أصبحت فى أثناء الحضارة الاشولية أكثر اتقانا واصغر حجما، ووجه الانسان اهتمامه بتحديد حوافها وتهذيب سطحها كله تاركا اقل مساحة ممكنة من القشرة الاصلية فى اسفل الاداة لكى يجعل شكلها متناسقا، ويطلق على هذه الصناعة تسمية صناعة «النواة» للدلالة على أن أصحابها كانوا ينتفعون أساسا بنواة الحجر أى جملة الرلطة ، وأصبحتم جزء منها، ولقد بدأ الانسان فى هذه المرحلة فى صنع بعض أدواته من الشظايا التى تتطاير منها حين تشكيلها الا انه لم يكن انتفاعا مقصودا لذاته(١). (شكل ٥).

---

(١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها، جـ ١ ، ص ٥٩.

ولقد كشف عن الادلة الاثرية المتصلة بالعصر الحجرى القديم الاسفل والتى ترجع الى الحضارة الاشولية فى العديد من المناطق فى مصر، فقد عثر على يد فأس يدوية فى سهل العباسية، وكذلك فى الجبل الاحمر وجبل المقطم فى شرق القاهرة وجنوبها، وكذلك فى اسنا وطوخ والعرابة المدفونة وقنا واسوان والصحراء الغربية والواحات.

وتمكنت بعض السلالات فى أخريات هذه المرحلة من التوصل الى طريقة اشعال النار، وتمكنت من استخدامها فى أغراض التدفئة وطهى اللحوم، وكان لذلك اثره الفعال والحاسم فى حضارة الانسان، فقد ارتفع بالانسان عن مصاف آكلة اللحوم، وأصبح أكثر اطمئنانا على نفسه وعلى صغاره من قوة البرد والصقيع، وأصبح اكثر اطمئنانا الى عدم فساد لحوم صيده بسرعة، وسواء بدأت معرفة اشعال النار فى الشمال أم فى الجنوب، فقد كان أهل الشمال اكثر حاجة اليها، وأكثر محافظة عليها لمواجهة البرد والصقيع فى بيئتهم.

٢ – مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط :

يطلق على الانتاج الحضارى المتصل بهذه المرحلة تسمية «الادوات الموستيرية» وذلك نسبة الى كهف موسيتيه Moustier فى حوض الدوردونى بفرنسا ، واعتمدت صناعة الادوات فى هذه المرحلة على اساس استخدام الشظايا التى تنفصل عن جوانب الفأس اليدوى، وتتميز هذه الصناعة بصغر حجمها وتنوع اشكالها وأغراضها، فصنع من هذه الشظايا السكاكين والمكاشط والمخارز.

وعثر على الإنتاج الحضارى لهذه المرحلة فى العديد من المناطق فى مصر ومنها واحة الخارجة، وفى «قصر باسل» فى الفيوم، ومحاجر الجبل الاحمر وسهل العباسية، وسفوح مرتفعات طينية، وفى مناطق متفرقة من الصحراء الشرقية فى الصعيد ومصر الوسطى(١)

---

(1) Caton-Thompson. G . Gardiner. E.W., the Prehistoric of khargah Oasis. in Geographical Journal. Lxxx. 1932. p. 403 FF

٣ - مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى .

تمتاز هذه المرحلة بصناعة حجرية جديدة هي صناعة الاسلحة النصلية وهي وهي عبارة عن أدوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الانسان من صنعها بصورة تفوق في دقتها مجهوداته السابقة، وهي تعرف باسم «الادوات القزمية»، وقد يسر صغر حجمها للانسان حملها والانتقال بها من مكان الى آخر.

وقد ظهرت في مصر ثلاثة مراكز اقليمية تمايزت فيها خصائص صناعة الادوات القزمية، وهذه المراكز هي : الواحات الخارجة، وانتشرت صناعتها فيما يليها من المنطقة الممتدة الى قنا وما حولها، والمنطقة الثانية انتشرت صناعتها في شمال مصر الوسطى وأطراف الدلتا، أما المنطقة الثالثة فتوجد في قرية السبيل شمال كوم امبو بنكيلو مترين بمحافظة أسوان.

ومن أهم هذه المناطق، موقع قرية السبيل ، التى عثر فيها على اعداد ضخمة من الادوات القزمية، كما أمدنا هذا الموقع بالكثير من الادوات الحجرية التى تقدم تتابعا لتطورها من الحضارة الموستيرية الى القزمية (شكل ٦) وكشفت الحفريات التى أجريت بهذا الموقع عن وجود بقايا عظمية لحيوانات من آكلة العشب، وكبار الكواسر، والقواضم الصغيرة هذا فضلا عن ناب سفلى لفرس النهر، والكثير من سفا السمك، كما عثر على قطعة من مرجان ابيض، وربما أتت م البحر الاحمر، وبالتالى فقد يشير ذلك الى صلات مبكرة بين سكان الادى وساحل البحر الاحمر.

ويتجه بعض الباحثين الى الاعتقاد بوجود صلة ما بين الآثار المكتشف في موقع داره الدير البحرى في طيبة الغربية والصناعات السبيلية. ويعتقدون ان موقع داره الدير البحرى كان بمثابة ورشة لصناعات الصعيد [١]

---

(١) محمد بيومى مهران مصر والشرق الادنى القديم ، حـ ١ ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٢٠٦

ثانيا : العصر الحجرى الوسيط :

يمثل العصر الحجرى الوسيط مرحلة الانتقال من العصر الحجرى القديم الى العصر الحجرى الحديث، وتضمنت الادوات التى استخدمها الانسان فيه، الادوات الحجرية، ورؤس السهام ونحوها من أدوات العصر الحجرى القديم الاعلى، وذلك بالاضافة الى المناجل والاجران التى تمثل عنصرا حضاريا جديدا يقترب بالانسان من مرحلة انتاج الطعام والاستقرار اكثر من انتمائه اى مرحلة الجمع والالتقاط. وبدأ الانسان خلال هذه المرحلة من حياته يتجه نحو تزيين نفسه وتجميلها، فأخذ يتحلى ببعض أدوات الزينة.

ويتجه بعض الباحثين الى أن الأدوات الخاصة بالعصر الحجرى الوسيط قد وجدت في العديد من المناطق فى مصر، ومنها منطقة وادى الشيخ شرقى مغاغة بمحافظة المنيا حيث عثر على بعض الادوات المصنوعة من الظران والتى نسبت من حيث طراز صنعتها الى هذ المرحلة.

ويرى بعض العلماء ان موقع حلوان ينتمى الى العصر الحجرى الوسيط، ويعتمدون في ذلك على حقيقة العثور على عدد من رؤوس السهام فيه، الا انهم يتجهون الى القول بأنها ربما قد وصلت الى مصر من فلسطين عن طريق الحضارة الناطوفية، وان ذلك قد بدأ منذ نهاية الالف الثامنة قبل الميلاد. ولا يأخذ بهذا الرأي الكثير من العلماء، حيث يرى البعض ان حضارة حلوان أقدم من الحضارة الناطوفية، وان انتشار الصناعة انما كان من حلوان الى فلسطين ، وليس من فلسطين الى حلوان [1] (شكل ٨).

على أن هناك من الباحثين من يذهب الى عدم وجود عصر متوسط فى مصر، علي أساس ان صناعاته أنما هى امتداد للصناعات القزمية، بل أن هناك من يرى

---

(١) مصطفى عامر : «حضارة عصر ما قبل التاريخ» فى مجلد تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الاول، ص ٥٠

فى أدوات وادى الشيخ انها تنتمى لاخريات عصر ما قبل الاسرات، وربما من أوائل عصر الاسرات نفسها، كما أن هناك من يرى ان أواخر الحضارة السبيلية يمكن أن تسلك فى العصر الحجرى المتوسط وان الروابط التى تصل العصر الحجرى الوسيط بما قبلها غير واضحة تماما.

ثالثا : العصر الحجرى الحديث :

تعتبر مرحلة العصر الحجرى الحديث من أهم المراحل فى حياة الانسان حيث حدث الانتقال الى مرحلة انتاج الطعام، وبدأ الانسان فى تكوين تقاليد صناعية جديدة تتصل بحياته الزراعية ، وأدى توصله الى الزراعة الى الاستقرار وظهور المجتمع القروى مما ادى الى نشأه نوع جديد من تفكير الانسان وسلوكه فى مختلفة مظاهر حياته.

وتتباين آراء الباحثين حول بداية العصر الحجرى الحديث ونهايته فهناك ممن يقترح انه قد بدأ فى الالف العاشر أو الثامن ق.م، بينما يرى رأى ثان أنه كان حوالى ٦٥٠٠ ق.م، بينما يرى رأى ثالث انه كان حوالى ٥٠٠٠ ق.م، ويرى رأي رابع انه بدأ فى النص الاول من الالف الخامس ق.م، بينما يرى رأى خامس أنه كان فى النصف الثانى من الالف الخامس ق.م.

وتعددت حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر، واختلفت اراء الباحثين حول ترتيبها وذلك من الناحية الزمنية، فهناك من يرتبها على أساس ان اقدمها حضارة الفيوم، وأن أحدثها حضارة دير تاسا، وذلك على أساس الدراسة المقارنة للادلة الاثرية، الا ان هذا الترتيب ليس ثابتا، وسنقوم فيما يلى بد راسة لحضارات العصر الحجرى فى مبصر وهى الفيوم(أ) ومرمدة بنى سلامة وحلوان العمرى ودير تاسا. ونبدأ الدراسة بحضارة الفيوم (أ).

١ - الفيـــوم (أ) :

يقع منخفض الفيوم الى جنوب غرب القاهرة بحوالى مائة كيلو متر على الجانب الايسر للنيل، وتمثل بركة قارون الحالية البقية الباقية من البحيرة القديمة التى أطلق عليها المصريون «تاحنت - ان مرور» وسماها اليونان «بحيرة موريس»، وهى تنحدر انحدارا عاما نحو الشمال، ويحيط بها سياج من الحوائط والهضاب المرتفعة فى معظم جهاتها. وهو يجمع بين خصائص المنخفضات الصحراوية وخصائص الوادى والدلتا.

وتشير الابحاث الاثرية الى ان الموقع الذى ينسب الى العصر الحجرى الحديث فيما يسمى «بالفيوم أ» إنما يدل على فترة استقرار طويل وكان اختيار انسان «الفيوم أ» لمكان استقراره اختيارا موفقا يشير الى حسن درايته بتأثير الرياح واتجاهاتها والعوامل الجوية الاخرى ومن ثم فقد اختار مواقع تحتمى من الرياح بالصخور التى تحيط بالشاطئ الشمالى للبحيرة، فضلا عن قربها من الخلجان والتعاريج الساحلية حيث صيد الاسماك، كما انها لم تكن بعيدة عن المناطق التى تكونت بسبب انحسار البحيرة، فقاموا بزراعتها (١).

وتوجد العديد من الاكوام الاثرية فى موقع «الفيوم أ» لعل من أهمها «كوم و» و «كوم ك» و «كوم م» وكشفت الحفائر التى أجريت فى هذه الاكوام عن وجود قريتين تدلان على الاستقرار ومرحلة الزراعة، حيث كشفت عن أدوات كثيرة، منها المواقد واوانى الطهى، وبقايا فقرات عظام الاسماك والحيوانات، كما عثر على رحى الحبوب وأدوات الزراعة والصيد كالفؤوس التى كان أغلبها من الظران، كما كشف عن رؤوس سهام من الظران لها قاعدة مقعرة وحوافها محدبة وأحيانا مستقيمة، وكان بعض هذه السهام مستطيلا وله قاعدة مستقيمة او محدبة قليلا (شكل ٩).

وصنع انسان «الفيوم أ» أوانيه الفخارية بواسطة الايدى، وكان خشن الصنع وقد خلط بالتبن، ويمكن تمييز ثلاثة انواع لفخار «الفيوم أ» : فخار أحمر مصقول، وأسود مصقول، والثالث ملس باليد، ويلاحظ انها خالية من الايادى والاعناق او الحافات البارزة، وهى ذات حافات مستقيمة من غير نتوءات، وكانت قواعدها مكورة، وهى ترتكز على قواعد، وقد برع أصحاب هذه الحضارة فى صناعة الاسنة السلال، وكانت تصنع عن طريق جدل سيقان النبات، وقد استخدموا السلال بكثرة فى تبطين مخازن الحبوب المطمورة فى باطن الارض (شكل ١٠) كما عرفوا النسيج، فقد عثر على ملكات المغازل وقطعة قماش من الكتان.

(1) Gaton-Thompsoa, Gardiner, E.W., Op. Cit., p. 89

وأوضحت الحفائر وجود ٢٤٨ حفرة استخدمت فى طهى الطعام، فضلا عن مخازن خاصة واخرى جماعية لخزن القمح والشعير، وقد وجدت هذه المخازن بعيدا عن منطقة المساكن وفوق ربوة عالية، ويشير ذلك – فيما يرى الاستاذ الدكتور رشيد الناضورى – الى بعض مظاهر التفكير الجماعي (١).

وعثر فى موقع «الفيوم أ» على بعض أدوات الزينة مثل الاقراط المصنوعة من بيض النعام، وعقود من الحجر الجيرى وغيرها من الاحجار، واستخدموا الاصداف كذلك فى أدوات زينتهم، كما صنعوا الاساور والدلايات.

وبجانب توصل انسان «الفيوم أ» الى معرفة الزراعة، فقد ظل يمارس حرفة الصيد سواء صيد الاسماك من البحيرة أو صيد الحيوانات المتوحشة المحلية كفرس النهر والخنزير البرى والتيتل وغيرها.

٢ – مرمدة بنى سلامة :

تقع مرمدة نى سلامة على مبعدة ٥١ كيلو متر شمال غرب القاهرة على الحافة الغربية للدلتا، وتشير الحفائر التى اجريت فى هذا الموقع انه كان يضم قرية كبيرة الحجم نسبيا بالنسبة الى مواقع هذا العصر، ويمكن تمييز ثلاثة مستويات تشير الى فترة استيطان طويل تندرج مخلفاتها الاثرية تحت حضارة العصر الحجرى الحديث.

وكانت المساكن عبارة عن اكواخ مغطاة بطبقة من الطين او الجبس ودعمت الارضيات برديم مكون من طبقات مختلف، ثم تطورت فأصبحات أساساتها تصنع من الطوب اللبن أو الصخور الخشنة، وعثر فى بقايا هذه المنازل على مواقد وبقايا عظمية.

وتكونت مرمدة بنى سلامة من صفين شبه مستقيمين يفصل بينهما طريق

---

(١) رشيد الناصورى : المدخل فى التحليل الموصوعى المقارن للتاريخ الحضارى والسياسى فى جنوب عربى اسيا وشمال افريقيا، الكتاب الاول، بيوت، ١٩٧٧، ص ١٢٣.

ضيق، وذلك هو أقدم تخطيط عرف للقرية المصرية حتى الآن، كما انه من ناحية اخرى دليل على نشأة نوع من التنظيم الاجتماعي، ووجود سلطة في القرية (١) وخزنت الحبوب في صوامع مصنوعة من السلاسل المغطاة بالطين وذلك بالقرب منهم.

وصنع انسان مرمدة بن سلامة اوانيه الفخارية باليد وكان غير مصقول وغير مزين ومن المظاهر الجديدة في هذه الحضارة العثور على تماثيل طينية صغيرة، وكشف عن أواني حجرية مصنوعة من حجر البازلت (شكل ١١).

وعثر على بعض أدوات الزينة وان كانت قليلة في عددها، وهي تتكون من عقود مصنوعة من العظم والاصداف، واستعمل النساء الكحل المصنوع من التوتية الخضراء.

ولقد دفن اهل مرمدة بني سلامة موتاهم بين منازل الاحياء، أو في داخلها، ومدفن الموت على الجانب الايمن، ووضع بجانب الموتى بعض الحبوب وذلك بالقرب من افواههم وربما كان ذلك لاعتقادهم بأن دفنهم بين المساكن يغنيهم عن تقديم اقرابين، ويهيئ لأرواحهم ان تشارك الاحياء فيما يأكلون ويشربون

٣ - حلوان العمرى :

تقع قرية حلوان العمرى (١) عند قاعدة بروز صخرى في حافة الهضبة يسمى رأس الحوف على مبعدة ثلاثة كيلو مترات شمال ضاحية حلوان وعند نهاية سكة حديد المحاجر، وهي تقع الى الشرق من النيل بحوالي سبعة كيلو مترات ونصف، ويرتفع مستواها عن مستوى السيول، وتجدر الاشارة الى انها قد اتخذت تسمية حضارة حلوان العمرى نسبة الى مكتشفيها او على الاقل من دلل عليها وهو امين العمرى وكان ذلك في عام ١٩٢٣ م.

ويتكون موقع حضارة حلوان العمرى بين جانبتين وقرية، وكانت مساكن القرية ذات نوعين، النوع الاول : منازل تعتمد على أعمدة خشبية في شكل

(1) Debono, F. La civilisation pré-dynastique of El Omari. BIE, 1956, pp. 329-338

بيضاوى ومبنية على سطح الارض، والنوع الاخر له اساس محفور فى الارض واتخذت مبانيه الشكل الدائرى، ولم يتبق من النوع الاول غير اثار البناء المحفور فى الارض، وكانت اعماقها على مستويات مختلفة، وكسيت جدران المنازل بالحصير الذى كان يتم تثبيته بطبقة من الصلصال. وقد عثر داخل منطقة المساكن على كثير من المواقد والبقايا الفخارية والمراحي والحصير والابر العظيمة والقلائد وغيرها.

وقد عثر في موقع حضارة حلوان العمرى على العديد من المصنوعات الحجرية، ولعل من أشهرها المعول الذى صنع من الحجر الجيرى الصوانى، وقد استخدم هذا المعول فى حفر اساسات المنازل، وبالاضافة الى المعول فقد صنع العديد من الادوات الحجرية الأخرى مثل المناجل ورؤوس السهام والبلط والرحي.

وفيما يتصل بالصناعات الفخارية، فهو يشبه فخار مرمدة بنى سلامة في انه من لون واحد اسود، وانه غير مزين، ومصنوع باليد، ومحروق بدون عناية وتمكن أهل حضارة حلوان العمرى من صناعة المخارز والمثاقب من العظام ، كما عرفوا النسيج واستخدموا الجلد، ويستدل من هذه الصناعات انه على الرغم من تشابه حضارته مع حضارة مجتمع مرمدة بنى سلامه الا انها تبين تطورا ملحوظا على نطاق اوسع نبيا. (شكل ١٢).

وصنع الانسان فى حضارة حلوان العمرى العديد من ادوات الزينة، فصنع العقود والقلائد من محار اللؤلو المجلوبة من ساحل البحر الاحمر بعد ثقبها او نحتها، وكذلك من قشور بيض النعام ومن فقارات السمك، ومن الاصداف ومن احجار مختلفة.

وكانت مقابر مجتمع حلوان العمرى توجد فى القرى نفسها، او على مقربة منها، او بعيدا عنها، وقد دفن الموتى على الجانب الايسر والوجه نحو الغرب والرأس نحو الجنوب، وغطى الجسد بالحصير او القماش أو الجلد وقد نظمت بعض المقابر فى صفوف منتظمة كما غطى بعضها بواسطة كوم من الحجر.

وتوضح بعض الأدلة الاثرية التى كشف عنها فى مقابر حلوان العمرى عن

وجود نوع من التنظيم السياسى فى هذا المجتمع المبكر، اذ عثر على جثة متوفى وبجوار يده صولجان يرمز للرئاسة، ويعبر ذلك عن حقيقة وجود رئيس وبالتالى مرؤوس أو حاكم ومحكومين، ومما قد يويد هذا الاتجاه وجود مقابر كبيرة الحجم واخرى صغيرة (١).

٤ - دير تاسا :

يمثل موقع دير تاسا مصر العليا فى مرحلة العصر الحجر الحديث وهو يقع على الضفة الشرقية للنيل الى الشمال من مدينة البدارى بمحافظة اسيوط، واوضحت الكشوف الاثرية ان هذه المنطقة قد عمرت منذ العصر الحجر الحديث واستمرت كذلك بدرجات متفاوتة حتى العصر المسيحى.

وتعددت نماذج فخار دير تاسا وألوانه، فكان منها الاسمر والرمادى المسود والاحمر الاسود المزين بزينة بيضاء، وقد زينت بعض الاوانى بزينات هندسية على هيئة المثلثات والمستطيلات والخطوط المموجة، ويتميز بانتاج اوانى فخارية على شكل الناقوس (شكل ١٣).

وكان حجر الظران من اكثر الاحجار استخداما، وبجواره الاحجار الجيرية، وقد صنع من هذه الاحجر البلط والسكاكين والمثاقب والخارز ورؤس السهام والرحى، واستخدام العظام والعاج والاصداف فى صنع الكثير من أدواته كالشصوص، كما صنع الاسبتة ونسج القماش من الكتاب واستخدام الجلود فى صنعة ملابسه.

وفيما يتصل بأدوات الزينة، فقد تكونت من بعض الحلى الصغيرة، مثل العقود والاساور كما تزين القوم كذلك بوضع ريش فى رؤوسهم.

وتوصل انسان حضارة دير تاسا الى معرفة الزراعة، ويؤيد ذلك حقيقة العثور على الادلة الاثرية الخاصة بالانتاج الزراعى مثل الاجران ومراحى الحبوب وذلك فضلا عن وجود مخزنين للقمح.

---

(١) رشيد الناضورى المرجع السابق، ص ١٢٦

وتوجد مقابر التاسيين مختلطة بمقابر أهل البدارى، مما دعا بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنهم اقرباء لهم، وكانت المقابر مستطيلة الشكل، وكان الميت يوضع داخل سلة مصنوعة من الاغصان ، وكانت تغطى بالحصير، وكان الجسم يلف بواسطة الجلود، أو القماش ووضعت تحت الرأس وسادة من القش أو النخالة أو الجلد.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار فى مقابر التاسيين انه قد عثر فى المقبرة رقم ٢٨٤٣ على فجوة فى الجزء الغربى منها، وتسع تلك الفجوة انية فخارية ويمكن القول أن تلك الفجوة ربما تعتبر تمهيدا معماريا لما ظهر فى العصر التاريخى فى مصر الفرعونية من وجود مخازن متصلة بحجرة الدفن لخزن ما يحتاجه المتوفى فى العالم الآخر. ولقد كانت المقابر مستقلة عن منازل الاحياء، ويوضح ذلك تفوق مجتمع دير تاسا على مجتمع مرمدة بنى سلامة فى هذه الناحية.

ويتضح من ذلك ان المجتمعات الاربعة التى ترجع الى العصر الحجرى الحديث فى مصر وهى الفيوم أو مرمدة بنى سلامة وحلوان العمرى ودير تاسا قد توصلت جميعها الى معرفة الزراعة وانتاج الطعام وبناء القري والجبانات وصناعة الاوانى الفخارية والحجرية وصناعة النسيج (١).

ويتفق معظم الباحثين على ان حضارة «الفيوم أ» هى اقدم هذه المجتمعات ويلى حضارة مرمدة بنى سلامة التى كانت اكثر تطورا منها، ويليها حضارة حلوان العمرى التى تبين تطورا محوظا، واخيرا فان حضارة دير تاسا التى يعبر انتاجها الحضارى عن تقدم فن الحضارات الاخرى، الا انه تجدر الاشارة الى ان هذا الترتيب ليس نهائى فربما تكشف الحفائر عن تأكيد او تعديل أو اضافة لهذه الحضارات.

رابعا - عصر الحجر والنحاس :

انتقل الانسان خلال هذا العصر مراحل كبيرة فى تقدمه الحضارى بتوصله الى

(١) Branton. G. Mostagedda and Tasian Culture. London. 1934 p. 26 FF.

معرفة المعدن (النحاس) واستخدامه في العديد من صناعاته، كما شهدت هذه المرحلة كذلك تقدما فى الصناعات الفخارية والحجرية والعظيمة، والمواقع المميزة لهذه الحضارة فى مصر هما موقعى حضارة البدارى، وحضارة «الفيوم ب».

١ - البـــدارى :

تقع البدارى على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ابو تيج وطما بمحافظة اسيوط، وتوضح الادلة الاثرية ان البداريين قد عاشوا فى قرى منتظمة، وانهم عملوا بالزراعة واستئناس الحيوان وذلك بجانب الصيد، وتمتاز حضارتهم باستخدام الفأس النحاسية والسهام والقش وعصا الرماية ودبابيس القتال ذات الرؤوس التى على شكل القرص.

ويلاحظ ان مقابر حضارة البدارى شخصية وليست عائلية. كما يوجد فيها مكان اقتصر الدفن فيه على الرجال والاطفال دون النساء، ويرى بعض الباحثين انه فى الجبانات قد دفن الرجال فى الجبهة الغربية، بينما دفنت النساء فى الناحية الشرقية، بينما لم تنفصل مقابر الرجال عن النساء فى مقابر اخرى. وتوجد المقابر الى الشرق قليلا من المنطقة السكنية.

ودفن الموتى على هيئة القرفصاء فى مقابر مستطيلة او مستديرة، ووضع الموتى فوق لوحة بسيطة ووضع تحت رؤوسهم وسائد، وكانت وجوههم ناحية الغرب، وزودت المقابر ببعض القرابين، إذ كشف فى احدى المقابر عن بقايا خشبية ربما كانت تتصل بتخزين ما يحتاج اليه الميت ويشير ذلك الى ايمانهم باستمرار الحياة فى العالم الآخر ..

وعثر فى بعض المقابر على تماثيل لبعض الحيوانات، كما عثر على دفنات لبعض الحيوانات الأمر الذى قد يتصل اتصالا وثيقا يربط تفكير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده، بأن ظواهرها المختلفة تمر بنفس المراحل التى يمر بها الانسان، وهى دورة الحياة والموت والخلود، ويرى بعض الباحثين ان دفن البداريين لحيواناتهم انما يشير الى الرغبة فى التعبير عن أهميتها لديهم واعتزازهم

بها وغلو قيمتها عندهم، وربما عن أملهم فى أن ينتفعوا بها فى عالم الآخرة على نحو يناسب الحياة فيه. ووضعوا فى مقابر كذلك تماثيل للنساء والطيور (شكل ١٤).

ويتميز فخار البدارى باتقانه وجمال زخارفه، وصلابة مادته ورقة جدران اوانيه، رغم انه مصنوع باليد، وهو من اللون البنى والاحمر وبه تموجات ويوجد به سواء عند الحافة من الداخل، وكان اكثر الاوانى شيوعا هى الاوانى المفلطحة، وكانت الاوانى ذات المقابض نادرة الوجود.

وتشير الادلة الاثرية التى كشف عنها الى معرفة البدارى لنسيج الكتان وكذلك دبغ الجلود، وتعددت أدوات زينتهم التى تزين بها الرجال والنساء على السواء فتزينا بالاساور والعقود والقلائد والخواتم التى صنعوها من الاصداف والخرز والعاج والعظم، ولقد كشف عن بعض الملاعق المصنوعة من العاج وقد زينت باشكال حيوانية وحلزونية.

ومن الامور المعبرة التى كشف عنها فى مقابر البدارى الكشف عن سبعة تماثيل نسائية صغيرة الحجم، صنع اربعة منها من الطين، واثنان من الفخار والسابع مصنوع من العاج، وبلغ بعض هذه التماثيل درجة كبيرة من الاتقان ويعد توصل الانسان البدارى لنحت تماثيله من العاج فتحا جديدا فى النحت فى مصر، وكانت له آثار بالغة فى صناعة التماثيل فيما بعد، ذلك ان العاج انما يتميز بتماسك جزئياته وصلاحيته للنحت وامكان جادة صقله، ويرضى مطالب ذوى المكانة واليسار، كما ان ترصيع العينين بمادة أخرى كما فعل انسان البدارى يعد اصلا لتلك البراعة الممتازة فى صناعة العيون المرصعة فى تماثيل الدولة القديمة(١) (شكل ١٥).

---

(1) Brunton, G . and Caton-Thompson, G . The Badarian Civilization and Predynastic Remains Near Badari, London, 1928

٢ - الفيوم (ب).

كشف عن هذه الحضارة كل من كاتون طمسون ومس جاردنر، وقد كشف في مواقع هذه الحضارة على أسلحة قزمية صغيرة ومخارز ورؤوس سهام غير متقنة في صناعتها، ويلاحظ انه لم يعثر في هذه المواقع على مخازن الحبوب، كما لم يعثر فيها على أواني فخارية، وقد كشف فيها عن موقد واحد، وقد أرخت هذه الحضارة في الفترة من ٤٥٠٠ - ٤٢٠٠ ق.م.

وتعددت اراء الباحثين حول أسباب تدهور حضارة الفيوم (ب) فرأى البعض ان سكان الفيوم كانوا يعتمدون على الزراعة، وان التربة الزراعية عندما انهكت لم يحاول القوم تجديد خصوبتها، ومن ثم فقد تدهورت حضارتهم وهاجر كثير من السكان الى الوادى، ويرى البعض الآخر ان السبب فى هذا التدهور يرجع الى وصول هجرة من أصحاب الحضارة القفصية الذين كانوا لا يزالون يعيشون فى صحراء شمال افريقية مستخدمين ادواتهم القزمية التى عرفوها منذ العصر الحجرى القديم الاعلى. ويلقى الرأى الأخير الكثير من المعارضة على أساس أن أدوات حضارة الفيوم «ب» القزمية تتشابه مع الادوات القزمية التى كشف عنها فى حلوان ووادى العنجيبة فى الشمال وأدوات سيوة فى الشمال الغربى ورنان فى الجنوب (١).

خامسا - عصر ما قبل الأسرات :

اصطلح العلماء على تسمية الفترة التى سبقت قيام الملكية المصرية حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م. باسم «عصر ما قبل الاسرات» على اساس انها فترة التمهيدلقيام الحضارة المصرية فى العصور الفرعونية، وعرفت هذه المرحلة استخدام النحاس والكتابة، وتميزت بقيام المدن وزيادة الانصالات بالأفكار المجاورة وظهور الوحدات

---

(1) Huroyin. S.A.. The Place of Egypt in prehistory, MIE . Le Caire, 1944, p 295 FF.

الاقليمية، وقيام الممالك المحلية واختفاء نظام العشائر.

وتنقسم هذه المرحلة في مصر تقسيما اقليميا الى منطقتين هما مصر السفلى ومصر العليا، ويتصل هذا التقسيم بالمقومات الحضارية المختفة التى تعرض لها كل من الاقليمين بحكم الموقع الجغرافى، فبينما كانت مصر العليا محصورة لحد ما بوادى النيل الذى تحده الصحارى الشرقية والغربية والجنوبية مما ادى الى تطور حضارة مصر العليا تطورا محليا مع وجود بعض المؤثرات الاجنبية المحدودة، نرى ان منطقة مصر السفلى قد تأثرت بصورة واضحة بالمؤثرات الليبية فى الغرب، وكذلك فلسطين وجزر شرقى البحر المتوسط (١).

وتمثل حضارات الصعيد خلال هذه المرحلة كل من العمرة وجرزة ويمثل مصر السفلى حضارة حلوان الثانية والمعادى، وسنتناول هذه الحضارات فيما يلى بشئ من التفصيل، ونبدأ بحضارات مصر العليا :

١ - حضارات مصر العليا :

من اولى حضارات الصعيد خلال عصر ما قبل الاسرات حضارة العمرة التى تقع جنوب شرقى ابيدوس بمركز البلينا محافظة سوهاج، وقد تأثرت حضارة العمرة بحضارة نقادة التي سبقتها.

ويتميز فخار العمرة بكونه مزين بخطوط متقاطعة، وهو امر مصقول وزينت بعض الاوانى بينات حيوانية أو انسانية او اشجار، واستخدم انسان هذه الحضارة كذلك الاوانى الحجرية بكثرة، وقد صنع هذه الأوانى من الجرانيت والبازلت والمرمر (شكل ١٦).

وفيما يتصل بصناعة التماثيل، فقد صنع انسان العمرة العديد من التماثيل للنساء والرجال، وان كان أغلبها يمثل نساء، وقد صنعت هذه التماثيل من

---

(١) رشيد الناصورى : المرجع السابق ، ص ١٨١ - ١٨٢.

الفخار والعاج (شكل ١٧) ويوجد نموذج من الطين يعبر عن تصميم المنازل خلال هذه المرحلة (شكل ١٨).

وهناك من الباحثين من يفضل تسمية عصر هذه الحضارة بنقادة الاولى على اساس سيادة نقادة الحضارية فى هذه المرحلة، وعلى أساس أن المراكز الحضاريةفى منطقة نقادة اكبر منها فى العمره (١).

ومن المواقع الاخرى لحضارات الصعيد فى عصر ما قبل الاسرات، موقع جرزة شمال ميدوم بمركز العياط محافظة الجيزة، وهى تعرف باسم حضارة نقادة الثانية.

ويتميز فخار جرزة بلونه البرتقالى الذى يميل الى الصفرة وعليه رسوم وأشكال باللون الاحمر، تمثل اعلام المراكب ذوات الغرفتين، وما يشبه سارية العلم او اللواء وهو يمتاز كذلك بالاوانى ذات الايدى المموجة، ولقد تقدمت خلال عصر حضارة جرزة الصناعات الحجرية، وازداد استخدام معدن النحاس (شكل ١٩).

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام فى حضارة جرزة، الاهتمام برسم السفن وصنع نماذج للسفن من الفخار وسيقان الغاب والنباتات المجدولة مما يشير الى زيادة الحاجة اليها، وكثرة استخدامها فى اغراض السفر فى النيل، وهى تشير فى الوقت ذاته الى قيام صلات مع أماكن متعددة في هذا العصر المبكر (٢). وقد عثر في مواقع هذه الحضارة على العديد من التماثيل التى تعبر عن الخصوبة (شكل ٢٠).

٢ - حضارات مصر السفلى :

يمثل هذا العصر فى مصر السفلى حضارات حلوان الثانية والمعادى وفيها يتصل بحضارة حلوان الثانية فهى تعتبر استمرارا لحضارة حلوان الأولى (حلوان العمرى) وهى تتميز باتساع نطاق القرية، وتقدم صناعاتها الفخارية، كما تتميز بتقدم صناعة السلال واستخدام أهلها العديد من أدوات الزينة وبخاصة الحلى التى صنعت من اصداف البحر الاحمر وقشر بيض النعام والاحجار نصف

(1) Randall: M.D., Mace, A.C., El-Amrah and Abydos, London 1902

(2) Wainwight, G.A., The Labyrnt[illegible] Gerzeh, and Mashuneh, London, 1912.

الكريمة (١)

أما حضارة المعادى، فتدل بقاياها الاثرية على أن المساكن قد تركزت حول وسط القرية، وقد بينت المنازل من اعواد البوص وقش التبن، وكانت أبواب المنازل تتجه نحو الجنوب لحمايتها من الرياح الشمالية السائدة وعثر بداخلها على الاوانى الفخارية والحجرية والنحاسية والعظمية والصدفية والخشبية.

ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من المساكن فى المعادى، الأول ذو شكل نصف دائرة والثانى قد حفر فى الارض، أو على الاقل يقع جزء كبير منه غائرا تحت مستوى سطح الارض، وينزل اليه الانسان بواسطة درجات تسندها بعض الاحجار، وأما النوع الثالث فقد كان اكثر تطورا من النوعين السابقين وقد اتخذت هيئة شبه مستطيلة.

ومن الأمور المميزة لموقع المعادى وجود بعض مظاهر التفكير الجماعى والذى يتمثل فى وجود مخازن كبيرة ومواقد كبيرة على أطراف القرية وذلك بجانب المخازن الصغيرة والمواقد الموجود بالمنازل، ويشير ذلك الى وجود نوع من التعاون بين السكان.

وتشير بعض الادلة الاثرية على اتصال مجتمع المعادى بجنوب فلسطين ومما قد يرجح ذلك ظهور بعض الاوانى الفخارية الشائعة فى فلسطين، ووجود بعض قطع من «قار البحر الميت فى مساكنهم»

وفيما يتصل دفن الموتى فقد دفن بعض الموتى داخل القرية، وبعضهم الآخر فى جبانة خارج القرية، وقد دفن الاطفال فى حفر عميقة داخل المساكن او بجوارها، ووضعت أحيانا فيي قدور داخل البيوت، وكانت رؤوس الموتى تتجه نحو الجنوب ووجوها نحو مغرب الشمس (٢).

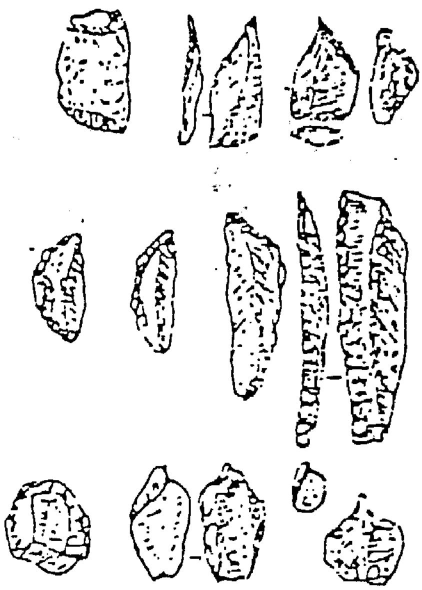
---

(١) عبد المنعم ابو بكر المرسوعة المصرية، الجزء الاول ، ص ٢٣

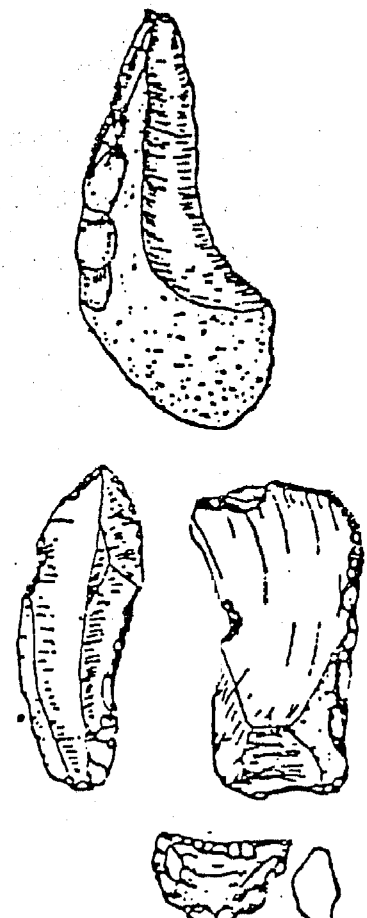
(٢) Menghin. O . El-Amer. M The Excauations of th [illegible] ptian university in the Neolithic site at Maadi (season, 1930-1931) Cairo. 1932 (season. 1932). Cairo 1936



شكل رقم (٥)
نماذج لقبضة اليد الاشولية

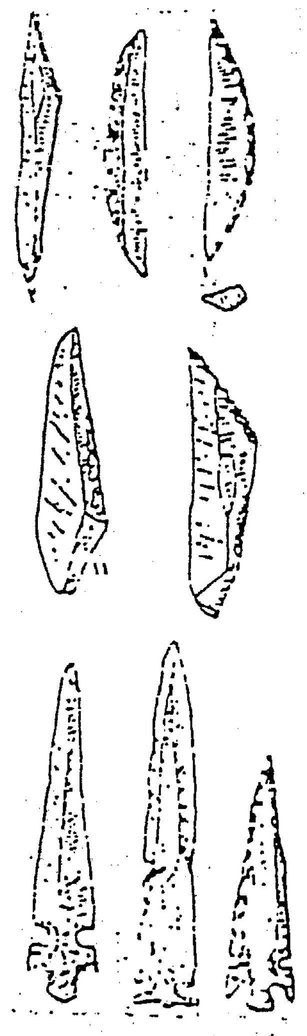


شكل رقم (٦)
الصناعات السيلية



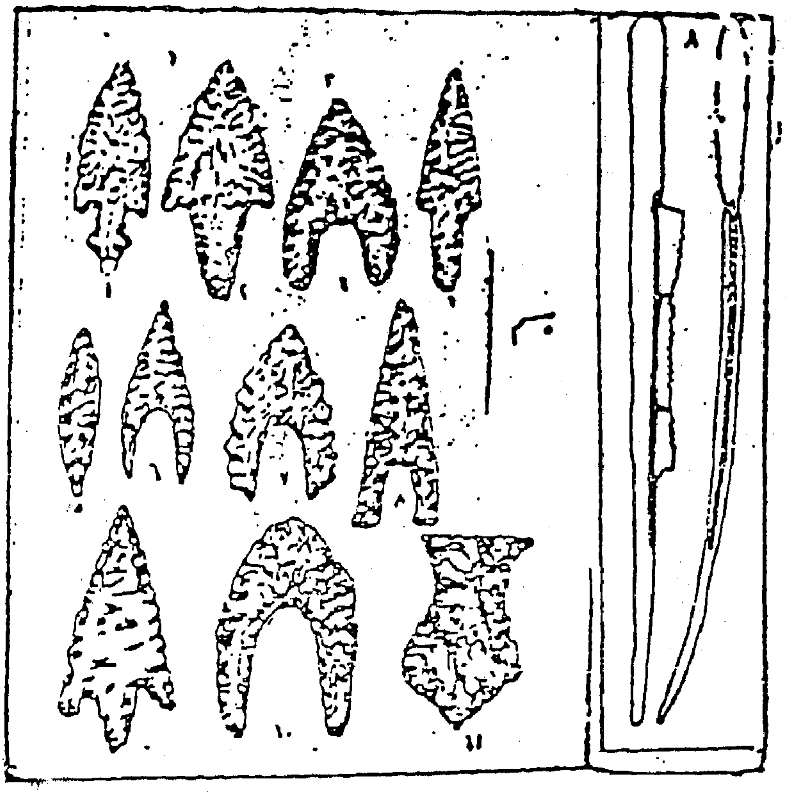
شكل رقم (٧)

ادرات مرقع دوارة الدير البحرى



شكل رقم (٨)

صناعات حلوان الحجرية



شكل رقم (٩)

حضارة الفيوم (أ) نماذج من الأدوات الحجرية ورؤوس السهام

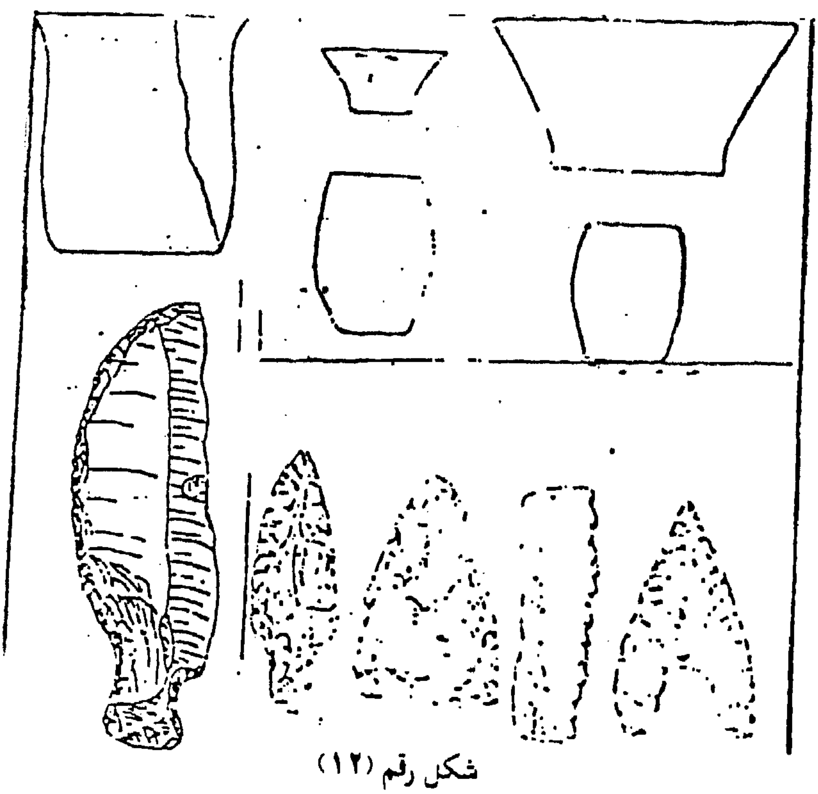


شكل رقم (١٠)

سبت من حضارة الفيوم (أ)



شكل رقم (١١)
أوانى فخارية متعددة الاشكال من مرمدة بنى سلامة

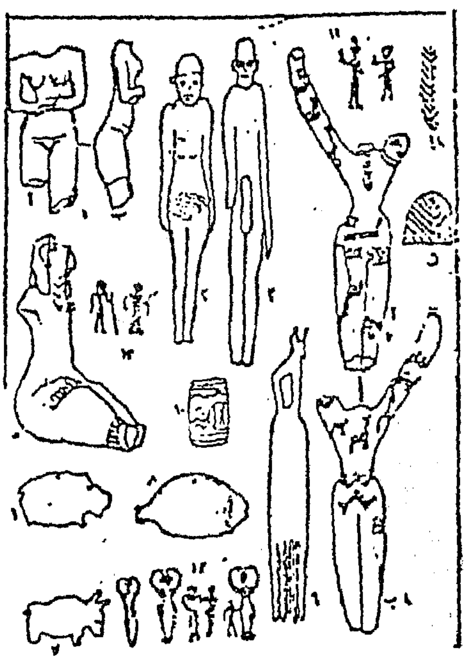


شكل رقم (١٢)
حضارة حلوان النيولينية



شكل رقم (١٣)

نماذج من فخار تاسا

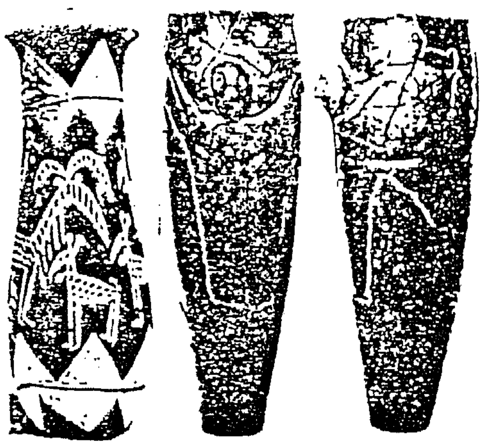


شكل رقم (١٤)

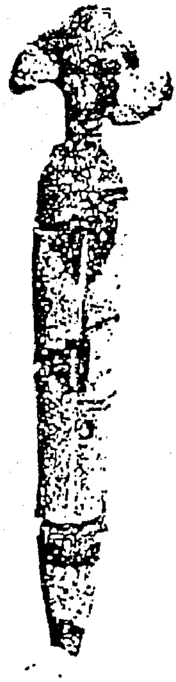
حضارة البداري



شكل رقم (١٥)
تمثال لامرأة مصنوع من الفخار موقع البدارى

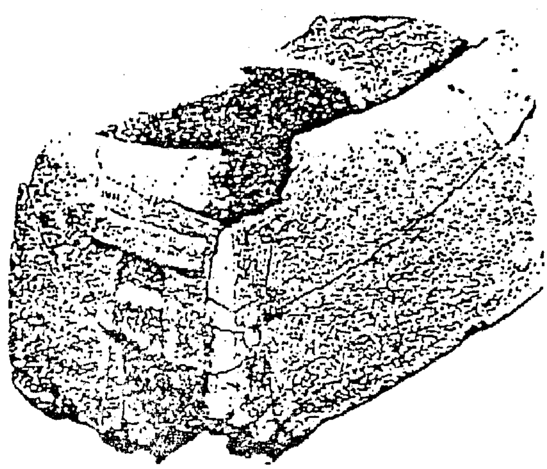


شكل رقم (١٦)
نماذج لبعض الاوانى الفخارية
فى نقادة الاولى



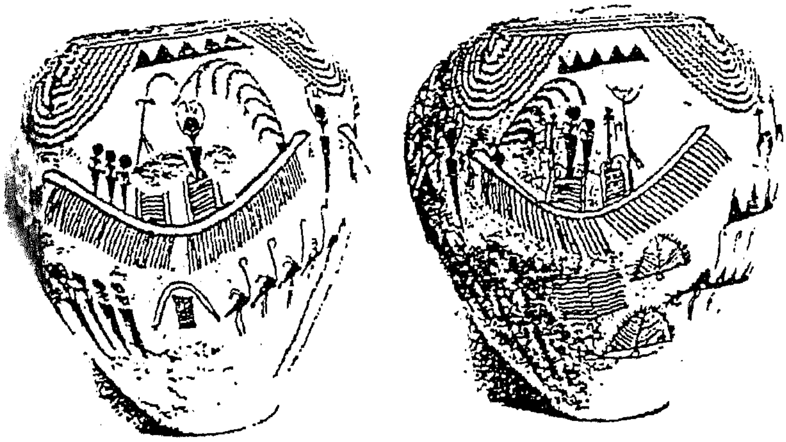
شكل رقم (١٧)

تمثال لامرأة مصنع من الفخار نقادة الاولى

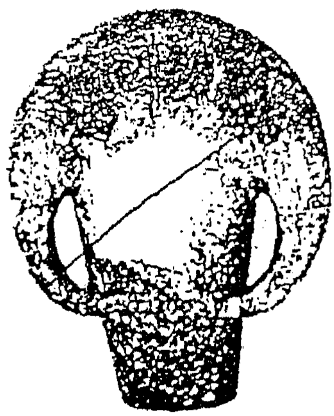


شكل رقم (١٨)

نموذج لتصميم المنازل فى العمرة



شكل رقم (١٩)
نماذج لبعض الاوانى الفخارية فى حضارة
نقادة الثانية



شكل رقم (٢٠)
تمثال يمثل الهة الامومية من نقادة الثانية

الفصل الثالث
عصور ماقبل التاريخ
فى
العـــــــراق

الموضوع الأول

«دراسات تميهدية»

١- التسمية.

٢- الظروف الجغرافية.

٣- تاريخ الكشف الأثرى فى العراق،

١ ـ التسمية

إن تسمية «ميزوبوتاميا Mesopotamia» التي تفيد معنى «أرض ما بين النهرين» أطلقها المؤرخ اليوناني بوليبيوس[١] (٢٠٨ ـ ١٢٦ ق.م) والجغرافي استرابو[٢] (٦٣ ق.م ـ ١٩ م). وكان المقصود بهذه التسمية المنطقة الواقعة فيما بين نهري دجلة والفرات وتمتد حتى حافة المناطق المرتفعة في الشمال حيث يدخل النهران الهضبة إلى منطقة بغداد الحالية حيث يقترب نهرا دجلة والفرات من بعضهما وتضيق المسافة بينهما إلى أقل اتساع.

إلا أن هذه التسمية تطلبت معنى أوسع من تلك التي كان يقصدها كل من بوليبيوس واسترابو، حيث امتدت المناطق الحضارية حول النهرين أيضاً، ولقد أدرك الإغريق أنفسهم قصور لفظ ميزوبوتاميا، فأضاف بعضهم إليه لفظ «باراپوتاميا Parapotamia» أي ما وراء النهرين أو ما حولهما[٣].

ولقد أصبحت التسمية ميزوبوتاميا معروفة في أوروبا كنتيجة لترجمة التوراة، إذ ورد في سفر التكوين: «وأخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وفي يده من كل خير مولاه، وقام ومضى إلى آرام النهرين إلى مدينة

(١) Polybius, The Histories, whith an English Translation by W.R. Paton, vol. V, London, 1960, 44. 7., 48. 16.

(٢) Strabo, The Geography of Strabo, with an English Translation by H L. Jones, vol V, London, 1951, p. 297, 317, 319, 329.

(٣) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، جـ١، مصر والعراق، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٧٢.

ناحور»[١] والمقصود بها في العهد القديم المنطقة التي تدعى «آرام نهاريم» والتي تعني أدبياً «أرام النهرين» وإن كان البعض يظن أنهما نهرا الخابور والفرات وليسا دجلة والفرات[٢]. ثم أصبحت كلمة ميزوبوتاميا مألوفة لدى قارىء التوراة نظراً لأنها تميز البلد الذي جاء منه إبراهيم عليه السلام[٣].

وبالنسبة لنا فإن مصطلح «ميزوبوتاميا» يتضمن مناطق متنوعة تقع ما بين جبال كردستان في الشمال إلى دلتا مستنقعات النهر في الجنوب، وما بين الصحراوات والسهوب في الغرب ومنحدرات جبال إيران في الشرق. وتقع معظم هذه المنطقة الآن في جمهورية العراق.

أما كلمة «العراق» الحالية فأصلها غير مؤكد، وإن كان يرجح أنها كلمة فارسية تعني «السواد» أو «السهل» أو «البلاد السفلى»، وإن ذهب بعض المفسرين العرب إلى أن كلمة العراق تعني «الجرف» أو «الساحل». وقد أطلق العرب على القسم الجنوبي من العراق «السواد» أو «العراق»، أما القسم الشمالي فأطلق عليه اسم «الجزيرة»، وهي كلمة تطابق في معناها الكلمة اليونانية «ميزوبوتاميا».

وترجع تسمية البلاد باسم «السواد» إلى كثرة المزروعات والأراضي السوداء المستغلة في الزراعة، ولقد أسهم نهرا دجلة والفرات في طبيعة تكوين هذه المنطقة وزودها بالمياه اللازمة للأعمال الزراعية»[٤].

وهناك من الباحثين من يتجه إلى القول بأن تسمية «العراق» ترجع في أصولها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ويعتمدون في ذلك على أنه كان هناك قطراً في أواخر العهد الكاشي (١٥٨٠ ـ ١١٦٠ ق.م تقريباً) عرف باسم

---

(١) سفر التكوين: ٢٤: ١٠.

(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧١، ص ٤٣.

(٣) M A., Beek., Atlas of Mesopotamia. London. 1962, p. 9.

(٤) نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٥، الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٢.

«أريقا»[١] حيث حرفت إلى «إيراك» ثم غربت إلى «عراق» أو «العراق». وإن كان هناك من يرى أنها كلمة سومرية تفيد معنى «المستوطن» شأنها في ذلك شأن كثير من المدن السومرية التي تعني نفس الكلمة[٢].

ولقد أطلق السكان المحليون على بلادهم تسميات عديدة حسب الفترات التاريخية فأطلقوا على جنوب العراق في فجر تاريخه التسمية «مات شوميري» التي تعني بلاد سومر وذلك في اللغة الأكدية أما في اللغة السومرية فكانت kie-en-gi(r) التي ربما تعني أيضاً «أرض زراعية» أما بلاد بابل فكان يطلق عليها في اللغة الأكدية التسمية «مات بابل» التي تعني «بلاد بابل» والأمر كذلك بالنسبة لأشور التي أطلق عليها «مات أشور»[٣].

٢ ـ الظروف الجغرافية

إن الظروف الجغرافية البارزة في العراق هي وادي دجلة والفرات اللذين يعتبران شريان الحياة الرئيسي في هذه المنطقة، ولقد أدرك الإنسان العراقي القديم أهمية النهرين بالنسبة له فقام بتأليههما وعرفهما بالنهرين الأخوين، ويلاحظ أن كلمة «الفرات» ذات أصل سومري ووردت في النصوص البابلية تحت اسم «بورتم» أو «بوراتي». أما «دجلة» فقد وردت في النصوص القديمة تحت اسم «أدقلات» أو «أدجلات» والتي قد تفيد معنى الجاري أو الراوي[٤] ونظراً لارتفاع وادي الفرات عن دجلة فقد صنع الإنسان العراقي القديم شبكة من

(١) عبد الحميد أحمد زايد: الشرق الخالد، مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م.، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١.

(٢) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١.

(٣) عيد مرعي: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م، دمشق، ١٩٩١، ص ١٣.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ١٤.

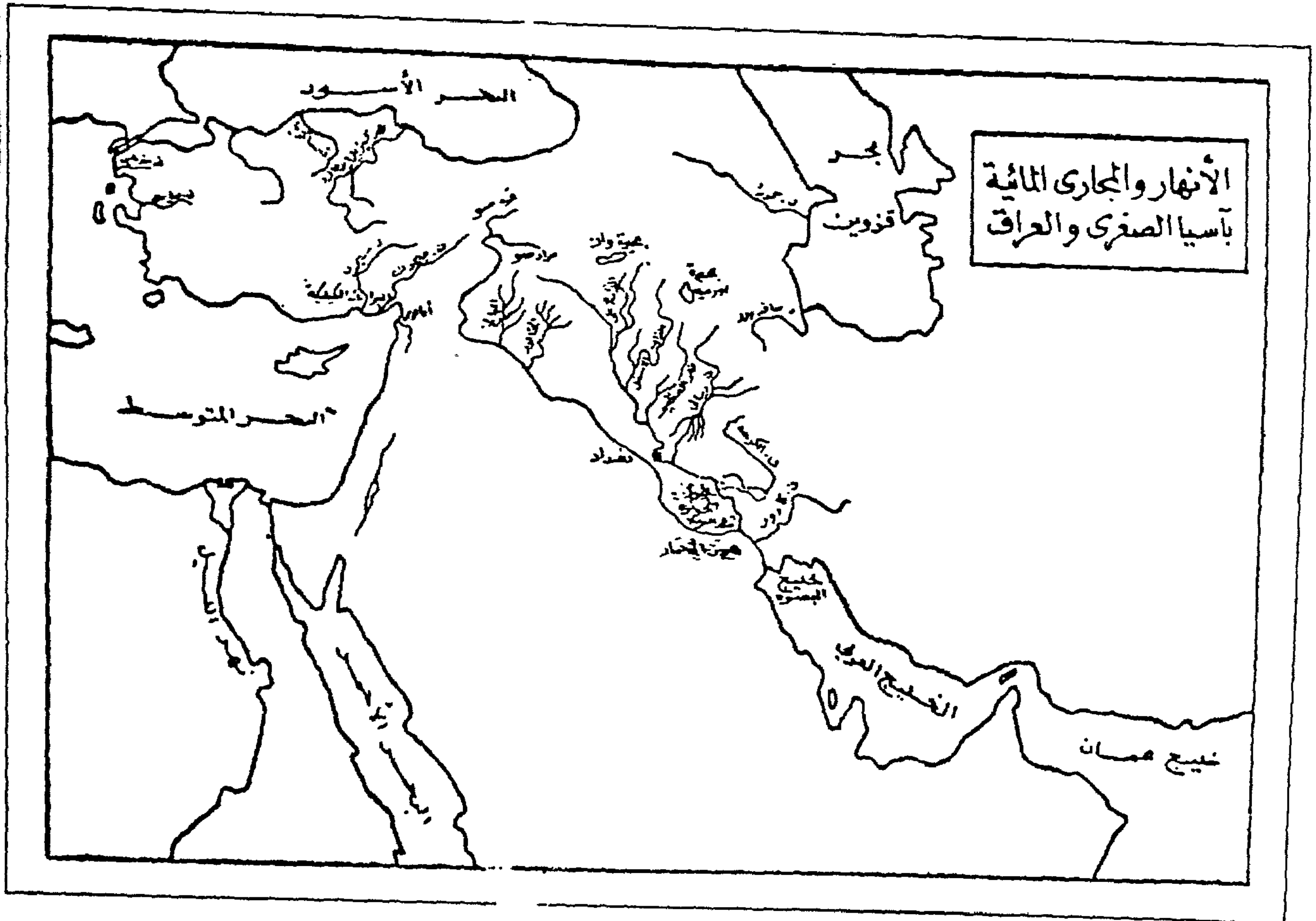
الأنهار توصل بينهما وبخاصة في القسم الجنوبي الذي يتميز بصلاحية معظم أجزائه للزراعة والرعي.

ويقع وادي النهرين بين سلسلة جبال زاجروس شرقاً والصحراء السورية ومرتفعات لبنان غرباً، وتنحدر أرضه تدريجياً من جبال أرمينيا التي ينبع منها النهران ويظل الانحدار حتى نقطة التقائهما حيث يتكون السهل الفيضي في الجنوب ويستمر حتى مصبه في الخليج العربي.

ويتميز نهر الفرات بأنه أطول من نهر دجلة وأكثر تعرجاً، وهو يمتاز عنه باتساع واديه وعمقه، أما دجلة فإنه يتميز من ناحية أخرى بكثرة روافده التي تنبع من هضبة إيران، وهو بذلك يتلقى إمدادات كثيرة، ولعل من أهم هذه الروافد نهر الزاب الكبير (الأعلى) الذي يصب في دجلة على بعد أربعين ميلاً جنوبي نينوى بالقرب من نمرود، ثم الزاب الأسفل إلى الجنوب من ذلك بحوالى ثمانين ميلاً. ومن هذه الروافد كذلك نهر ديالي والذي أطلق عليه البابليون التسمية «ترناة» ولقد أدت كثرة الروافدوتنوع مصادرها إلى أن أصبحت الفيضانات المفاجئة من المظاهر المميزة لنهر دجلة. أما أهم روافد الفرات، فهما «البالخ» و «الخابور». (خريطة شكل ١)

ويلاحظ أنه رغم أن نهر دجلة أقل اتساعاً من نهر الفرات إلا أن كمية المياه التي يحملها أكبر، وسرعة التيار في النهرين شديدة مما يؤثر على النحات في المجرى الجيري لهما مما يجعل ماء النهرين سريع الجريان مليئاً بالرواسب، وفي بعض الأحيان تؤدي سرعة جريان نهر دجلة وفيضه المفاجيء إلى غمر الكثير من الأراضي بل وفي بعض الأحيان يؤدي ذلك إلى أن يشق النهر لنفسه مجرى جديداً.

وقد اتخذ كل من دجلة والفرات مجرى منفصلاً فيما بين الألف العاشر والألف الخامس ودخلا إلى الخليج العربي بمصبين مختلفين، وكان خط شاطىء الخليج في هذه المرحلة يقع أبعد مما هو إلى الشمال الغربي على بعد


الأنهار والمجارى المائية بآسيا الصغرى والعراق
البحر الأسود
البحر المتوسط
قزوين
بحيرة وان
بغداد
خليج البصرة
الخليج العربي
خليج عمان

خريطة (١)

بضعة أميال من بغداد، وقد كون كل من النهرين دلتا خاصة به امتدت كل منهما تدريجياً إلى الجنوب الشرقي في مياه الخليج، ونظراً للترسيبات الطينية التي حملتها العديد من الأنهار الأخرى في هذه المنطقة تكون رصيف من مادة فيضية رسوبية في الجنوب عبر رأس الخليج العربي وأدى ذلك إلى تكوين حاجز أمام نهري دجلة والفرات مما أدى إلى ترسيب كميات كبيرة من الطمي الذي يحملانه في الأراضي الداخلية مما أدى إلى تكوين المستنقعات الطمية(١).

ولقد أدى ذلك إلى وجود أقليمين مميزين في الأراضي المنخفضة لدجلة والفرات وهما السهل الأدنى وهو نتيجة الإرساب الفيضي، والسهل الأعلى ويشمل حوض النهرين ووديان روافدهما. والسهل الأدنى حديث نسبياً لم يُعمر قبل الألف الخامس قبل الميلاد واستقر فيه السومريون، والأكديون منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ونتيجة لالتقاء دجلة بالفرات تكونت منطقة شط العرب وهي عبارة عن مجرى ملاحي عريض يتخلله حزام من النخيل. وكلما اتجهنا شمالاً تضاءلت المستنقعات.

ولقد قامت المدن السومرية على ضفاف الخليج وعلى شاطىء الفرات، ومنها: أريدو (أبو شهرين حالياً)، أور (المقير) وذلك على الضفة اليمنى للنهر، لارسا، لجش، أوما، أوروك (الوركاء)، شوروباك، نيبور (نفر). وفي شمال الإقليم السومري تمتد أكد حتى عرض بغداد وأشهر مدنها بورسيبا ثم بابل ثم كيش ثم سبار.

ويقع إقليم الجزيرة بين دجلة الأعلى والفرات فيحده من جانبيه النهران كما تحده من الشمال أطراف سلسلة جبال آسيا الصغرى، ويعرف الإقليم على

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن هناك من الباحثين الجيولوجيين من يعتقد بأن ساحل الخليج العربي كان يوجد إلى الجنوب مما هو عليه الآن، ويعتمدون في ذلك على بعض الصور الجوية التي أخذت لهذه المنطقة واعتقدوا أنه يوجد فيها بقايا مناطق سكنية غمرته مياه البحر الذي كان يرتفع تدريجياً. انظر:

Geographical Journal, March, 1952.

ضفة دجلة الشرقية باسم «آشور» وترتفع الأرض هنا على مراحل من دجلة إلى الشمال الشرقي وتميز كل مرحلة مرتفعات تتزايد كلما اتجهنا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهو ينتهي من ناحية الشمال الشرقي بمناطق جبلية تنتشر فيها أحواض منخفضة يحيطها التلال وفي الشرق يحيط بها سلاسل جبال زاجروس الرئيسية، وفي الشمال الأقواس الأناضولية[١].

ويلاحظ أن وادي دجلة والفرات أقل وحدة من وادي النيل من الناحية السياسية، فالمنطقة من بغداد إلى الجنوب كانت قديماً وحدة اقتصادية وسياسية تعتمد في ثروتها على الري من النهرين وظهرت فيها دولة بابل، وفي هذا الجزء نفسه ظهرت دويلات المدن التي ازدهرت أيام الحضارة السومرية. وإلى الشمال من بغداد توجد أنهار أخرى هامة وهي ديالي والزاب الكبير والزاب الصغير والخابور والبالخ، وشكلت هذه المنطقة وحدة أخرى سياسية واقتصادية مستقلة عن الوحدات الأخرى، قامت فيها دولة آشور إلى جانب دولة بابل في الجنوب.

ولقد انتشرت الحضارة في بلاد النهرين من الجنوب إلى الشمال، ووصلت إلى مستوى متقدم في الفرات عنها في دجلة، وتوزع السكان في الدلتا إلى شعبتين، الساميون وأقاموا في إقليم إكد الذي كان يمتد من آجاد إلى كيش، والسومريون الذين استوطنوا المنطقة بين نيبور والبحر.

وعلى ذلك فإنه يمكن تقسيم سطح العراق إلى قسمين شمالي وجنوبي. وفيما يتصل بالقسم الشمالي فتغلب عليه الطبيعة الجبلية إذ تكثر فيه المرتفعات وبخاصة في شماله الشرقي الذي تتخلله وديان نهر دجلة وفروعه، ويفصله عن الجهات التي تقع أبعد من ذلك شمالاً سلسلة جبال طوروس وهضبة أرمينيا، ويطلق على معظم أجزاء هذا القسم ـ باستثناء الأطراف الشمالية الجبلية ومنطقة الشمال الغربي فيما بين الخابور والفرات ـ تسمية أرض آشور نسبة إلى مدينة آشور التي كانت من أهم المدن الشمالية.

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٤.

أما القسم الجنوبي، فهو حديث التكوين من الناحية الجيولوجية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وهو يبدأ على وجه التقريب عند بغداد الحالية ويمتد جنوباً حتى الخليج العربي، ويمكن تقسيم القسم الجنوبي حسب طبيعته الجغرافية إلى عدة أقسام، تبدأ بمنطقة مصب النهر في أقصى الجنوب، وتمتد من منطقة التقاء النهرين حتى الخليج العربي، يليها شمالاً منطقة الأحراش وهي تشغل المجريان الأدنيان لنهري دجلة والفرات، وتنخفض أرض هذه المنطقة مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه فيها مما جعلها تحوي الكثير من الأحراش والمستنقعات. ويلي هذا القسم منطقة الدلتا، وهي تشغل معظم القسم الجنوبي، ويخترقها العديد من القنوات كما تغمرها الفيضانات السنوية للنهرين. وإلى الشمال من منطقة الدلتا توجد منطقة السهل حيث يقترب فيها مجرى نهري دجلة والفرات إلى أدنى حد، وتتعرض هذه المنطقة لفيضانات عنيفة تصل غالباً إلى درجة مدمرة لهذه المنطقة.

وقد عرف القسم الجنوبي في بداية العصر التاريخي في العراق القديم باسم «أرض سومر وأكد» وتعني أرض سومر نصفه الجنوبي الممتد حتى الخليج العربي، أما أرض أكد فهي نصفه الشمالي الذي يصل إلى حدود بغداد. وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد عرف هذا القسم باسم أرض بابل، وظلت هذه التسمية علماً على المنطقة بعد ذلك.

وتوجد أقدم أدلة أثرية للإنسان العراق القديم في منطقة الجبال الشمالية والشمالية الشرقية، وهي جبال كردستان والتي تسمى في بعض نواحيها بجبال زاجروس، ويبلغ ارتفاعها حوالى أربعة عشر ألف قدم، ويوجد بها كهوف ترجع إلى عصر البلايستوسين مثل كهف هزارمرد وزرزى وشانيدار، ولقد عثر في بعض هذه الكهوف على آثار للإنسان ترجع إلى العصر الحجري القديم.

ويلي هذه المرتفعات هضاب تتكون من طبقة صخرية تعلوها قشرة سميكة من الكلسيوم وتتخلل هذه الهضاب سهول خصبة ووديان ومجاري مياه، ومن

أشهر هذه السهول، سهل جمجمال الذي يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولقد عاش الإنسان في هذا السهل خلال الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم وخلال العصر الحجري الوسيط.

ولقد عاش الإنسان أيضاً خلالُ الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط في منطقة الصحراوات الغربية والتي تمتد من أعالي الفرات غرباً حتى صحراء نجد، ومنها قسم يقع بين دجلة والفرات جنوبي جبل سنجمار وتل عفر وهي تعرف بالجزيرة.

أما الإنسان خلال العصر الحجري الحديث وعصر الحجر والنحاس فلقد بدأ يستقر في السهول الغرينية في وسط وجنوب العراق، وهي المنطقة التي شهدت مولد الحضارة في العراق القديم.

٣ـ تاريخ الكشف الأثري في العراق

شغلت آثار بلاد النهرين اهتمام الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة إبان العصور الوسطى، ومن هؤلاء التاجر اليهودي Benjamin Bar Jona of Tudela الذي زار هذه المنطقة عام ١٦٦٠ م. ولقد أثارت انتباهه آثار نينوى وبابل، وعندما زار الموصل كتب يقول: «المدينة، الأولى في فارس، كانت كبيرة جداً في العصور القديمة وهي تقع على نهر دجلة، وترتبط بمدينة نينوى بواسطة معبر، ولقد دُمرت مدينة نينوى ولكن توجد فوق أنقاضها الآن العديد من القرى والتجمعات السكنية». وعندما اتجه إلى بابل ذكر أن بقاياها الأثرية تغطي مسافة تقرب من ثلاثة أميال. وعندما شاهد خرائب قصر نبوخذ نصر قال إنه لا يجرؤ أحد من الاقتراب منها وذلك خوفاً من العقارب والثعابين. ومن بين ما ذكره أيضاً أنه شاهد «برج بابل» ولكنه يبدو أنه كان يقصد

بوررسيبا القديمة[1].

وكان لترجمة كتابه إلى الإنجليزية والفرنسية، أن أصبحت نينوي وبابل موضع اهتمام العلماء والباحثين.

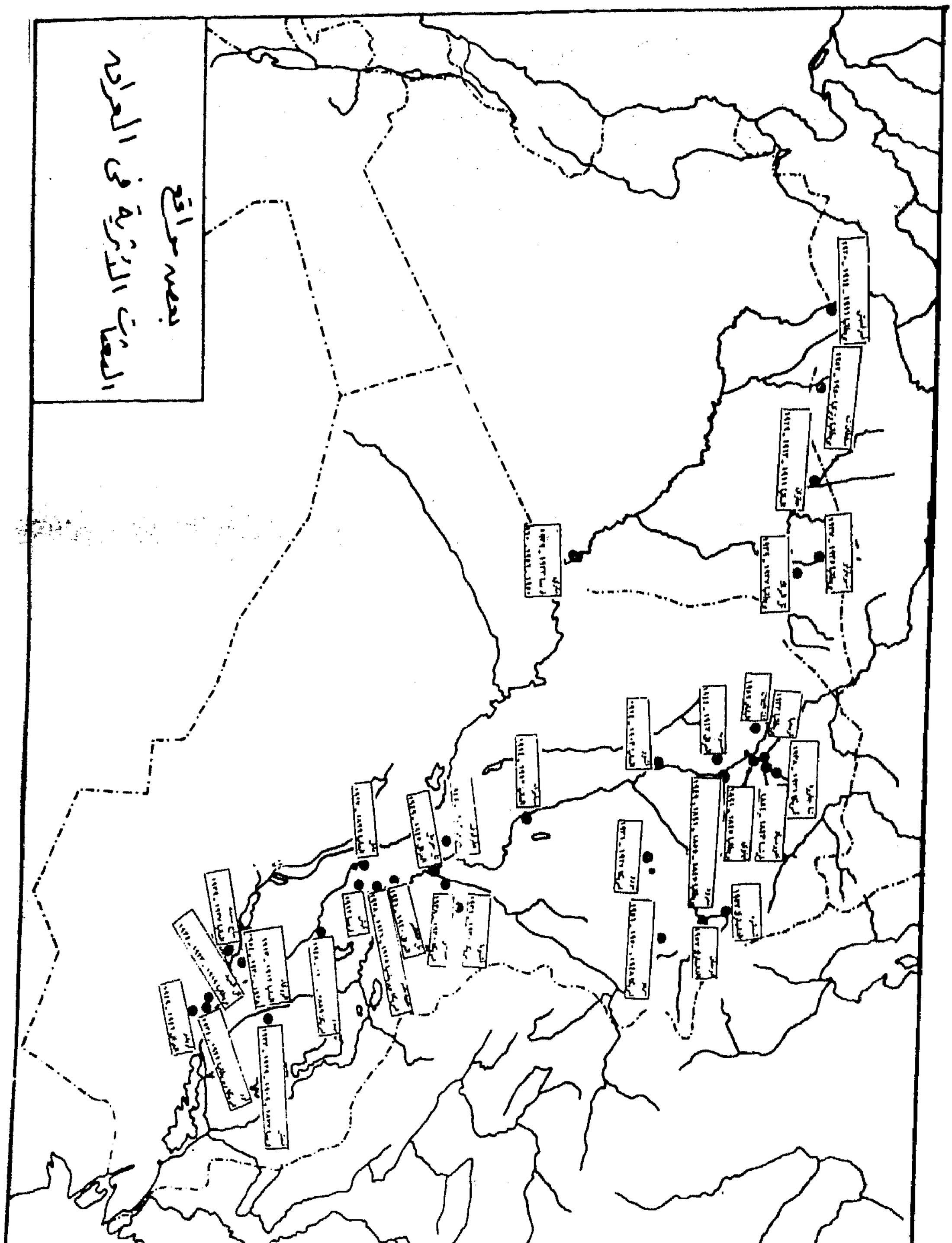
وتعددت بعد ذلك الزيارات إلى بلاد النهرين، ومن أشهر هذه الزيارات تلك التي قام بها النبيل الإيطالي «بيترو ديللا ڤال Pietro della Valle الذي زار بابل عام ١٦١٦ م، ثم قام بزيارة أور عام ١٦٢٥ م. ولقد قام لأول مرة بإرسال نسخ من الكتابة المسمارية التي عثر عليها في برسبوليس إلى أوربا، كما أخذ معه أيضاً بعض قطع اللوحات المكتوبة بالخط المسماري والتي عثر عليها في بابل.

ولقد أدى ذلك إلى إثارة اهتمام الأوروبيين بالحضارة العراقية القديمة، فأرسل ملك الدانمرك في عام ١٧٦١ م بعثة علمية إلى الشرق تكونت من خمسة أعضاء برئاسة كارستن نيبور Carsten Niebuhr، وتمكنت البعثة من نسخ نقوش جديدة من برسبوليس عام ١٧٧٨، ولاحظ أنها مكتوبة بثلاثة أشكال مختلفة من الكتابة المسمارية، واستنتج أن كل نقش يتناول موضوعا واحداً كرر ثلاث مرات ليمثل كتابة الأقسام الثلاثة الرئيسية في الأمبراطورية الفارسية وهي فارس وعيلام وبابل. وأثارت هذه النقوش اهتمام علماء اللغات فبذلوا جهودهم في محاولة تفسيرها، كما بعث الفضول في نفوس كل من يأتي إلى الشرق يحاول البحث والتنقيب في مناطقه الأثرية لجمع ما يمكن جمعه من أثار وينسخ ما يمكن نسخه من النقوش التي لا يمكن نقلها.

وبدأت أولى أعمال الحفائر المنظمة على يد الأب جوزيف دي بوشان Joseph de Beauchamp الممثل العام للبابا في بغداد في الفترة من ١٧٨٠ - ١٧٩٠ م، ولقد قام بزيارتين طويلتين لبابل. ونشرت تقاريره في عامي ١٧٨٥ و ١٧٩٠ وذلك في مجلة: Journal des Savants. وهي تعتبر من أنشط العوامل

---

(1) M. A Beek, op. cit., p. 19.


بعض مواقع
البعثات الأثرية في العراق

التي خلقت اهتماماً عاماً متزايداً بهذا الموضوع. (خريطة ٢)

وعلى ذلك، فعند نهاية القرن الثامن عشر، كانت هناك الكثير من النقوش المجلوبة من نينوي وبابل متاحة أمام الباحثين في أوروبا، وكانت هي الأساس الذي حاول العديد من الباحثين الاعتماد عليها في محاولاتهم لكشف أسرار الكتابة العراقية القديمة. وكانت الخطوة الحاسمة في فك رموز الكتابة المسمارية جزئياً في بداية القرن التاسع عشر وذلك في عام ١٨٠٢ على يد العالم الألماني جروتفند G.F. Grotefend.

وفي عام ١٨١٠ م وصل بغداد البريطاني جيمس ريتش James Rich ممثلاً لشركة الهند الشرقية، وكان يتقن اللغات الشرقية العربية والتركية، ولقد بدأ بالعمل في الحفائر في بغداد ثم انتقل إلى نينوى ومنها إلى إيران حيث وافته المنية عام ١٨٢١ م[١] عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين، ولقد نشرت زوجته أعماله بعد وفاته وذلك في عام ١٨٢٥ م وهي تتميز بدقة المعلومات ووفرتها.

وأدى نشر هذه الأعمال إلى قيام العديد من الدول بمحاولة عمل حفائر في العراق، فأرسلت فرنسا بعثة في ديسمبر ١٨٤٢ م لأعمال التنقيب الأثري في شمال العراق وذلك برئاسة بول إميل بوتا Paul-Emile Botta القنصل الفرنسي في الموصل. وبدأ بوتا أعمال الحفائر في موقع نينوى القديمة، ويمكن القول أنه عندما بدأ بالحفر في هذا الموقع بدأ التاريخ الحقيقي للحفائر الأثرية في بلاد النهرين[٢] حيث لم يقم أحداً قبله بالحفر للكشف عن المدن المدفونة في تلال بلاد الرافدين، ولقد توجه لعمل حفائر في خورسباد.

وفي عام ١٨٤٥ م قامت البعثة الأنجليزية برئاسة اوستن هنري لايارد Austen Henry Layard الذي وصل في نهاية شهر نوفمبر وقام بالعمل في تل نمرود (كالح القديمة، حسبما وردت في التوراة، وفي الأشورية كالخو) ثم عاد

(١) Larousse, Encyclopedia of Archaeology, Translated from the French by Anne Ward, London, 1983, p. 168

(٢) M.A. Beek, op. cit., p 19.

إلى انجلترا عام ١٩٤٧ ثم عاد مرة أخرى عام ١٨٤٩ حيث استمر في العمل حتى عام ١٨٥١[١].

ولقد أدى ذلك إلى وجود منافسة بين الإنجليز والفرنسيين لإخراج الكنوز الأثرية للمتحف البريطاني ومتحف اللوفر، وكان ذلك بمثابة أعمال اصطياد للثروة أكثر منه بحثاً علمياً عن الآثار، ويضاف إلى ذلك أيضاً ضيق الوقت وعدم وجود دراسة علمية عن أصول الحفائر العلمية، فتم حفر الأنفاق والآبار بدون أي دراسة، وكان الهدف هو الوصول إلى القطع الأثرية القيمة بأسرع وقت ممكن. ونشب هذا الصراع حول موقع نينوى بين رولنسون H.C. Rawlinson ومساعده هورموزد رسام Hormuzd Rassam من ناحية وبين بول إميل بوتا من ناحية أخرى.

وفي خضم هذا الصراع الذي لم يراع فيه إطلاقاً وقار وجلال العلماء أو الباحثين كشفت حفائر الفرنسيين برئاسة بوتا في خورسباد عن قصر سرجون الثاني[٢] الذي يعد من أعظم المباني التي شيدها الآشوريون. بينما كشفت حفائر البعثة الإنجليزية برئاسة هورمزد رسام عام ١٨٥٤ م عن المكتبة الضخمة التي ألحقها الملك الأشوري أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) بقصره في العاصمة نينوى والتي ضمت ما يزيد عن العشرين ألف من الألواح الطينية التي جمعها من كافة أنحاء البلاد.

واستمر هذا التنافس الشاذ بين الإنجليز والفرنسيين في المجال الأثري وذلك حول موقع تللو Tello الذي يحوى آثار مدينة لجش. ولقد قام أرنست دو سارزيك Ernest de Sarzec نائب قنصل فرنسا في البصرة في هذا الوقت بعمل حفائر في هذه المنطقة بدون حصوله على تصريح وذلك بعد أن وجه أحد معارفه الملمين بأهمية هذه المنطقة اهتمامه إليها، فقام خلال عامي ١٨٧٧

---

(١) A.H, Layard, The Monuments of Nineveh, London, 1849 - 53

(٢) P.E. Botta, Monuments de Nineve, mesures et dessines par E. Flandin, Paris, 1849 - 50.

و ١٨٧٨ م بمحاولة الحصول على أكبر كمية من الآثار المنحوتة، والنقوش وأن يرسلها إلى باريس حيث قام ببيعها إلى متحف اللوفر.

وأثناء غياب دو سارزيك de Sarzec قام الإنجليزي رسام Rassam أيضاً بسرقة البقايا الأثرية بدون حصوله هو الآخر على إذن بالحفائر، وأدى ذلك إلى نقل آثار لجش إلى العديد من أنحاء العالم.

ومع ذلك وبالرغم من كل المغامرات التي قام بها دو سارزيك de Sarzec وسرقته للآثار، فقد قام بخدمة علمية كبيرة، فلقد لفتت الآثار السومرية التي وصلت إلى متحف اللوفر اهتمام المؤرخين، وأصبح الأدب السومري في متناول علماء الآثار والمؤرخين.

وفي عام ١٨٧٧ م دخلت أمريكا ميدان البحث الأثري، حيث أرسلت بعثة أثرية برئاسة بيتيرس Peters. ولقد اختار موقع نيبور ليقوم بالعمل فيه، وكان اختياره ممتازاً لهذا الموقع. ومع ذلك فلم يكن لدى Peters ولا مساعده هلبرخت Hilpercht الكياسة المطلوبة للتعامل مع السكان المحليين. وعلى ذلك فلم يمض على عملهم أكثر من شهرين حتى قام الأعراب الموجودين في هذه المنطقة بإشعال النيران في معسكرهم وقاموا بنهبه، مما اضطر الأمريكان للرحيل. ومع ذلك فلم تثبط همة الأمريكان بسبب هذه البداية المخيبة للآمال، فعادوا مرة أخرى عام ١٨٩٠ م لنفس الموقع واستمروا في العمل فيه فترة طويلة. ويرجع الفضل إليهم في الكشف عن آلاف اللوحات الأثرية، ومن بينها ما يقرب من ألفي نص سومري يتصل بالأدب وقام صموئيل نوح كريمر بنشرها[١]. كما كشفوا عن زاقورة ومعبد للإله إنليل ومعبد للإلهة إنانا.

---

(١) قام صموئيل نوح كريمر بنشر هذه اللوحات في العديد من مؤلفاته ومنها، انظر:

S.N. Kramer, The Sumerians, Chicago and London, 1970;
——; «The Death of Gilgamesh», in ANET;
——; Sumerian Mythology, Philadephia, 1944;
——; Dilmun, The Land of living, in BASOR, 96, 1944;
——; The Indus Civilization and Dilmun, The Sumerian Paradise land expedition, Philadelphia, 1964

وبالإضافة إلى هذه البعثات فلقد قام بالحفائر في العراق العديد من المكتشفين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونذكر منهم: ارنست بدج Ernest Budge، وليونارد كنج Leonard W. King، ر. كامبل تومبسون R. Campbell Thompson. ولقد قامت هذه البعثات بنقل التراث الحضاري للعراق القديم إلى متاحف باريس ولندن وبرلين وغيرها.

ومع بداية القرن العشرين تميزت الحفائر بالتقدم الكبير في استخدام الوسائل العلمية في الحفائر، فلم يصبح الحفر من أجل استخراج الكنوز الأثرية هو الهدف، فلقد حاول الأثاريون الكشف عن جدران المباني، وأخذوا يعيدون تصميم تخطيط المجموعات المعمارية التي كانت مشيدة من الآجر أو الطين. وقام بهذا العمل الألمان، حيث قامت البعثة الألمانية برئاسة روبرت كولدوي R. Koldewey بين عام ١٨٩٩ ـ ١٩١٧ بالعمل في موقع بابل حيث اكتشفت العديد من الآثار التي ترجع إلى العهد البابلي الحديث. وقام الألمان أيضاً بالعمل في موقع مدينة آشور في الفترة ما بين ١٩٠٣ ـ ١٩١٤ م وذلك بإشراف كل من كولدوي والتر أندريه W. Andrae وجوليوس جوردان J. Jordan ولقد ركزوا اهتماماتهم نحو الأبنية الأثرية وترميمها وإعادة تخطيطها. ويلاحظ أن أندريه قد تفوق على أستاذه كولدوي في أخذه بالأساليب العلمية في تعامله مع الآثار وكشفها. وأدت الحفائر المنظمة للعديد من التلال الأثرية إلى إمكانية تتبع تاريخ المدينة بالتفصيل منذ حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م وحتى القرن الثالث الميلادي.

وفي ذلك الوقت تمكن الألماني ماكس فون أو بنهايم Baron Max Von Oppenheim من الكشف عن موقع تل حلف وذلك منذ عام ١٨٨٩، كما كشف أيضاً عن مدينة أخرى تبعد عن تل حلف بحوالى ٤٥ ميل وهي المدينة التي أطلق عليها الأشوريون سوپارتو وهي حالياً جبلة البيضا.

وخلال هذه الفترة التي تعتبر الفترة الذهبية لأعمال الحفائر بالنسبة للألمان، لم تترك البلدان الأخرى الميدان خالياً لهم، فعلى الجانب الغربي لنهر

الفرات وبجوار سكة حديد بغداد قام الإنجليز بعمل حفائر في موقع Carchemish قرقميش وذلك برئاسة كامبل تومبسون Campbell Thompson وليونارد وولى L. Woolley وذلك في الفترة من ١٩١١ ـ ١٩١٤ ثم استؤنفت مرة ثانية عام ١٩٢٠، ثم ما لبثت أن غادرت الموقع مرة أخرى نظراً للنزاع بين فرنسا وتركيا لتحديد الحدود بين تركيا وسوريا. ولقد أثبتت الأدلة الأثرية التي كشف عنها في هذا الموقع، أن هذه المدينة كانت ذات طبيعة استراتيجية مهمة، فهي كانت على الطريق الذي يربط ما بين فلسطين وبلاد النهرين منذ العصور الحجرية وحتى القرن السادس الميلادي.

وأثناء ذلك تمكنت البعثة الفرنسية برئاسة Henri de Genovillac من الكشف عن مدينة كيش، وهي في مجاورات بابل.

وبعد الحرب العالمية الأولى أخذ الإنجليز بزمام المبادرة في أعمال الحفائر فقام ليونارد وولي بالعمل في المقابر الملكية في أور، حيث تمكن من الكشف عنها خلال موسمي ١٩٢٧، ١٩٢٨ م. ونقلت نفائسها إلى المتحف البريطاني. وكشفت هذه البعثة أيضاً زاقورات ومعابد ونقوش.

وفي الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٤ وصل عدد البعثات الأثرية التي تعمل في العراق إلى اثنتى عشرة بعثة، قامت بالعمل في العديد من المواقع مثل تل العبيد، كما استكملت بعثة إنجليزية أمريكية العمل في موقع كيش الذي بدأت العمل فيه البعثة الفرنسية.

وفي عام ١٩٣١ قام متحف بنسلفانيا بالعمل في موقع تل فارا (شوروباك)، بينما ذهبت البعثات الفرنسية إلى موقع لارسا، وفي عام ١٩٣٣ تمكن اندريه بارو من الكشف عن مدينة ماري. واستمر العمل فيها حتى عام ١٩٣٩، ثم استؤنفت الحفائر مرة أخرى عام ١٩٥٠ لعدة مواسم، وعلى الرغم من أن ماري تقع خارج حدود العراق إلا أنها ترتبط بحضارة ما بين النهرين بقصرها وأرشيفها الملكي الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وقامت بعثة أمريكية تابعة للمعهد الشرقي بجامعة شيكاغو برئاسة هنري فرانكفورت يعاونه عدد كبير من المساعدين بالعمل في منطقة وادي ديالي في الفترة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٧، ولقد قاموا بالحفائر في تل أسمر، وخفاجى، وتل أجراب.

وقام ماللوان وزوجته بالعمل في موقع أربجيه عام ١٩٣٣ تحت رعاية المدرسة الإنجليزية للآثار في بلاد النهرين، حيث تمكن من الكشف عن آثار هامة في هذا الموقع.

ونظراً لعودة البعثات الأجنبية إلى بلادها خلال الحرب العالمية الثانية، فلقد ازداد عدد رجال الآثار العراقيين الذين قاموا بالعمل في تل المقير وتل حسونة بعد عام ١٩٤٠، ثم بعد ذلك في تل حرمل عام ١٩٤٥ وأريدو عام ١٩٤٦.

ومنذ عام ١٩٤٨ بدأت البعثات الأجنبية في العودة مرة أخرى للعمل في المواقع الأثرية التي كانوا يقومون بالحفائر فيها، فعادت البعثات الأمريكية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وذلك بالإضافة إلى بعثات من إيطاليا واليابان.

ولقد أدت أعمال هذه الحفائر التي ذكرنا نماذج لها في هذه العجالة إلى الكشف عن العديد من الأبنية الدينية والمدنية ومئات الألوف من الألواح الطينية التي أدت إلى الكشف عن تاريخ وحضارة بلاد النهرين في الميادين المتعددة، كما كشفت أيضاً عن الكثير من نماذج الفنون الصغرى كالحلى والتماثيل الصغيرة والأواني وأدوات الزينة وكذلك التماثيل الضخمة والنقوش والرسوم وغيرها من المقتنيات الأثرية التي تم اكتشافها وتوجد حالياً في الكثير من متاحف العالم.

الموضوع الثانى

عصور ماقبل التدوين والكتابة

تعرض العراق لتغيرات جيولوجية خلال العهود الجيولوجية المتعاقبة فخلال العهد الجيولوجي الثاني الذي يطلق عليه Cenosoic والذي يرجع تاريخه إلى ما يقرب من ٣٠ مليون سنة غمرت أرض العراق بمياه البحر، وخلال العهد الجيولوجي الثالث الذي يطلق عليه Tertiary والذي يمتد من ٣٠ ـ ٥ مليون سنة تقلصت القشرة الأرضية، ونتيجة لتغير القشرة الأرضية ظهرت مرتفعات شاهقة الارتفاع. وخلال العصور الجيولوجية التالية (الأيوسين والميوسين والبلايوسين) حدثت تطورات جيولوجية ومناخية كبيرة في هذه المنطقة نتج عنها ظهور مرتفعات تمتد من الشمال الشرقي للعراق إلى الجنوب والجنوب الغربي. وفي نهاية عصر البلايستوسين وبداية عصر الجفاف ظهرت مرتفعات جديدة في العراق على الحدود الشرقية جنوب جبل حمرين وعلى الحدود الغربية من جبل سنام، وأخذ البحر في الانحسار فظهرت جزر قرب مصبى نهر الكرخا ونهر كارون ووادي البطين والوديان الغربية الأخرى.

وأدى الجفاف إلى تجفيف هذه الجزر التي أخذت أرضياتها تمتلىء تدريجياً بالترسيبات الغرينية الوافدة إليها من مياه الأنهار، مما أدى إلى ظهور أراضي واسعة غنية بالرواسب الطينية في جنوب العراق وجنوبه الشرقي منذ العصر الحجري القديم.

ولقد بدأ الإنسان حياته الأولى جامعاً للطعام وذلك منذ حوالى نصف مليون سنة على الأقل، واتصل الإنسان خلال هنا المرحلة بمختلف مظاهر الحياة المحيطة به من نباتية وحيوانيه وبيئية وحاول التغلب والتكيف مع الصعوبات التي واجهها. واعتمد الإنسان في حياته على الصيد والجمع

والالتقاط، ومن ثم فقد كان كثير التنقل والترحال، وكان يحرص في تنقلاته أن يكون بجوار مصادر المياه. وعلى ذلك فلقد اتجه العلماء في بحثهم عن آثار الإنسان خلال هذه المرحلة إلى مناطق الصحارى والهضاب التي كانت مطيرة خلال هذه المرحلة، وكذلك وديان الأنهار والشواطىء والمدرجات المؤدية إلى المنخفضات والواحات والعيون والآبار وغيرها.

ونظراً لأن الدراسات العلمية لهذه الآثار بدأت في أوروبا فلقد أطلق العلماء على العصور الحضارية المنتمية لهذه المرحلة أسماء أماكن أوروبية وبخاصة فرنسية. وقام العلماء بتصنيف المادة الأثرية حسب التقاليد الصناعية المتبعة في تشكيلها وكميتها ووظيفتها[١].

وسنقوم فيما يلي بدراسة للعصور الحجرية في العراق القديم ونبدأ بالعصر الحجري القديم.

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٠٠.

١ـ العصر الحجري القديم

عثر على آثار العصر الحجري القديم في شمال العراق، أما القسم الجنوبي فإن الوصول إلى مخلفات هذا العصر هو أمر بالغ الصعوبة وذلك نظراً لأن هذا القسم كان مغطى بالمياه.

ويقسم العصر الحجري القديم إلى ثلاث مراحل حضارية رئيسية على النحو الآتي:

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل.

ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط.

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى.

واعتمد العلماء في هذا التقسيم على تطور الأدوات الحجرية التي استخدمها الإنسان خلال هذه المراحل، فلقد كان الحجر هو المادة الرئيسية التي اتجه الإنسان إلى استخدامها لصنع أدواته المختلفة، فلقد أدرك الإنسان منذ هذه العصور المبكرة أهمية الحجر وبصفة خاصة حجر الظران الذي يتميز بتوافره بسهولة في البيئة، كما أنه حجر وحيد التركيب يسهل قطعه إلى شظايا تؤدي وظيفة القطع مما يساعد الإنسان على تحقيق أغراضه المختلفة. واستخدم الإنسان هذه الأدوات الحجرية في كافة مظاهر حياته السلمية والدفاعية. ويلاحظ أنه لم يقتصر على استخدام الأحجار فقط بل استخدم المواد الأخرى المتوافرة في بيئته من أخشاب وعظام وغيرها[١].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠١.

وستناول دراسة هذه المراحل بشيء من التفصيل فيما يلي:

أ ــ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل:

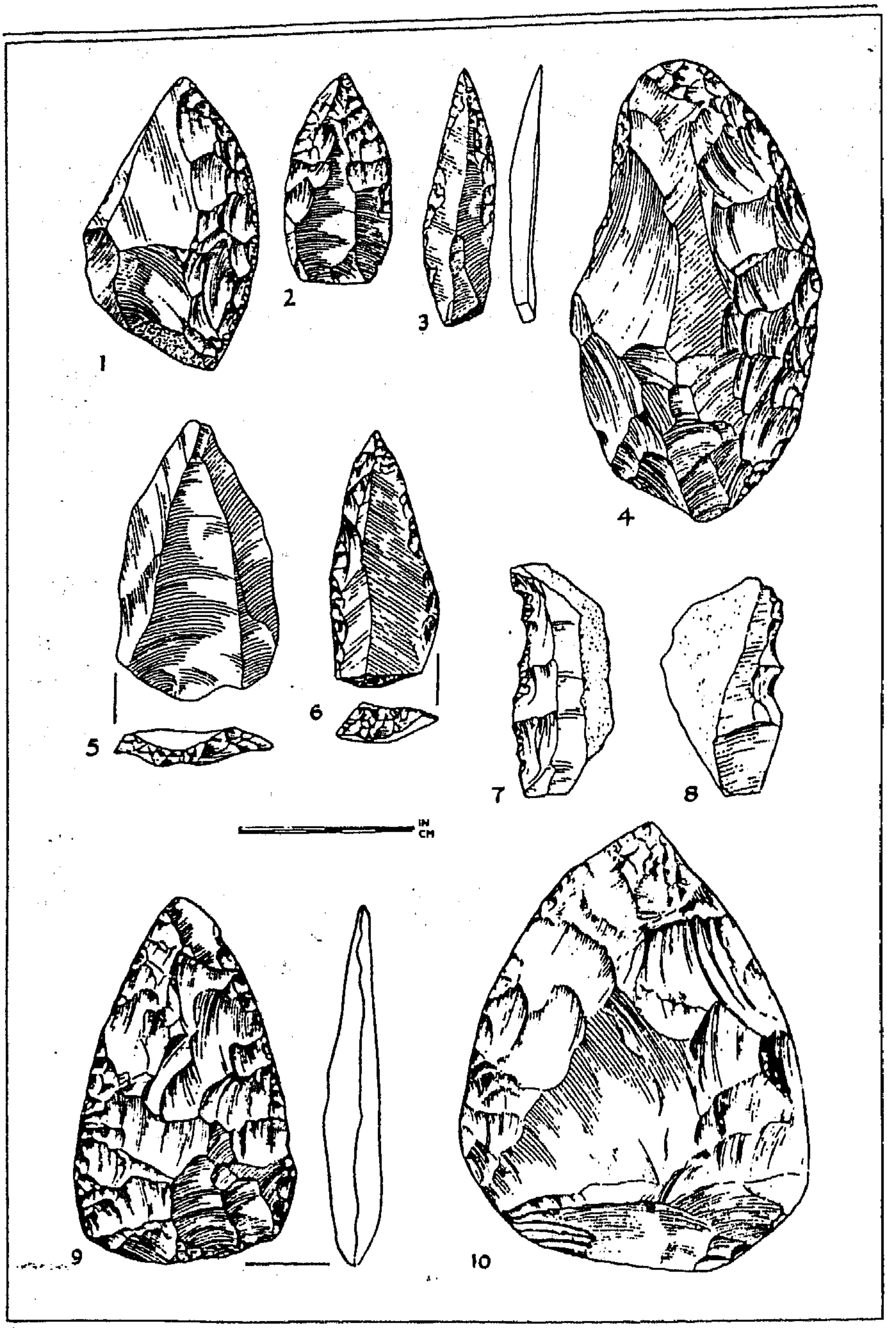
بدأ الإنسان خلال هذه المرحلة المبكرة من حياته في صناعة أولى مبتكراته الإنسانية وظهر هذا الجهد الإنساني الأول في مجال صنع حضارته في صناعة الفأس اليدوي Hand axe أو Coup de Point الذي يعتبر الإنتاج الحضاري المميز لهذه الفترة. شكل (٢١)

وتتشابه الصفات العامة المميزة لهذه الحضارة في عدد كبير من جهات العالم مما يجعل استخدام الاصطلاح الدولي لها ممكناً، فلقد اصطلح العلماء الأوروبيون على تسمية هذه المرحلة باسم الحضارتين الأبفيلية والأشولية وذلك نسبة إلى الأماكن التي عثر على أثار فيها ترجع إلى هذه المرحلة في أوروبا. وبالنسبة للحضارة الأبفيلية فهي تنسب إلى موقع في مدرج لنهر السوم، وكانت تسمى قبل ذلك بالحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المارن، ولكن نظراً لأن الموقع الشيلي وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والأشولية فقد تركت هذه التسمية وأستعيض عنها باسم الأبفيلية[١]. أما الحضارة الأشولية فهي تنسب إلى منطقة سميت باسم القديس أشول عند نهر السوم بفرنسا.

ولقد عثر على آثار هذه المرحلة في العراق في مناطق محدودة تنحصر في سفوح التلال والمنحدرات الوسطى لجبال زاجروس حيث كشف في موقع بردة بلكة[٢] عن أثار هذه المرحلة.

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٤.

(٢) H.E. Wright, and B Howe, «Soundings at Barda Balka» in Sumer, 7, (1951), p. 107 ff.



شكل (٢١) الفؤوس اليدوية

وتقع بردة بلكة في لواء كركوك على هضبة منبسطة على مقربة من شمال شرق جمجال. ولقد تمكنت بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو من الكشف عن أدوات حجرية أهمها فأس يدوية على هيئة كمثرى كانت غالباً ما تستخدم في صيد الحيوانات، ويبلغ طولها حوالى عشرة سنتميرات، وهي تشبه الأدوات الحجرية التي عثر عليها في سانت آشل بفرنسا والتي أصبحت نموذجاً عالمياً لما اصطلح على تسميته بالعصر الحجري القديم الأسفل، وهي تمثل أقدم ما استخدمه الإنسان من أدوات حجرية في العراق القديم، ويوجد بالمتحف العراقي في الغرفة الأولى منه نماذج كثيرة من هذه الأداة. ولقد ضم هذا الموقع أيضاً أدوات حجرية ترجع إلى العصور التالية مثل المكاشط والسكاكين وغيرها[١].

ب ــ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط:

يتميز الإنتاج الحضاري لهذه المرحلة التي تعرف بالنسبة للحضارات الأوروبية بالحضارة الموستيرية نسبة إلى كهف موستييه بفرنسا بصناعة أدوات حجرية مشتقة من الفؤوس اليدوية وهي الشظايا، وتتميز هذه الأدوات الحجرية بصغر حجمها وتنوع أشكالها، وقد صنعها الإنسان بفصلها عن النواة الأصلية لكي تؤدي وظيفة القطع التي أحتاج إليها. شكل (٢٢)

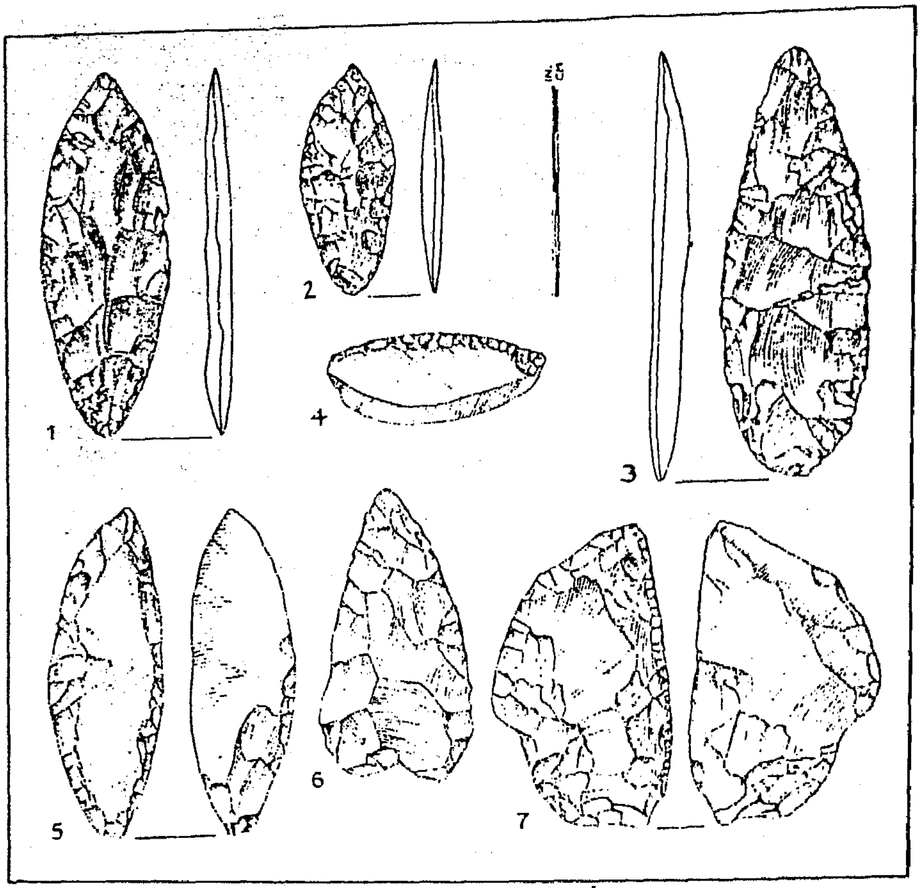
ومن الناحية الاقتصادية فلقد ظل الإنسان خلال هذه المرحلة جامعاً للطعام متنقلاً من مكان لآخر بحثاً عن مصادر رزقه من حيوانات أو نباتات

وقد عثر على المخلفات الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة في عدد من المواقع التي تقع في شمال شرق العراق. ومن هذه المواقع، كهف هزارمرد[٢]، وهو يقع على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر في السفح الشرقي من جبل برناند الذي يشرف على سهل سنجار على بعد حوالى ثمانية كيلومترات

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) D.A E. Garrod, «The Palaeolithic of Southern Kurdistan» in Bull. A.S P R., 6, (1930), p. 13 ff.



شكل (٢٢) الشظايا الحجرية

من قرية هزار مرد ويبلغ عمق الكهف حوالى ٣٠ متراً ويتراوح عرضه بين ١١، ١٢ متراً، أما ارتفاعه فيبدأ من خمسة أمتار عند المدخل.

وتنقسم طبقات الكهف إلى ثلاثة أقسام، وعثر على آثار العصر الحجري القديم الأوسط أسفل المخلفات الأثرية لهذا الكهف ويتراوح سمك طبقتها بين ٥٠ سم عند المدخل و ٣٩٠ سم عند الوسط، وعثر في هذه الطبقة على شظايا من الصوان كالمكاشط والقاطعات والمثاقب والسكاكين، وهي تشبه الأدوات

الموستيرية التي تؤرخ من ٥٠,٠٠٠ سنة إلى ٣٠,٠٠٠ سنة.

ومن المواقع الهامة التي ترجع إلى هذه المرحلة أيضاً كهف شانيدار[١] وهو يقع على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر في السفح الجنوبي لجبال زاجروس على بعد قريب من قرية شانيدار بلواء أربيل ويبعد عن نهر الزاب الكبير بحوالى ميل، ويبلغ ارتفاع مدخل الكهف ثمانية أمتار وعرضه خمسة وعشرين متراً، وعمقه أربعين متراً، وعرضه من الداخل ٥٣ متراً، وارتفاع سقفه حوالى ١٤ متراً.

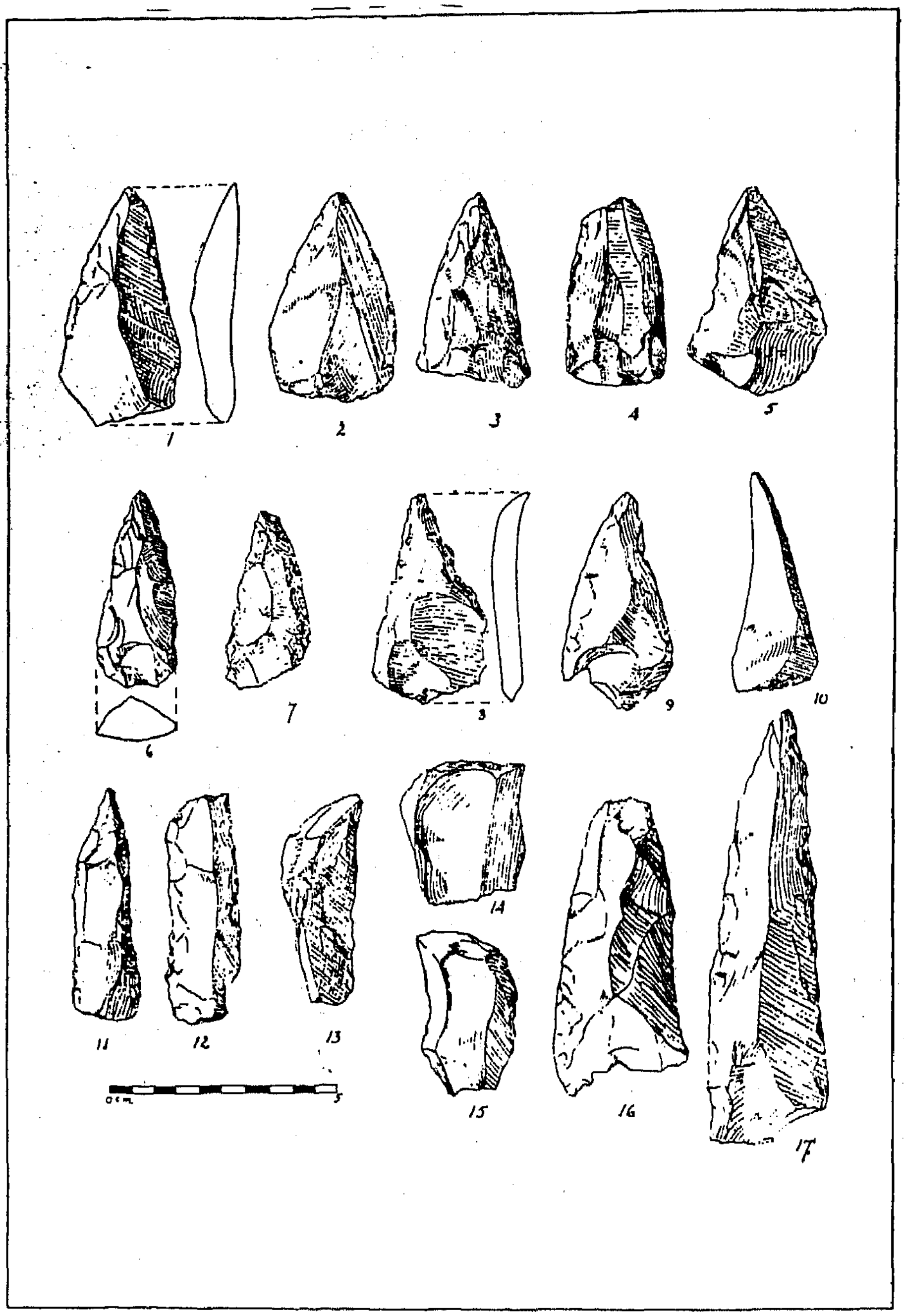
وقامت بالعمل في هذا الموقع جامعة ميتشجان عام ١٩٥١ م. وأسفرت عمليات الكشف الأثري لطبقات الكهف عن تحديد أربع طبقات أثرية أعطيت الأحرف ABCD. ويلاحظ وجود بعض الاضطراب في الطبقة C ناتج عن كميات ضخمة من الصخور والأحجار الناتجة عن الحفائر. وتتميز هذه الطبقات عن بعضها في إنتاجها الحضاري وتحتوي أعلى هذه الطبقات وهي الطبقة A على أواني فخارية وبعض المخلفات الأثرية التي ترجع إلى العصور التاريخية وكذلك أيضاً آثار ترجع إلى الفترة السابقة للعصر التاريخي، ويوجد أسفلها آثار ترجع إلى العصر الحجري الحديث. أما الطبقة B فتحتوي على آثار ترجع إلى العصر الحجري الوسيط. وتحتوي الطبقة C على أدوات حجرية تشبه أدوات العصر الحجري القديم الأعلى، أما الطبقة D فهي تحتوي على أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم الأوسط.

وعثر في الطبقة D على أدوات مصنوعة من حجر الصوان وهي عبارة عن فؤوس يدوية وسكاكين ومكاشط. شكل (٢٣) وعثر فيها على عظام حيوانات وأثار لمخلفات استخدام النار وبعض الهياكل العظمية الإنسانية، بينها هيكل عظمي لطفل عثر عليه على عمق ٢٦ قدم من سطح الكهف[٢].

---

(١) يطلق عليه في اللغة الكردية التسمية شقافة مازين شانيدار وهي تعني كهف شايندار الكبير.

(٢) R.S. Solecki, «A Paleolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq. Report on a Sounding at Shaindar Cave», in Sumer, vol. 8 no. 2 (1952), p. 127 ff., vol. 11, 1955, p. 14 ff.



شكل (٢٣) شظايا من كهف شانيدار

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى:

تمثل هذه المرحلة نهاية العصر الحجري القديم، ولقد تبلورت فيها تجارب الإنسان الطويلة وخبراته خلال المراحل السابقة، وتتميز هذه المرحلة بظهور صناعة حجرية جديدة هي صناعة الأسلحة النصلية، وهي عبارة عن أدوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الإنسان من صنعها بصورة تفوق دقة عن مجهوداته السابقة، وهي تعرف باسم «الأسلحة الميكروليثية» أي الحجرية الدقيقة أو الأسلحة القزمية.

ومن المواقع التي عثر فيها على مخلفات أثرية ترجع إلى هذه المرحلة كهف زرزي Zarzi، وهو كهف صغير يبلغ طوله حوالى ثمانية أمتار وارتفاعه ٢,٢٥ متراً، وهو يقع غربي سرداش التي تبعد خمسين كيلومتراً من شمال غربي السليمانية، وتنقسم طبقات هذا الكهف إلى ثلاث طبقات ABC وبالنسبة للطبقة A فيبلغ سمكها خمسين سنتيمترا، وبقاياها الأثرية متأخرة، والطبقة B ويكثر فيها الأدوات الصوانية وهي التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى، أما الطبقة C فهي قليلة المخلفات الأثرية[١].

وتتميز الأدوات الحجرية التي كشف عنها في كهف زرزي بتفوق ملحوظ في تقنية الصناعة ووفرة الأدوات التي عثر عليها وتنوعها، فهي تتضمن الأزاميل والنصال المسننة ورؤوس السهام، ويلاحظ أن بعض هذه الأدوات تتميز بصغر حجمها وتتضمن بعض الأسلحة القزمية مما يرجح أن هذا الإنتاج الحضاري يمثل المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأعلى. ولقد أثبت استخدام طريقة الراديو ـ كربون في التقويم الزمني أن المخلفات الأثرية لموقع زرزي أقدم من المخلفات الأثرية المنتمية إلى الحضارة التطوفية[٢].

وتحتوي الطبقة C في كهف شانيدار على الأدوات الحجرية التي ترجع

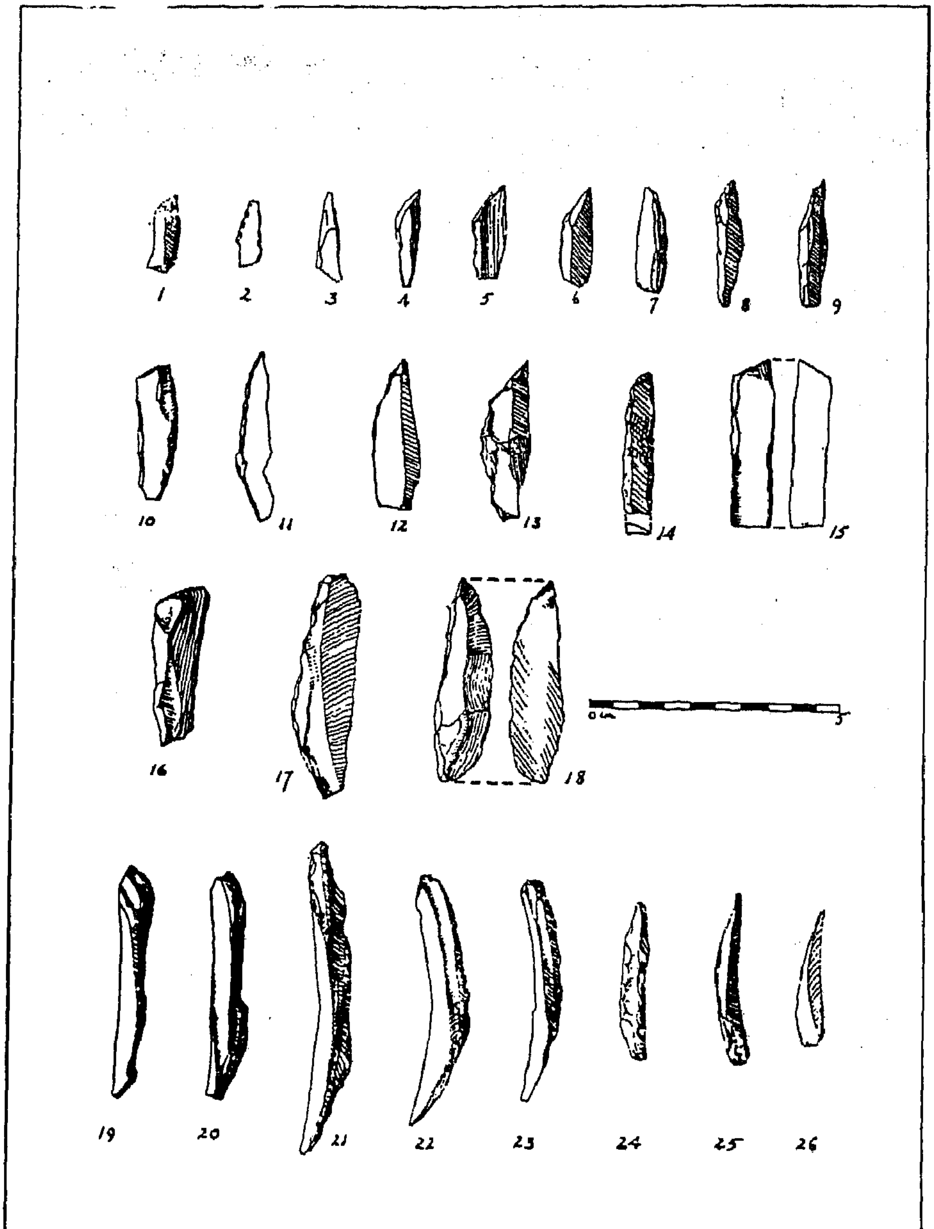
---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) D.A.E. Garrod, op. cit., p. 89.

إلى هذه المرحلة. شكل (٢٤) وعثر في هذه الطبقة أيضاً على عظام حيوانية[١]. وتؤرخ هذه المرحلة بحوالى ٢٩,٠٠٠ سنة ± ١٥٠٠ أو ٢٦,٥٠٠ ± ١٥٠٠ سنة[٢].

(١) R.S. Solecki, op. cit., vol 8, no 2, p. 140 - 141.
(٢) D A.E Garrod, op. cit., p 87.



شكل (٢٤) أدوات قزمية من كهف شانيدار

٢ ـ العصر الحجري المتوسط

انتقل الإنسان من مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى إلى مرحلة العصر الحجري الحديث عبر مرحلة انتقالية تمكن الإنسان خلالها من التوصل إلى المقومات الحضارية الأساسية لمرحلته الجديدة التالية (وهي العصر الحجري الحديث) التي تعتبر نقلة هامة في التاريخ الإنساني فاحترف الإنسان الزراعة واستقر في قرى حيث نمت الحياة الاجتماعية بنظمها السياسية والإدارية وتطورت أساليب الحياة والمعتقدات الفكرية ونمت الفنون والصناعات وتطورت بإيقاع سريع ومنتظم.

ويطلق العلماء على هذه المرحلة الانتقالية التسمية Mesolithic التي تعني العصر الحجري المتوسط وهو يمتد من الناحية الزمنية من حوالى عام ١٠,٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ ق.م. ويتميز الإنتاج الحضاري فيه بكثرة ظهور الأسلحة القزمية، ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الإنسان قد مارس خلال هذه المرحلة حرفة الرعي. وقرب نهايته بدأت في الظهور بعض مظاهر الإنتاج الحضاري المتصلة بالزراعة مثل المناجل والأجران، كما أخذ الإنسان في بناء بعض الأكواخ البيضاوية من أغصان الأشجار، وتشكيل بعض التماثيل التي تعبر عن الأمومة. ويلاحظ أن هذا الإنتاج الحضاري لم يرق في مفهومه تماماً من النواحي المادية والفكرية إلى إنتاج العصر الحجري الحديث، إذ يلاحظ أن الإنسان خلال هذه المرحلة لم يحترف العمل الزراعي بشكل كامل إذ افتقرت مواقعه الأثرية إلى وجود بقايا الحبوب التي تعبر عن احتراف العمل الزراعي، مما قد يرجح أن الأدوات الزراعية التي عثر عليها من هذه المرحلة قد استخدمت في زراعة برية

غير مستقرة، كما لا تعبر أيضاً المواد الهشة التي صنعت منها المنازل عن استقرار كامل بجوار الأرض[١].

ويحاول العلماء البحث عن كيفية حدوث هذه النقلة الخطيرة في حياة الإنسان من مرحلة الجمع والالتقاط والصيد وعدم الاستقرار إلى مرحلة الزراعة وإنشاء القرى وبداية التنظيمات المستقرة. ونظراً لغياب الأدلة الأثرية الكافية الدالة على حدوث هذه النقلة فلقد اتجه الباحثون إلى العديد من الفروض التي قد تؤدي إلى هذه النقلة، ومن هذه الفروض الاعتقاد بأن العامل البيئي كان بمثابة العامل الأول الذي دفع الإنسان إلى إحداث تلك النقلة، فنظراً لاضطرار الإنسان إلى الاتجاه إلى مناطق الأودية والآبار والعيون والواحات ـ وذلك بعد تراجع العصر المطير ـ حيث يستطيع الاستقراربصورة مؤقتة.

ولمس الإنسان في هذه البيئة الجديدة بعض الظواهر التي استلفتت انتباهه وخاصة بعد إطالته نسبياً الاستقرار المؤقت فيها بعد تجواله الطويل في المناطق الجافة. وتنحصر تلك الظواهر في ازدياد منسوب المياه في بعض الأوقات وتهديدها للإنسان الساكن بجوارها، ثم انحسار تلك المناسيب مرة أخرى، ولاحظ تكرار هذه الظاهرة كل عام. ولاحظ الإنسان بزوغ الحياة الزراعية البرية على الشواطىء المطلة على هذه الأودية والعيون والواحات، حيث تنبثق الحياة الزراعية البرية كنتيجة طبيعة لتوافر الثروة الغرينية والمائية بصورة تلقائية وشبه منتظمة ومتصلة بظاهرة مجيء هذه القوى المائية وانحسارها بعد ذلك في أوقات معينة من السنة مما كان له أثره في خلق الوعي التجريبي الكافي لمحاولة تقليد الطبيعة واستئناس الزراعة ونقل حياته من الجمع إلى الإنتاج. ومثل هذا التفسير في حاجة إلى تدعيم بالأدلة الأثرية رغم منطقية إمكانية حدوثه[٢].

(١) محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث ق.م، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

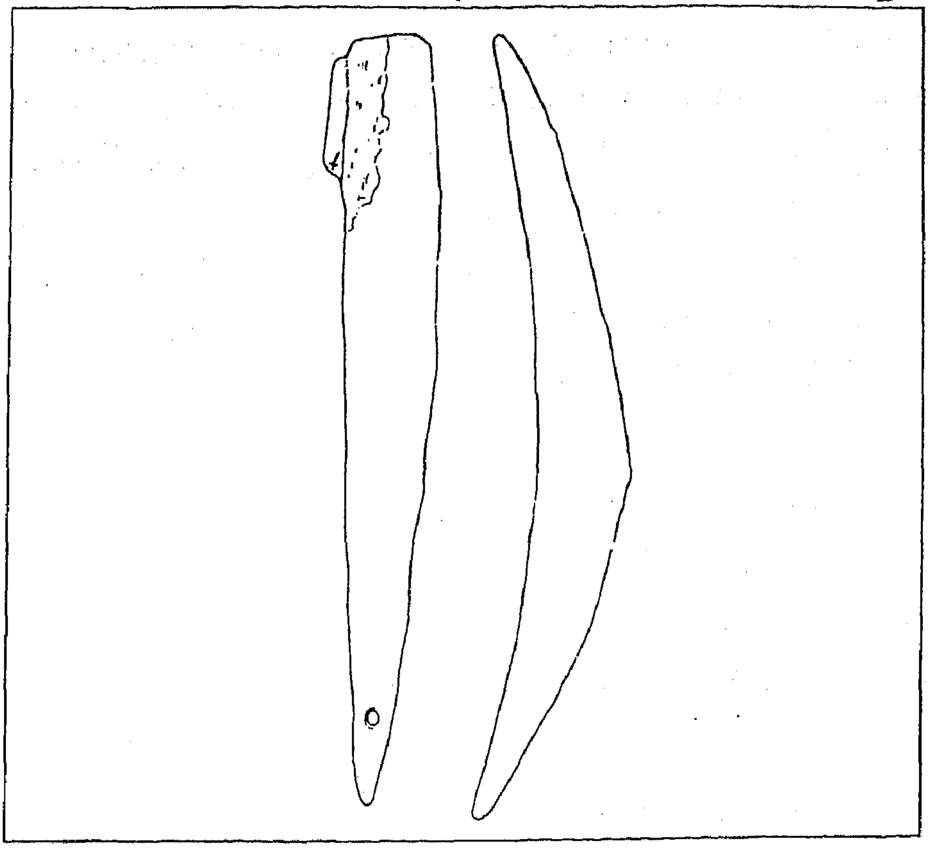
وعثر على الإنتاج الحضاري الخاص بمرحلة العصر الحجري المتوسط في العديد من المواقع العراقية، ومن هذه المواقع، موقع زاوي شيمي Zawi Chemi[1] الذي يبعد عن كهف شانيدار بحوالى أربعة كيلومترات، وتقع قرية زاوي شيمي في منطقة سهلة مكشوفة تحيط بها المرتفعات، وتشغل مساحة محدودة للغاية، إذ لا يتجاوز امتدادها ٢٧٥×٢١٥ متراً. وربما كانت منطقة استقرار فصلية يمضي فيها السكان فترة الصيف، ثم يتنقلون في فصل الشتاء إلى كهف شانيدار المجاور الذي كان يشكل لهم ملجأ أفضل أثناء الطقس الشتوي العاصف.

وتعد قرية زاوي شيمي من أقدم مناطق الاستقرار في العراق القديم، إذ يعود تاريخها ـ اعتماداً على الكربون ١٤ ـ إلى أواخر الألف العاشر ق.م أو بداية الألف التاسع ق.م أي حوالى عام ٩٢٠٠ ق.م أو ٨٩٠٠ ق.م. ويعبر إنتاجها الحضاري عن المحاولات الأولى في التوصل للعمل الزراعي وتجهيز الطعام واستئناس الحيوان، وهي المحاولات التي مهدت للمرحلة التالية في العصر الحجري الحديث.

ووجد في قرية زاوي شيمي نماذج من بيوت سكنية بيضاوية ودائرية مصنوعة من الحجارة ومزودة بالمواقد. ولقد كان لهذه البيوت أو الأكواخ طبقات فوقية مصنوعة من الطين والقضب والحصير، وكشف في أرضية البيوت على بعض عظام الحيوانات المستأنسة مما يشير إلى أن الإنسان خلال هذه المرحلة قد اعتمد على صيد واستئناس الحيوانات في غذائه ومن هذه الحيوانات الماعز والأغنام والغزلان والوعول. ورغم العثور في هذا الموقع على بعض الأدوات الخاصة بالزراعة وتجهيز الطعام كالأجران والمطاحن، كما عثر على منجل يبلغ طوله أكثر من ثماني بوصات(شكل ٢٥)، إلا أنه يحتمل أن إنسان هذه القرية كان لا يزال يعتمد في غذائه على النباتات البرية.

---

(١) R.S. Solecki, «Zawi Chemi Shanidar, a post-pleistocene village site in Nothern Iraq» in report of the VI th Intern-Congress on quaternary vol. IV, Warsaw, 1961, p. 405.



شكل (٢٥) منجل حجري من كهف شانيدار

ومن الأشياء اللافتة للنظر خلال هذه المرحلة، أن المخلفات الأثرية لهذا الموقع تشير إلى وجود صلات بينه وبين المناطق العراقية الأخرى البعيدة عنه، فلقد جلب إنسان هذا الموقع الزجاج البركاني من الشمال، كما استورد القار لتثبيت النصال بالمقابض من مناطق تقع إلى الجنوب منه بحوالى مائة ميل[١].

(١) جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دمشق، ١٩٩٠، ص ٢٧.

ويعتبر موقع كريم شاهر Karim Shahr من المواقع الهامة التي ترجع إلى هذه المرحلة، ويقع هذا الموقع في لواء كركوك على بعد كيلومترين في أعلى مجرى مائي تقع عليه جرمو، وقد قامت بعثة أمريكية برئاسة بريدوود بالتنقيب في مساحة نحو ٥٥٠ متراً[١]، وانتهت إلى أن الإنسان الذي عاش في هذا الموقع قديماً سكن كهوفاً وقرى كانت الأكواخ فيها مشيدة من الطين.

وعثر في هذا الموقع على أدوات حجرية كالمعاول والمجارش، وجزء من منجل مصنوع من الصوان، وتشير هذه المخلفات على بداية قيام الإنسان بحصاد الحبوب وجرشها، وقد يشير ذلك إلى بداية استخدام الزراعة.

وكشف في هذا الموقع على بعض الأحجار النفيسة والكماليات مثل الخرز والقلائد المصنوعة من أنواع مختلفة من الحجارة كحجر الستاتيت وحجر البازلت الأخضر وحجر الجير والرخام، بالإضافة إلى العقود المزخرفة المصنوعة من الأردواز والأقراط الحجرية والأساور[٢] شكل (٢٦)

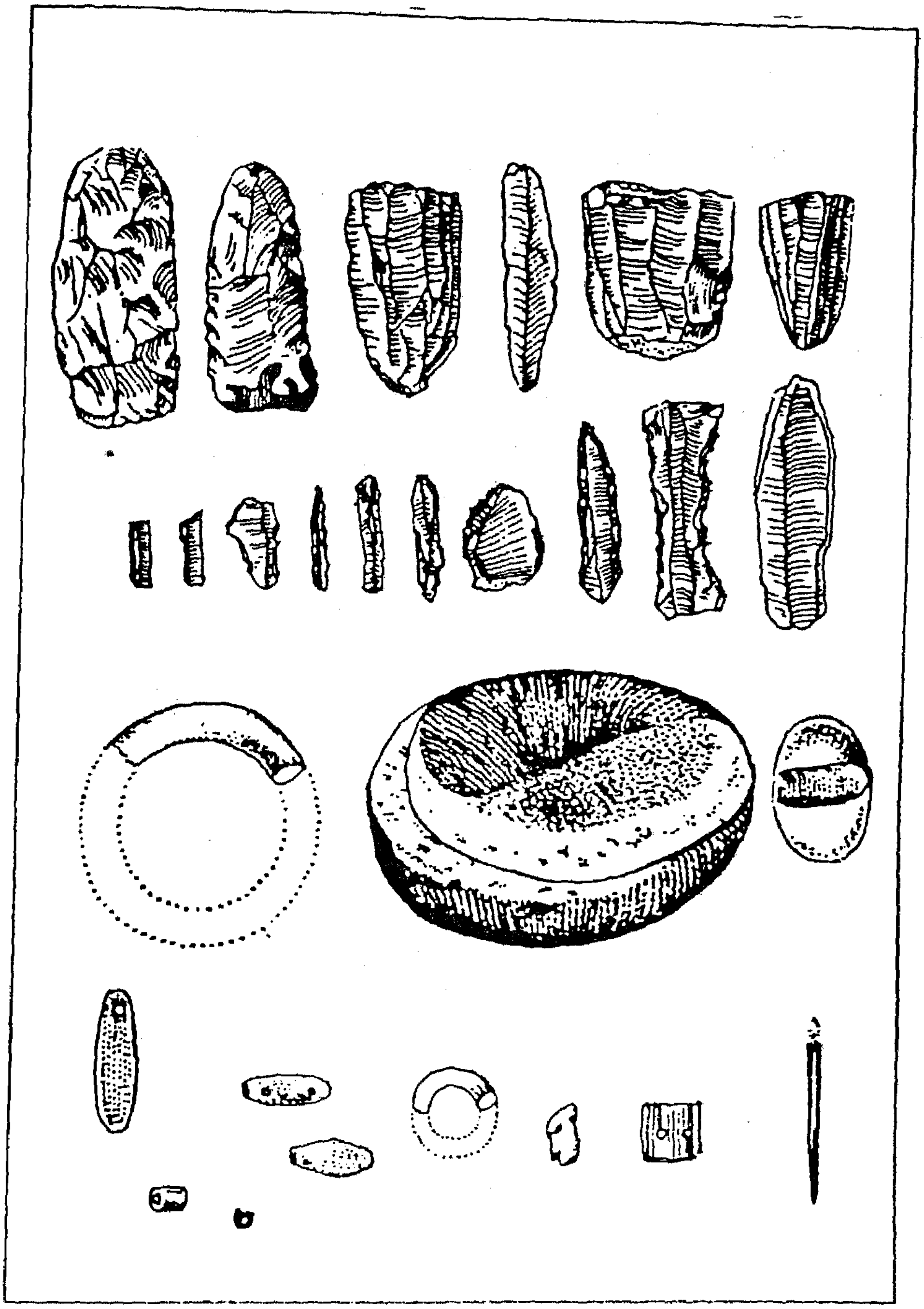
ويؤرخ موقع ملفعات[٣] Mlefaat بنهاية الألف السادس ق.م، وهو يقع في لواء الموصل على مكان مرتفع يشرف على نهر الخازر بالقرب من جسر الموصل ـ أربيل. ولقد كشف في هذا الموقع على العديد من الأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان كالمكاشط والسكاكين وكذلك أدوات ميكروليثية، وتعددت طبقات الاستقرار في هذا الموقع بعضها فوق بعض، ويوضح الإنتاج الحضاري الذي كشف عنه أنه يرجع إلى نهاية مرحلة كريم شاهر، أو أنه مرحلة جديدة له فيما يرى كل من بريدوود R.J. Braidwood وهو B. Howe.

---

(١) R.J. Braidwood, and B. Howe, «Prehistoric investigations in Iraq Kurdistan», in Oriental Institute of the University of Chicago, Series in Ancient Oriental Civilization, Chicago, 1960, p. 52, 170, pls. 22 ff.

(٢) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٣) R J Braidwood, and B Howe, op. cit., p. 50., J. Mellaart, in C.A.H., vol I, part I, p 257.



شكل (٢٦): أدوات حجرية وأدوات زينة من موقع كريم شاهر

٣ ـ العصر الحجري الحديث

كان لنقلة الإنسان من العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث تأثير كبير في تطوره الحضاري، فقد تبدلت خلال العصر الحجري الحديث أساليب عيشه وانتقل من حياة الجمع والالتقاط وصيد الحيوانات والتنقل والترحال إلى معرفة استئناس النبات والحيوان، فقد حرث الأرض وزرعها بحبوب كانت برية في أول أمرها، ولذا فقد اتخذ الإنسان منذ هذا العصر الزراعة حرفة له، وأدى ذلك إلى الاستقرار وظهور المجتمع القروي مما أدى إلى نشأة نوع جديد من تفكير الإنسان وسلوكه في مختلف مظاهر حياته وذلك على أساس المبادىء والأسس التي يقوم عليها المجتمع الجديد.

وكان الإنتاج الزراعي في أول الأمر على نطاق ضيق فكانت كل عائلة تنتج ما تحتاجه فقط، كذلك كان كثيراً ما ينتقل الإنسان حينما تستنفذ خصوبة الأرض التي زرعها أكثر من مرة، لأنه لم يكن يعرف طريقة التسميد، وربما كان يترك جزءاً من الأرض بوراً فترة من الزمن لترتاح فيها التربة ثم يعود إليها بعد زمن.

واستغل الإنسان في هذه المرحلة الإمكانيات المتاحة في بيئته في صناعة أدواته وتشييد منازله، فشيد منازله في أول الأمر من الطين المتوفر في بيئته الزراعية، أما أدواته فكانت محدودة، ومن هذه الأدوات الرحى، وهما حجران صلبان بسيطان يوضعان فوق بعضهما ويدار العلوي منهما فتجرش الحبوب، ومن هذه الأدوات أيضاً الفؤوس والمناجل والمحاريث، وغالباً فلقد عرف الإنسان خلال هذه المرحلة الغزل وحياكة الأقمشة، حيث عثر على أقراص

مغازل مصنوعة من الفخار. ويتميز هذا العصر بظهور الصناعات الفخارية التي تعتبر سمة له.

ويلاحظ أن الإنسان خلال هذه المرحلة لم يعرف التخصص في العمل، ولكن من الجائز أنه كان هناك نوع من تقسيم العمل البدائي خصوصاً بين الرجل والمرأة، فكانت المرأة كما يرى البعض هي أول من اكتشف البذور، ومن أجل ذلك قامت هي بالبذر والطحن والطهي والغزل وصناعة الملابس، بينما قام الرجل بالحرث وتربية الحيوان والصيد وإقامة المنازل وصناعة الأسلحة والدفاع.

ومن النظم التي ظهرت في العصر الحجري الحديث الملكية الفردية، وكان لهذا النظام أثره في نشأة العائلة، وقد دفعت زراعة الإنسان المتنقلة اضطراره إلى التوسع والاصطدام بجماعات أخرى، وعلى ذلك فلقد ظهر النزاع على الأرض، وأدى ذلك إلى ظهور نظام المعارك الحربية البسيطة(١).

وكان لاستقرار الإنسان خلال هذا العصر أثره في تطور المفاهيم الفكرية الأولى للإنسان، حيث كشف في مراكز الاستقرار الأولى في العراق عن تماثيل صغيرة تعبر عن آلهة الأمومة، حيث شكلت هذه التماثيل على هيئة امرأة بدينة لها ثدي كبير مبالغ فيه، كما كان لاستقرار الإنسان أيضاً أثره في الاعتقاد بوجود عالم آخر.

ويلاحظ أن أثار المراحل الأولى للعصر الحجري الحديث في العراق توجد في الواحات وفي أعالي الفرات حيث كان يعتمد الناس في ري أراضيهم على الأمطار، فلقد كانت الزراعة في الواحات بجوار الآبار أسهل من الزراعة على مياه النهر التي تتطلب من الفلاح تنظيم الري وإقامة السدود، ومن أجل ذلك، فإنه يرجح أن الإنسان قد تعلم مبادىء الزراعة في مناطق الواحات والمناطق المرتفعة حيث تكثر الأمطار، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك إلى الوديان

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

الكبرى، وعندما تكون اليابس في جنوب العراق اتجه إليه الإنسان بعد ذلك مدفوعاً بحالة الجفاف الذي أخذ في الازدياد في مناطق الشرق الأدنى القديم، ومن ثم فقد اتجه الإنسان إلى وادي الرافدين وهو مزود بخبرات في الزراعة والري واستئناس الحيوان وصناعة الفخار.

ويتمثل بداية العصر الحجري الحديث في العراق في العديد من المواقع الأثرية التي عثر على مخلفات هذا العصر الأثرية فيها، ونظراً لعدم معرفتنا بأسمائها القديمة، فلقد سميت مراحلها الحضارية بأسماء قراها الحديثة، ومن هذه المواقع الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة جرمو وتل حسونة.

حضارة جرمو: Jarmo

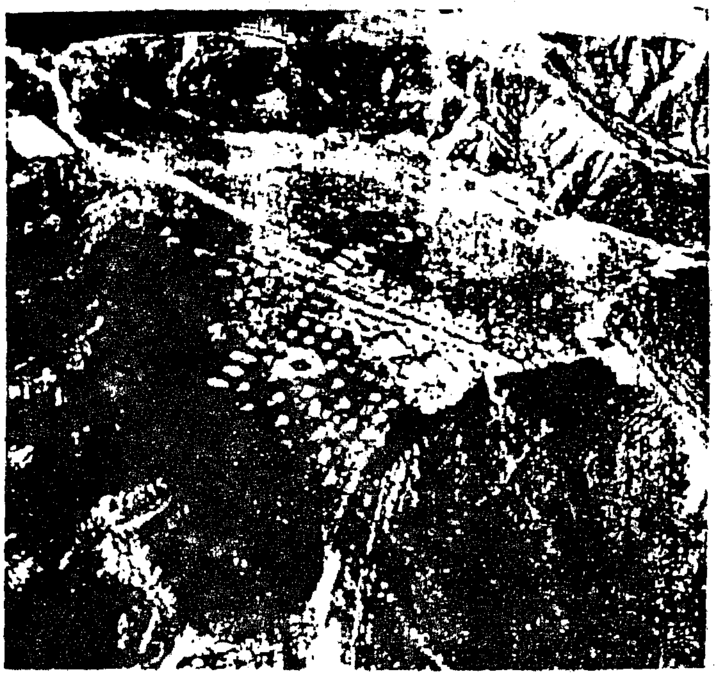
تقع جرمو شرق كركوك على حافة وادي عميق في سهل شيمشمال، في منطقة كردستان العراقية، ويعرف هذا الموقع الآن باسم «قلعة جرمو»[1]. وتشغل قرية جرمو مساحة صغيرة لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أفدنة فقط، وهي أصغر بكثير من القرى المعاصرة لها إذ تبلغ مساحة قرية جريكو (اريحا) حوالى عشرة أفدنة. ويحتمل أنها لم تحتوي أكثر من خمسة وعشرين منزلاً، وقدر عدد سكانها بحوالى مائة وخمسين فرداً فقط[2] **شكل (٢٧)** وإن رأى طه باقر إلى أن موقع جرمو كان يضم خمسين منزلاً عاش فيها حوالى ثلاثمائة شخصاً[3].

ويتكون موقع قرية جرمو التي تعتبر من أقدم قرى العصر الحجري الحديث في العراق من ست عشرة طبقة أثرية تمثل مراحل تطور هذه الحضارة. ويلاحظ أن الطبقات الخمس العليا فقط هي التي يوجد فيها صناعات فخارية وذلك منذ حوالى عام ٥٨٠٠ ق.م فقط.

(١) R.J. Braidwood, and B Howe, op. cit. p 38 ff, 170 f., pl 14 ff.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 258.

(٣) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول، تاريخ العراق القديم، بغداد، ١٩٥٥.



شكل (٢٧): موقع تل جرمو

ومن الناحية الزمنية فإنها تؤرخ اعتماداً على طريقة الراديو كربون بحوالى ٦٧٥٠ ق.م، ويرجح بريدوود أن هذه القرية قد شغلت فترة قصيرة من الزمن قبل وبعد العصر الحجري الحديث، وأن نهايتها تتزامن مع المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث في أماكن أخرى، وأن هذه الفترة لا تتعدى أربعمائة عام[١].

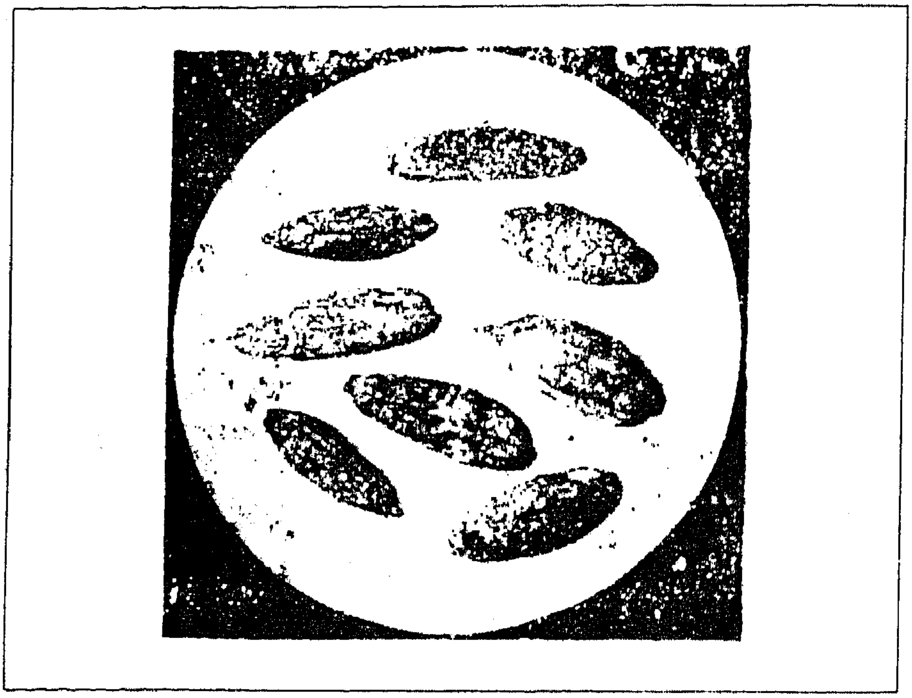
وتوضح البقايا الأثرية في موقع جرمو توصل الإنسان في هذه المنطقة لأول مرة إلى استئناس الزراعة، وأن هذه القرية قد اعتمدت في اقتصادها على

---

(١) R.J. Braidwood, «The Iraq - Jarmo Project», in G.R. Willey (ed.), Archaeological Researches in Retrospect, Cambridge 1974

الإنتاج الزراعي وليس حصاد النباتات البرية فقط، فلقد عثر على حبوب القمح التي تشبه القمح البري من جهة الشكل والمظهر كان موجوداً مع نوع آخر يدعى Einkorn، كما كشف عن نوع من الشعير يشبه سلفه الشعير البري إلى حد كبير. وكشف أيضاً عن بقايا حبوب البازلاء والعدس والفستق والبلوط[1] (**شكل ٢٨**).

وتمكن الإنسان في جرمو من استئناس الماعز وربما الكلاب أيضاً، ويرجح أيضاً أنه قد استأنس الخنزير أيضاً. ولكن لا توجد أدلة على استئناسه للأغنام والماشية التي كان يقوم بصيدها مع الغزلان والخنازير البرية.



شكل (٢٨) حبوب قمح متكربنة من جرمو

(١) جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دمشق ١٩٩٠، ص ٦١ ـ ٦٢.

وتفوق إنسان جرمو في صناعة أدواته من الحجر، ولقد عثر على العديد من الأدوات المتصلة بالعمل الزراعي مما يؤكد توصله إلى مرحلة الإنتاج الزراعي. وتكونت الصناعات الحجرية بشكل أساسي من الصوان الذي أضيف إليه الزجاج البركاني (الأوبسيديان) الذي تم استيراده من شرق الأناضول[١]، وصنعت منه نصال الأدوات المركبة كالسكاكين والمناجل والنصال المثبتة بواسطة القار إلى مقابض خشبية، وذلك بالإضافة إلى الأدوات القزمية مثل النصال ذات النهايات المائلة أشباه المنحرفات والمكاشط وغيرها. وصنع من الأحجار كذلك المطاحن والهواوين والمدقات والملاعق(شكل **٢٩**).

ونتيجة لاستقرار الإنسان في هذا الموقع، فلقد اتجه إلى صناعة بعض الأدوات الكمالية في حياته، والتي تدل على اتجاهه نحو العناية بمظهره، فصنع العديد من أدوات الزينة، مثل الخواتم والأساور التي صنعها من الرخام والمرمر وحمل الكثير منها زينات منقوشة، كما صنع أيضاً بعض أدوات زينته من العظام مثل الخواتم والخرز وكذلك الدلايات[٢].

ويلاحظ أيضاً أنه كشف في مخلفات هذا الموقع على العديد من المصنوعات الخاصة بالأطفال، فلقد صنع العديد من اللعب الخاصة بهم مثل الكرات الطينية والمخاريط التي صنعت من المرمر.

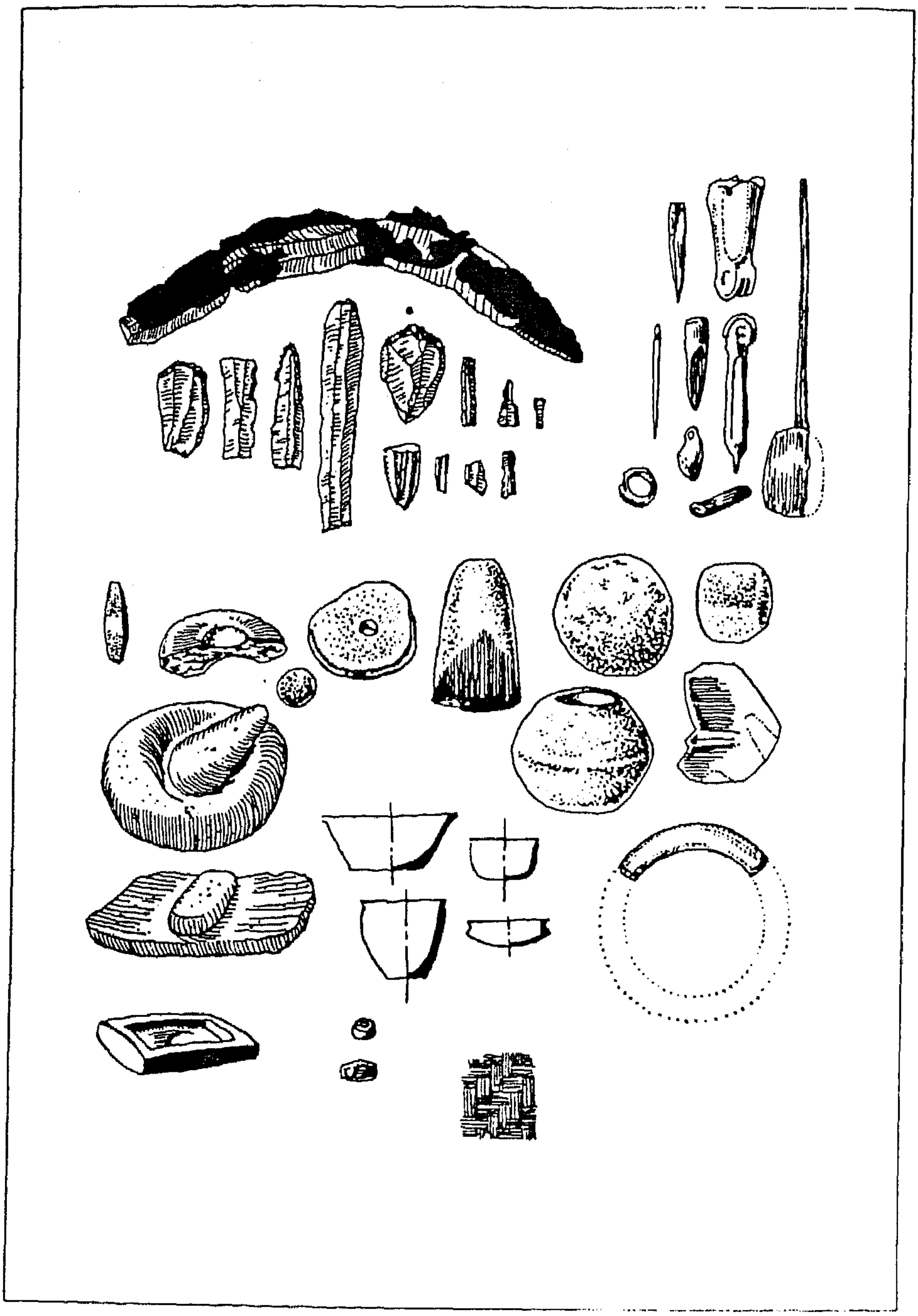
وفيما يتصل بالصناعات الفخارية، فيلاحظ أنها لم تبدأ في الظهور إلا في الطبقات الخمس الأخيرة من الموقع، وربما كان ذلك راجعاً إلى استيفاء الإنسان في المراحل السابقة لحاجياته من الأواني بصناعة الأواني الحجرية الجيدة.

ويلاحظ أن الأواني الفخارية التي عثر عليها في الطبقتين الخامسة والرابعة وهي الأقدم تتميز بأنها أفضل من الأواني التي عثر عليها في الطبقات الثلاث

---

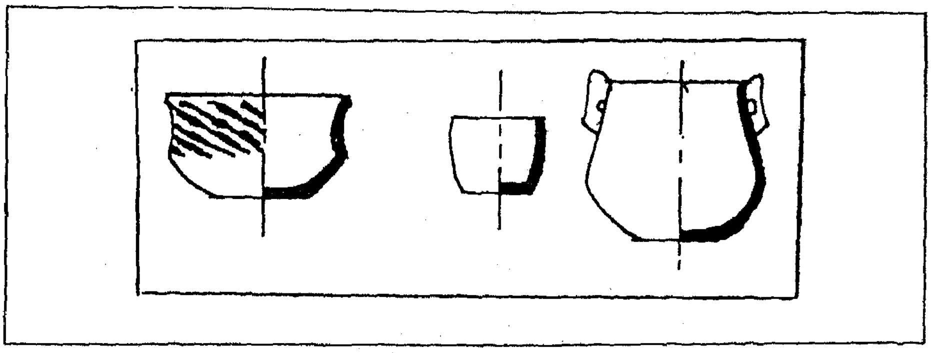
(١) J Mellaart, op. cit., p. 258.

(٢) J. Mellaart, Earliest civilizations of the Near East, London, 1965, pl. 21., J Mellaart, in CAH, vol. I, part I, p. 259



شكل (٢٩) أدوات ومصنوعات حجرية من موقع جرمو

الأخيرة وهي الأحدث عهداً. وزينت هذه الأواني بخطوط حمراء مائلة. (شكل ٣٠) ونظراً لجودة الأواني الفخارية المبكرة التي عثر عليها فإنه يصعب القول أنها من إنتاج محلي بحت، ونظراً لعدم وجود ما يماثلها في المنطقة فإنه يرجح أن تكون مستوردة من الشرق وبخاصة من تبة جوران إلى الجنوب من كرمنشاه بإيران حيث كشف فيها عن أنماط تشبه فخار جرمو الملون[١].



شكل (٣٠) أواني فخارية من حضارة جرمو

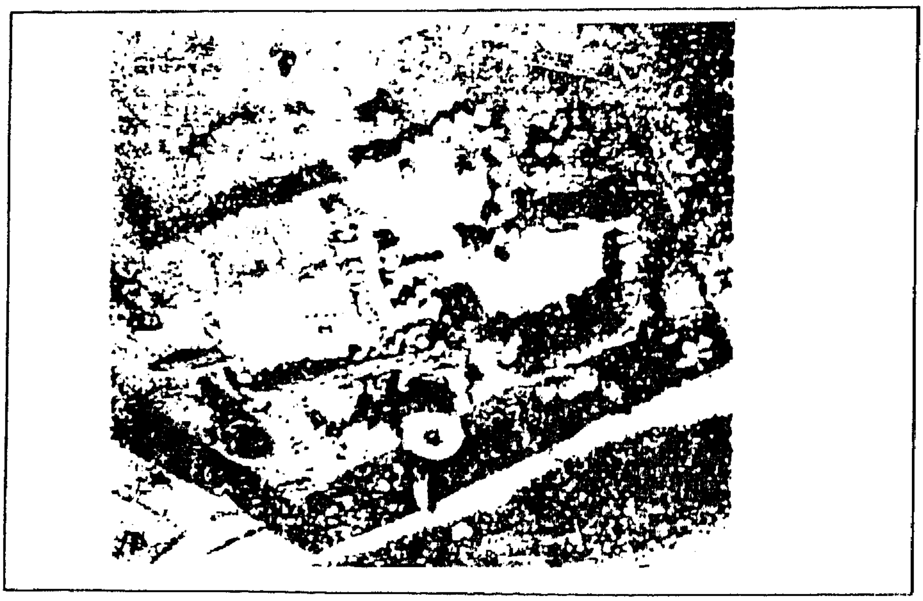
وعاش السكان في أول الأمر في أكواخ دائرية، ثم ما لبثوا، أن شيدوا منازلهم من كتل الطين المكبوس الذي يعرف محلياً باسم (الطوف) وكانت المنازل على هيئة مستطيلة، وبنيت الجدران في الطبقات العليا من الموقع على أساس من الحجر، ويلاحظ أن جدران المنازل قد غطيت بطبقة من الملاط ولكنها لم تلون، أما أرضية الغرف فقد سويت بحصيرة من البوص الذي وضع فوقه طبقة من الطين لتشكيل أرضيات مستوية ناعمة للغرف، وتكونت المنازل من عدد من الحجرات الصغيرة التي لا تتجاوز أبعادها ١,٥×٢ م. وقد صنعت

(١) أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ إيران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث ق.م.، بيروت ١٩٨٨، ص ١١٨.

آسقف المنازل من القصب الذي كان يغطي بطبقة سميكة من الطين شكل (٣١) وكانت نوافذ وأبواب المنازل تصنع من الخشب، وقد تم تثبيتها في الحجارة بحيث تدور عند فتحها وإغلاقها.

وزودت المنازل بحفرات بطنت جوابها بالطين استخدمت كمواقد، ولقد عثر على الكثير من الأواني الفخارية التي كانت تستخدم لتسخين المياه في هذه الحفرة. ويلاحظ أن المنازل الموجودة في الطبقات العليا قد زودت بالأفران والمداخن، وكانت المداخن تمر داخل الجدار مما يدل على تطور في تقنية البناء[١].

ومن الناحية الفكرية والتعبيرية فلقد عثر على حوالى خمسة آلاف قطعة



(شكل ٣١) أساس منزل من العصر الحجري الحديث في جرمو

(١) بورهارد بريتيس: نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق، ١٩٨٩، ص ٣٧.

أثرية تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية «شكل ٣٢» وقد عثر على التماثيل التي تمثل النساء وهن في وضعية الحركة في الطبقات السفلى من الموقع، بينما عثر في طبقات أخرى على تماثيل صغيرة تمثل الكلاب والماعز والأبقار.



شكل (٣٢) تماثيل بشرية وحيوانية من حضارة جرمو.

ومن التماثيل التي ربما تعبر عن نواحي فكرية التماثيل التي شكلت على هيئة امرأة بدينة ضخمة الساقين لها ثديان كبيران بدرجة ملحوظة، كما عثر على ما يشبه العضو الذكري مما دفع إلى الظن بأنهما يمثلان عبادة الخصوبة والرمز لها، وتعتبر التماثيل التي تعبر عنه الألهة الأم من أقدم التماثيل التي صنعها الإنسان بعد استقراره، حيث أدرك قيمة الخصوبة في حياته الزراعية التي تعتمد على خصوبة التربة. ويرجح بعض الباحثين أن لوناً من ألوان التفكير الديني نشأ في هذه المرحلة بقيام عبادة الشمس التي قدست على هيئة معبودة[١].

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٦٠.

حضارة تل حسونة: Tell of Hassunah

سميت بهذا الاسم نسبة إلى تل حسونة الواقع جنوب الموصل الذي عثر فيه أثاريون عراقيون على أولى آثار هذه الحضارة[١] ويقع تل حسونة في غرب نهر دجلة جنوب الموصل بحوالي ٣٥ كيلومتر وشرق قرية الشورة بحوالى ثمانية كيلومترات، ومساحة الموقع صغيرة حوالى ٢٠٠×١٥٠ متراً، ويرتفع التل عن السهل المجاور بحوالى سبعة أمتار، وهو يعد من أقدم المواقع الحضارية في صميم السهل الميزوبوتامي، ويعبر عن انتقال مركز الثقل الحضاري من المنطقة الشرقية إلى هذا السهل[٢].

ويتكون موقع تل حسونة من سبع عشرة طبقة أثرية، يوجد الإنتاج الحضاري الخاص بالعصر الحجري الحديث في الطبقات الخمس الأولى منها، ولقد كشف عن بعض المواقع الأخرى لهذه الحضارة وخاصة في تل الصوان وسامراء. وتؤرخ بداية حضارة حسونة ببداية الألف السادس قبل الميلاد وذلك اعتماداً على طريقة الراديو كربون في التقويم الزمني[٣].

وتوضح المخلفات الأثرية في موقع تل حسونة توصل سكان هذه المنطقة إلى استئناس النبات والحيوان، فلقد كشف في مخلفات المباني على صوامع للغلال وجد فيها بقايا حبوب متكربنة للقمح والشعير وبذر الكتان. مما يشير إلى الإنتاج الزراعي، كما عثر على عظام حيوان مستأنسة مثل الماعز والأغنام، وظل الإنسان خلال هذه المرحلة أيضاً يعتمد على صيد الحيوان حيث عثر على عظام حيوانات برية مثل الغزلان والخنازير والأرانب.

ومرّ فخار تل حسونة بثلاث مراحل من التطور، تمثل المرحلة الأولى منها أقدم النماذج الفخارية التي عثر عليها في العراق القديم، ولقد ظهر هذا الفخار

---

(١) سومر ٢٠ (١٩٦٤)، ٢١ (١٩٦٥).
(٢) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٤ ـ ١٥.
(٣) J. Mellaart, op. cit., p. 272.

في الطبقة الأولى من الموقع[١] وهو مصنوع من مادة طينية غير نقية وكانت صناعته خشنة إلى حد بعيد وكان غير مزخرف (شكل ٣٣) ثم ظهر النوع الثاني من الفخار وهو مزين باللون الأصفر أو القرمزي، وزخرف بواسطة عمل حزوز في شكل تصميمات اتخذت في الغالب شكل سعف النخيل أو سنابل القمح[٢] (شكل ٣٤). وتلى ذلك ظهور الفخار الملون والمزين بأشكال حيوانية وإنسانية وخطوط متموجة، ويعرف هذا النوع الأخير باسم فخار سامراء (شكل ٣٥)[٣] ويلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها الأشكال الطبيعية للحيوانات والبشر في منطقة بلاد النهرين، وتوجد نماذج أكثر تطوراً رسمت في داخل الأواني الكبيرة حيث تتباين الأشكال وتظهر التماثيل البشرية على شكل نقوش بارزة على الأواني[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن فخار سامراء ينسب إلى موقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر دجلة، شمال بغداد بحوالى ١٠٠ كم، ولقد اختلف العلماء حول نشأة حضارة سامراء وهل هي تمثل عصراً حضارياً مستقلاً بذاته أم أنها من أصل إيراني أو أنها امتداد لعصر حضارة تل حسونة وأنها داخلة في نطاقها، وذلك اعتماداً على امتداد حضارة حسونة على طول الطريق غرباً بين نهر دجلة والبحر المتوسط، حيث عثر على فخار حسونة في إقليم العمق وكذلك في مرسين[٥].

وبالإضافة إلى الصناعات الفخارية، فقد كشف عن العديد من الأدوات الحجرية التي تتكون من الأسلحة القزمية ورؤوس السهام والفؤوس الحجرية والمناجل (شكل ٣٦)[٦]، كما عثر في داخل مبنى في تل الصوان I يرجح أنه

---

(١) انظر:

S. Lioyd and F. Safar, «Tell-Hassuna» in JNES, 4, (1945), Fig. 6.

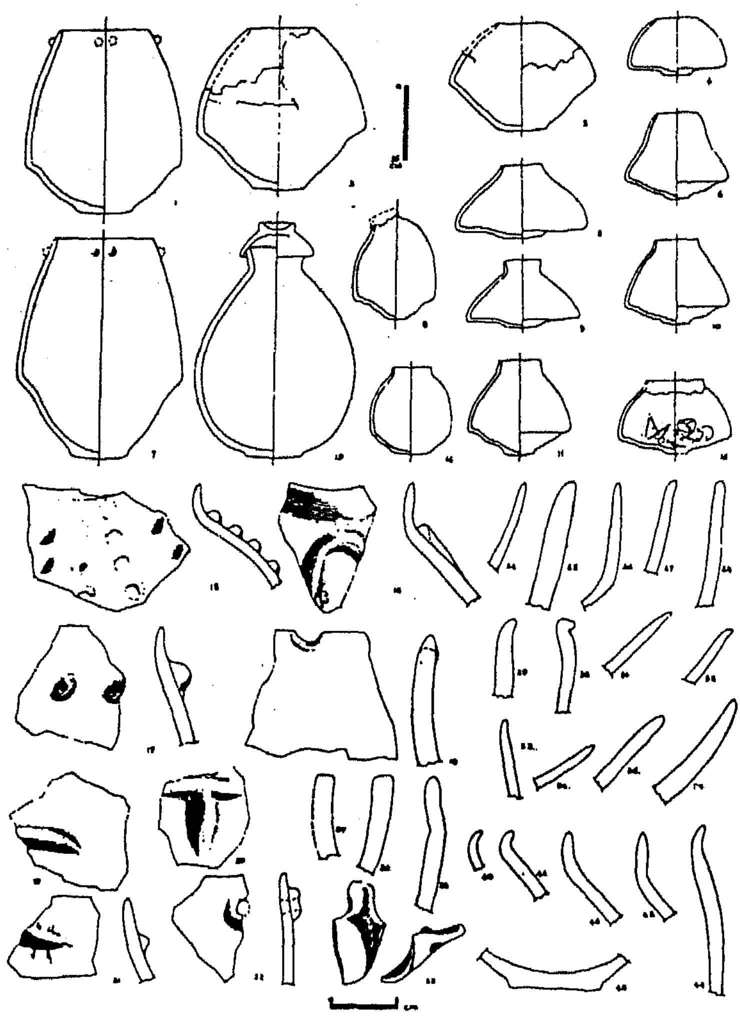
(٢) Ibid., Fig. 4.

(٣) Ibid., Fig. 1.

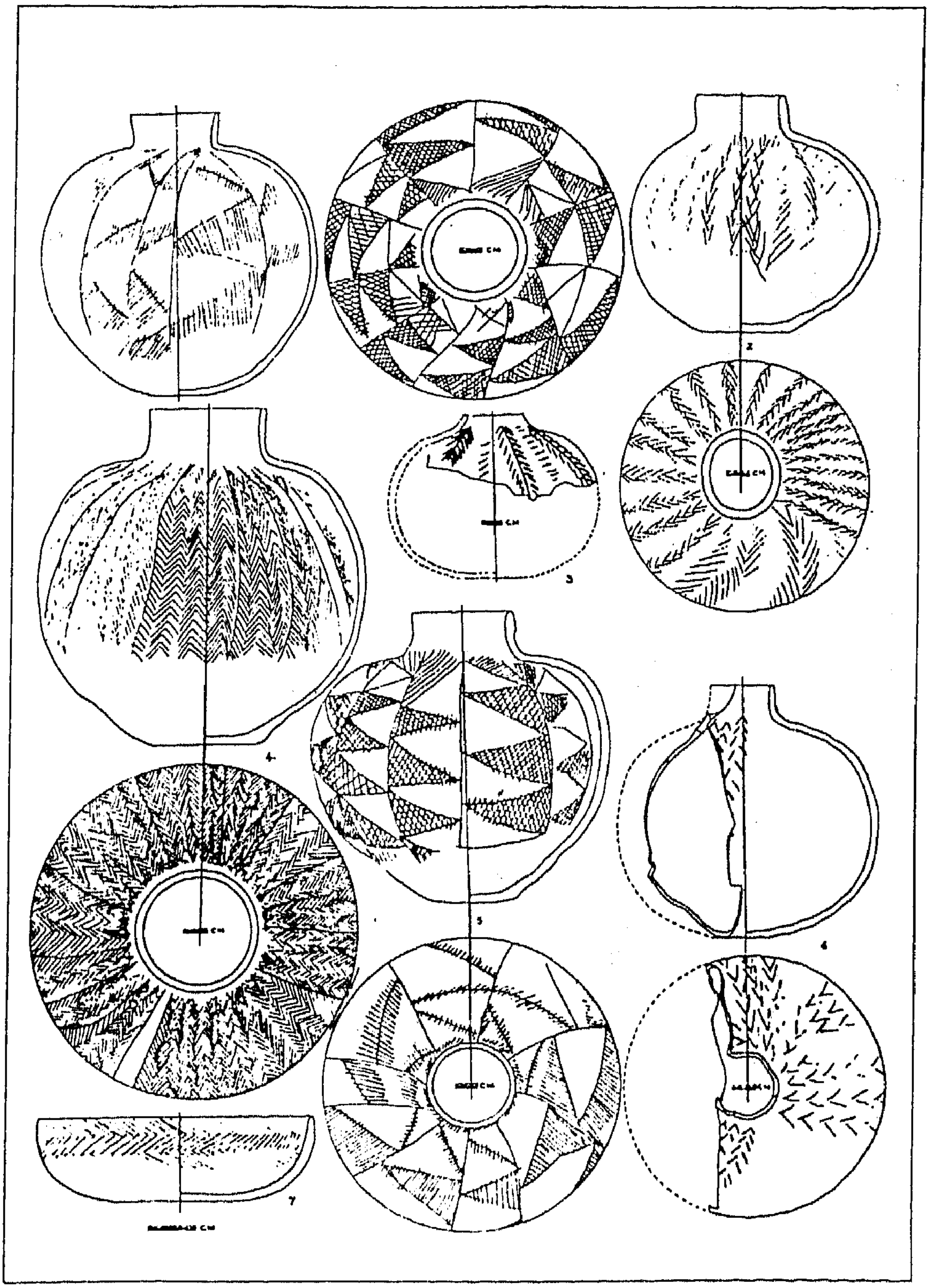
(٤) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ٨٦، شكل ٤٠.

(٥) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨.

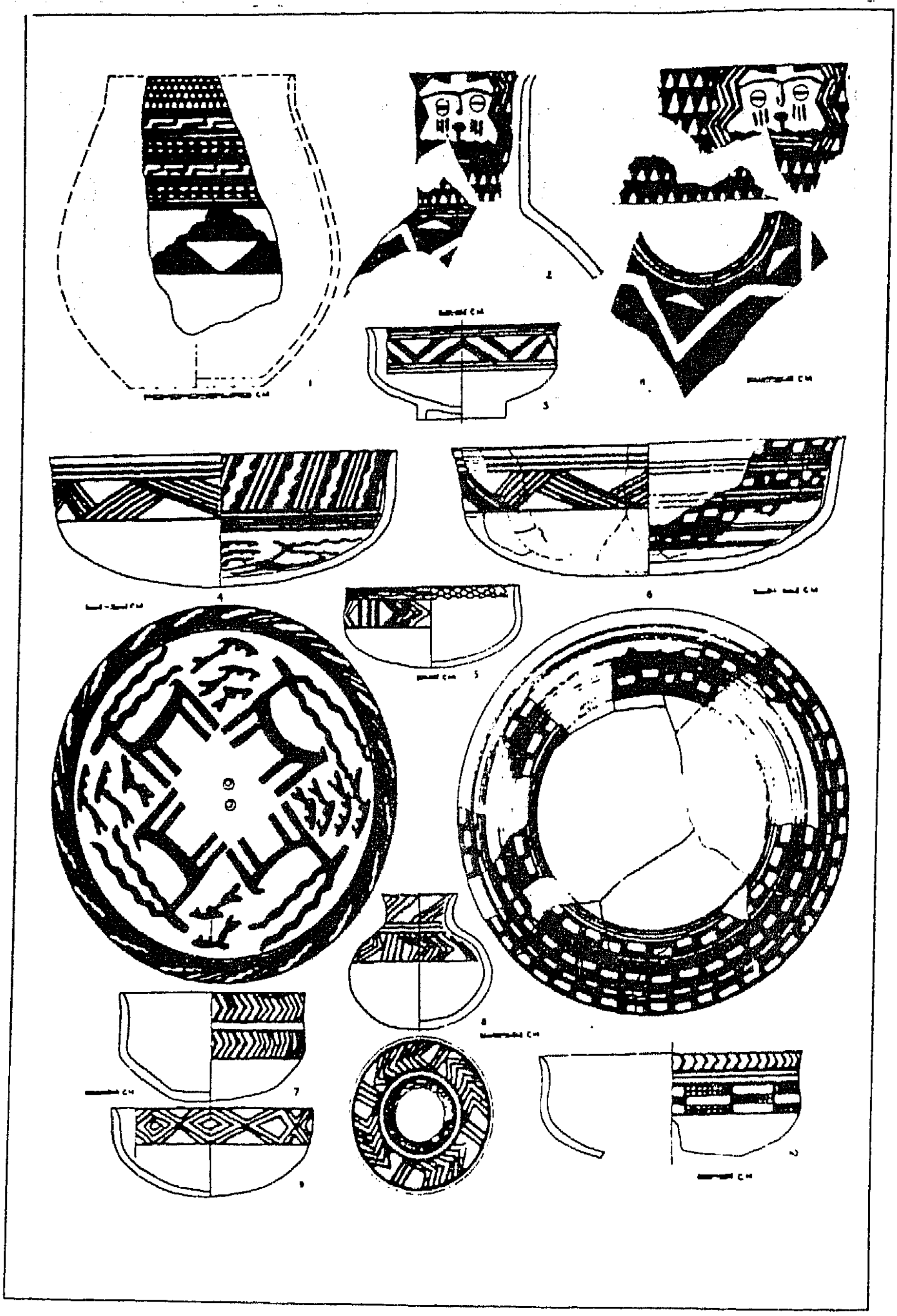
(٦) S. Lioyd, and F. Safar, op. cit., fig. 26.



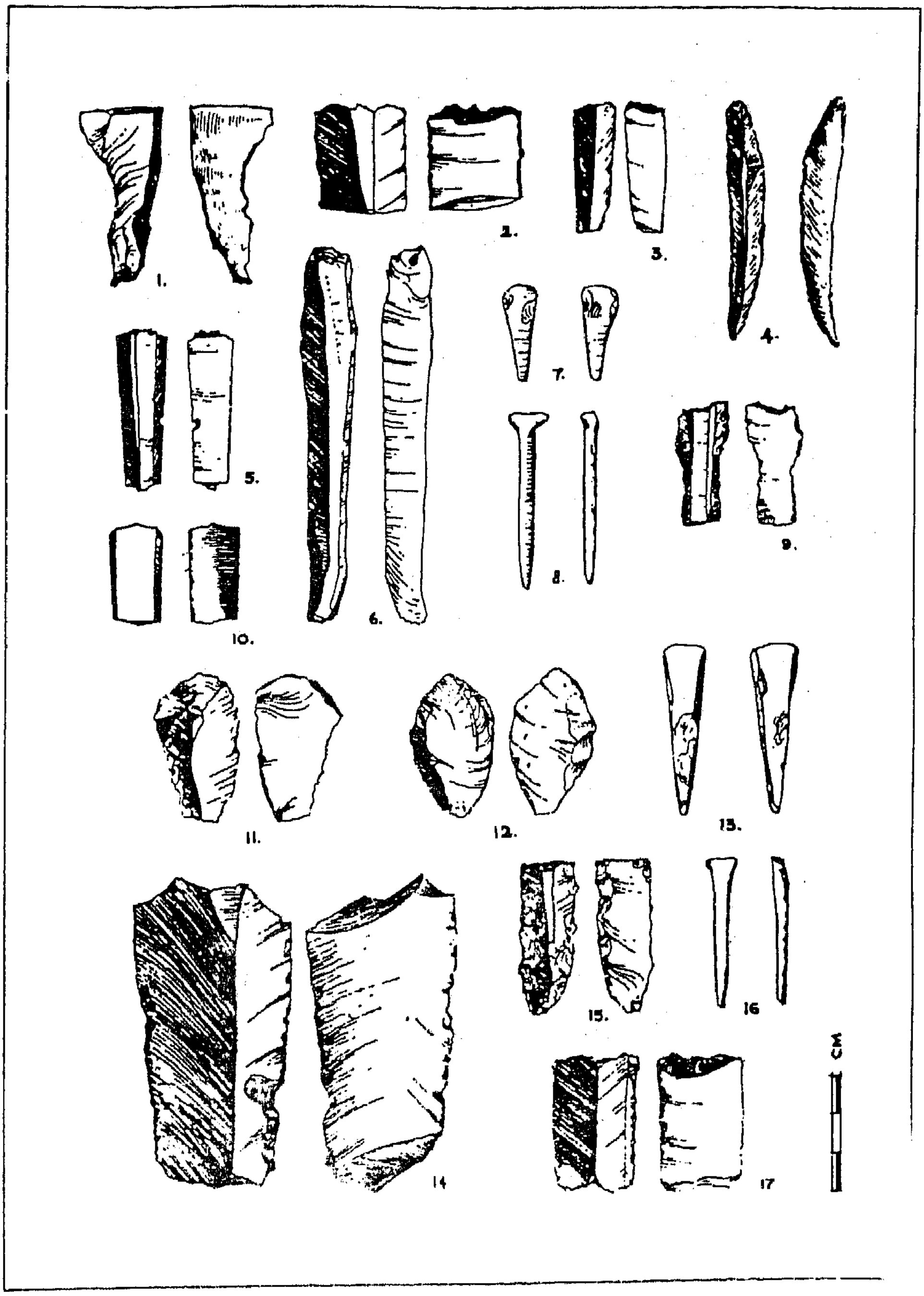
شكل (٣٣) نماذج من فخار تل حسونة المبكر



شكل (٣٤) فخار تل حسونة المزين بحزوز



شكل (٣٥) فخار سامراء



شكل (٣٦) بعض الأدوات الحجرية من تل حسونه

معبد على العديد من الأواني الحجرية، كما عثر أيضاً على كميات كبيرة من الأواني الحجرية أسفل هذه المباني[١] (شكل ٣٧).

وفيما يتصل بالبقايا الأثرية المعمارية، فيلاحظ أن أولى طبقات المرتفعة لا توجد بها أية آثار لمباني، كما أنه لا يوجد بها أية حفر لأعمدة، كما يرجح أن الإنسان خلال هذه المرحلة كان يعيش في خيام. وبدأت تظهر أولى المباني من الطبقة Ib حيث كشف عن حجرة واحدة. ولكن في الطبقة Ic كشف عن عدد كبير من الجدران التي تتفاوت في سمكها ما بين ٢٠ ـ ٤٥ سم، وكانت هذه الجدران إما مستقيمة وأركانها دائرية أو منحنية بخشونة، ويبدو أن هذه المجموعة من الجدر التي كشف عنها تكون ثلاثة بيوت على الأقل. وفي أحد هذه المنازل كانت الحجرات تحيط بفناء في وسط المنزل واحتوت إحدى الحجرات على فرن لخبز العيش وكذلك بعض الأواني لتخزين الطعام والشراب. وشيدت الجدران من كتل طينية غير منتظمة الشكل وذات أحجام مختلفة، وغطيت الجدران بطبقة من الملاط[٢] (شكل ٣٨) .

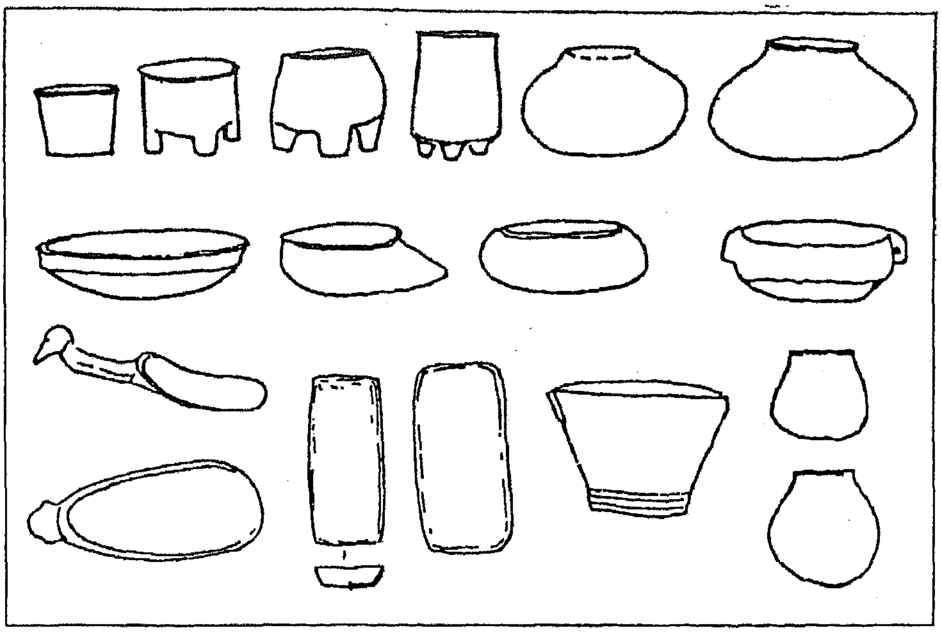
وتوضح مباني الطبقة الثانية في تل حسونة أنها أكثر تطوراً، حيث شيدت من طمي أكثر جودة من المرحلة السابقة، ويلاحظ أن بعض الجدران وصل ارتفاعها حين الكشف عنها إلى حوالى المتر. وكان المنزل يتكون من مجموعة من الحجرات حول فناء، ويوجد في أحد الأركان فرن لصناعة الخبز، وكانت توجد حجرات للتخزين. وعثر في هذه المباني على العديد من الأواني الفخارية والأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان، كما عثر أيضاً على هياكل عظمية آدمية، وكذلك قرن ماعز أو غنم، وكذلك عظام لحيوان صغير، كما عثر على هيكل عظمي لطفل داخل آنية فخارية كبيرة وكان معها آنيتين آخرتين للطعام أو الشراب[٣] (شكل ٣٩) .

---

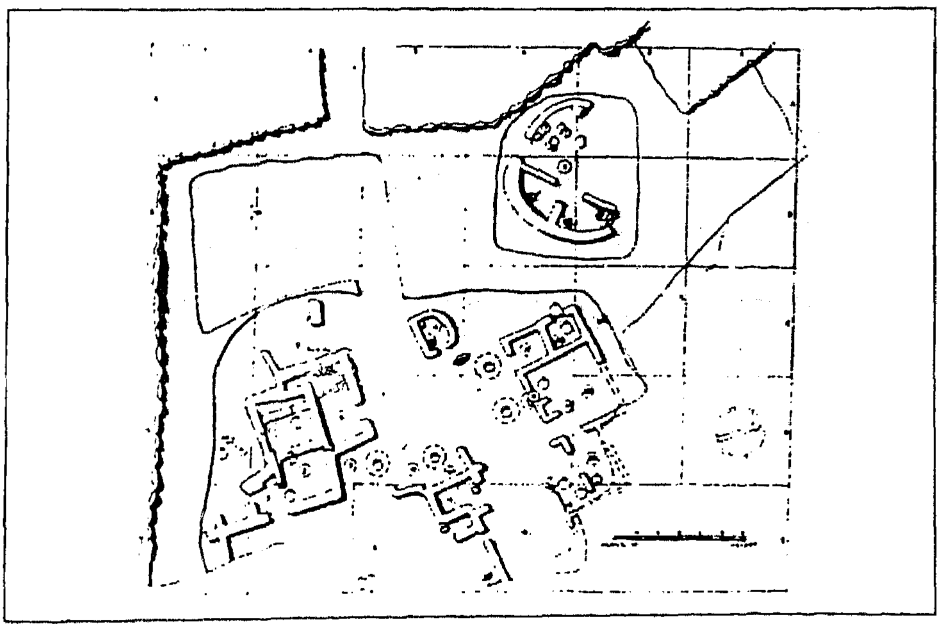
(١) J. Mellaart, op. cit., p. 271, Fig. 20.

(٢) S. Lloyd, and F. Safar, op. cit., pp. 272 - 273, Fig. 28.

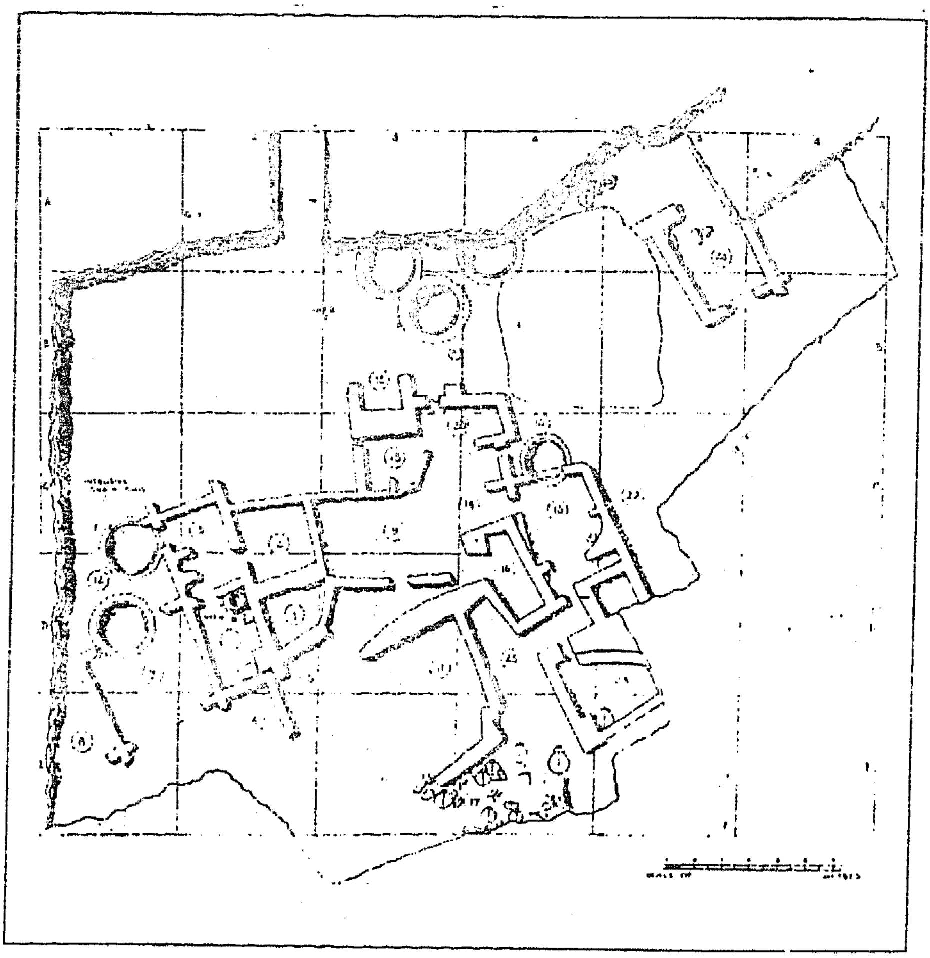
(٣) Ibid., p. 273, Fig. 29.



شكل (٣٧) بعض الأواني المصنوعة من المرمر في تل الصوان



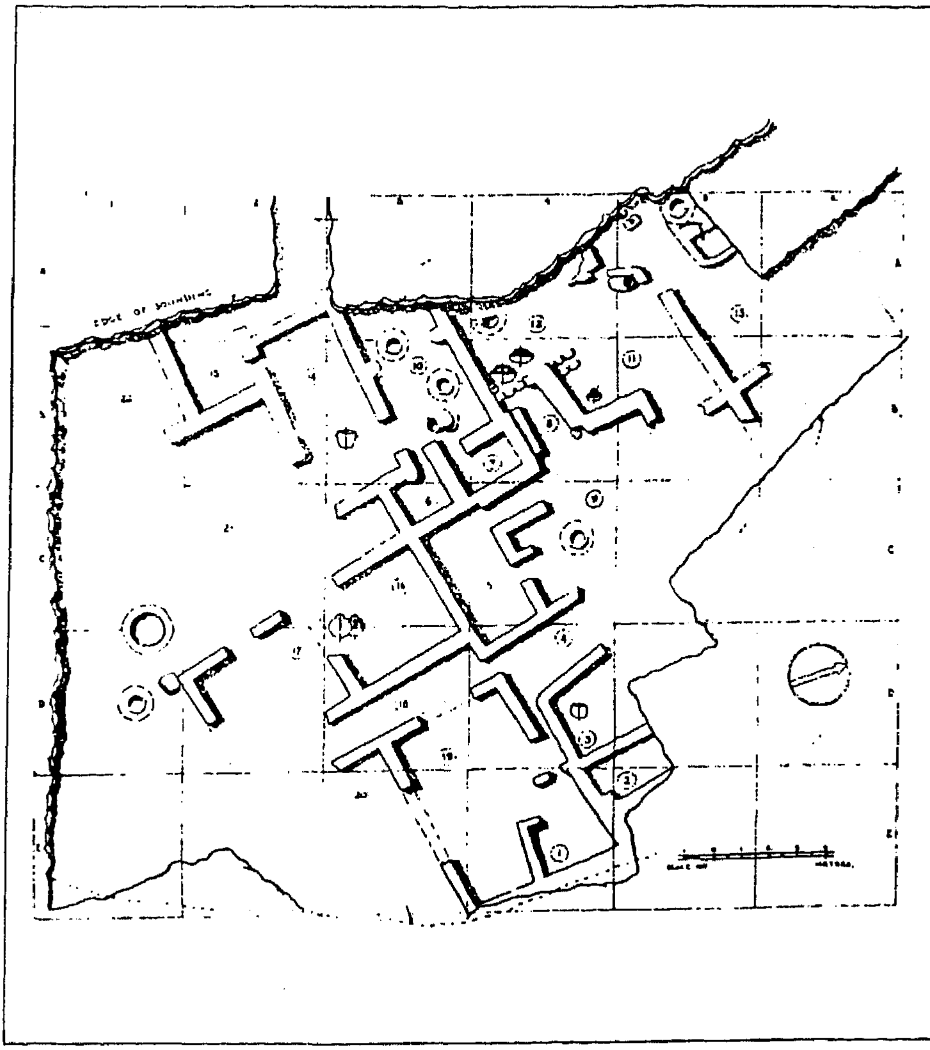
شكل (٣٨) رسم تخطيطي لبقايا المنازل التي عثر عليها في الطبقة Ic في تل حسونة



شكل (٣٩) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الثانية في تل حسونه

وأصبح تخطيط المباني في الطبقة الثالثة من تل حسونة أكثر وضوحاً، فكان تصميم المنازل عبارة عن مجموعة من الحجرات تتجمع حول فناء، وكان يفصل المنازل عن بعضها ممر ضيق. ولقد عثر في إحدى الحجرات على آنية فخارية كبيرة خشنة الصنع يوجد فيها هيكلين عظميين آدميين أحدهما بدون

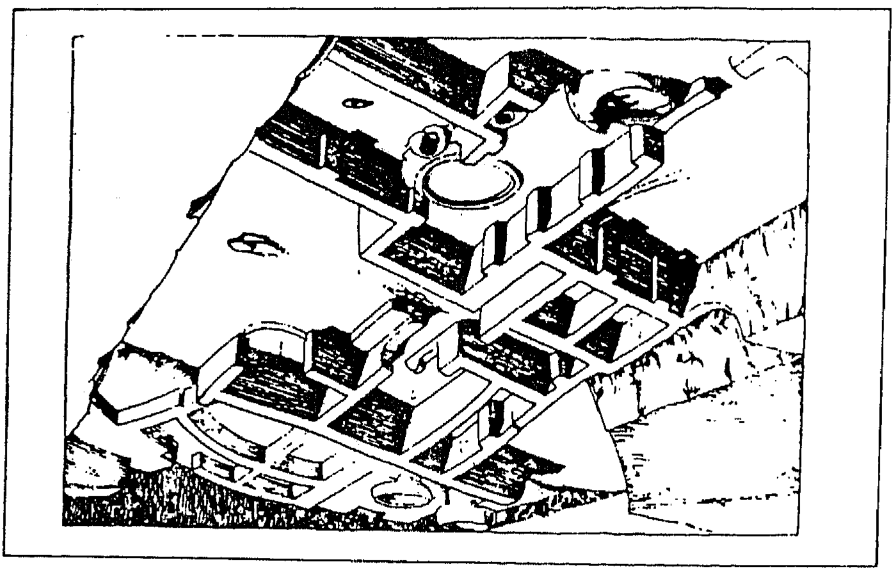
رأس. ولقد عثر في بقايا هذه الطبقة أيضاً على الكثير من الأواني الفخارية[١].
شكل (٤٠)



(شكل ٤٠) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الثالثة في تل حسونه

(١) Ibid., pp. 273 - 274, Fig. 30

ومن أفضل مجموعات المباني التي كشف عنها تلك التي توجد في الطبقة الأثرية الرابعة فهي تقدم لنا صورة مرضية عن شكل القرية في عصور ما قبل الكتابة والتدوين. ولقد أمكن عمل تصور لشكل هذه المنازل شكل (٤١) [١].
ويلاحظ أن أكمل هذه المنازل كان يتكون من ثماني حجرات تتجمع حول فناء.
واحتوى المنزل على فرن لصنع الخبز وأواني فخارية كبيرة لحفظ الأطعمة.



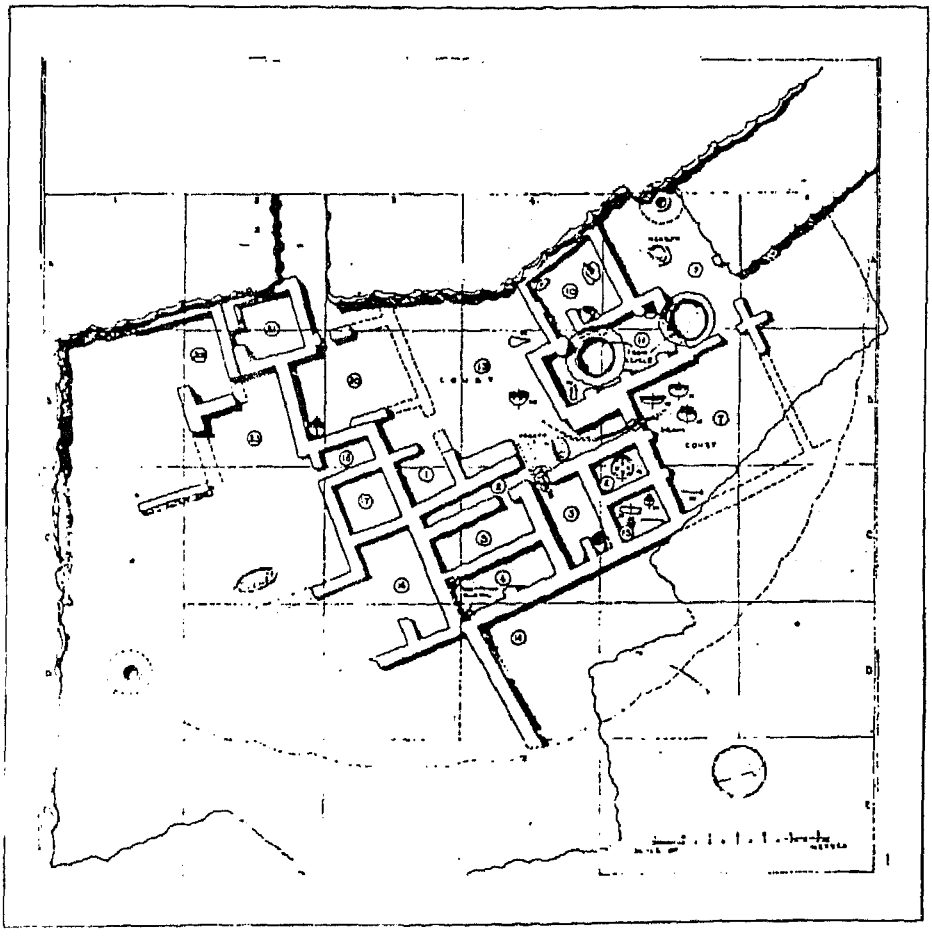
(شكل ٤١) نموذج لمنزل من الطبقة الرابعة من تل حسونه.

ويلاحظ أن الجدران قد بنيت بشكل جيد وهي مستقيمة، وكان سمكها حوالى ٤٥ سم وبقيت بعض جدرانها وقت الكشف إلى ارتفاع يقرب من المتر.
ويلاحظ أن أرضية بعض الحجرات قد عبدت بخليط من الطمي والقش، وكان

(١) Ibid., Fig. 36.

سمك هذه الطبقة أحياناً يصل إلى ثلاثة سنتيمرات. (شكل ٤٢) [١].

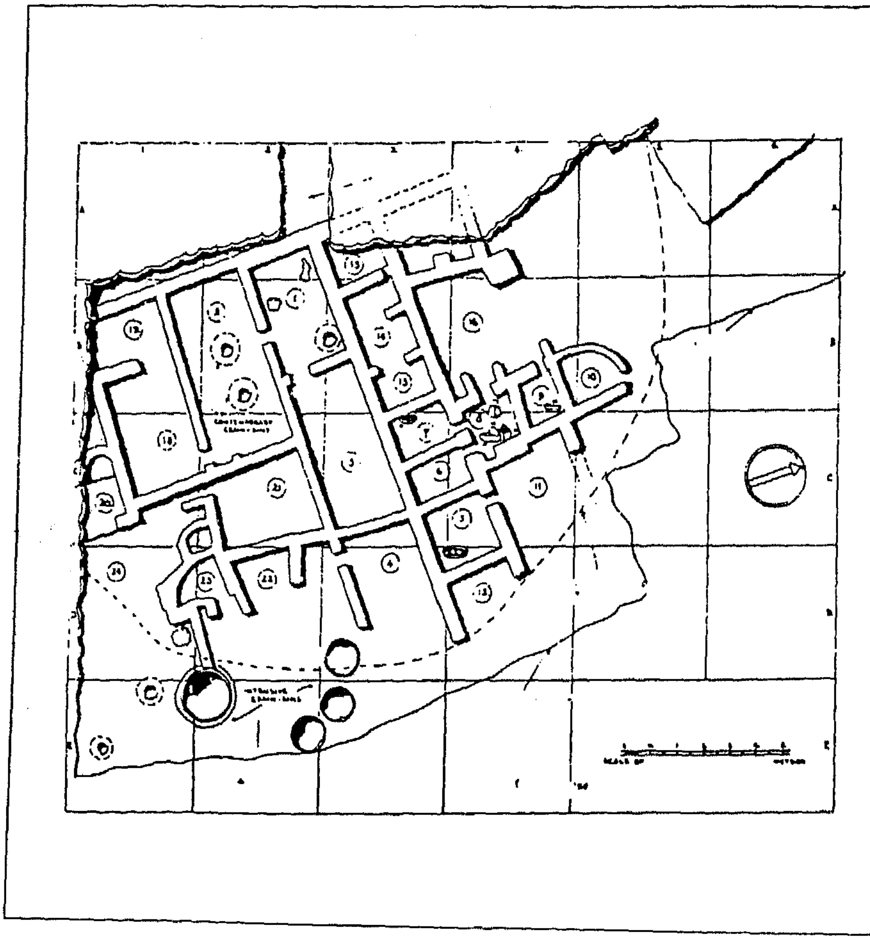
أما الطبقة العليا من موقع تل حسونة وهي الطبقة الخامسة، فيلاحظ وجود جدار يتجه من الشرق إلى الغرب وهو يقسم المباني إلى مجموعتين متميزتين. ويوجد في الناحية الشمالية منزلا يتكون من تسع حجرات حول فناء، ولقد عثر فيها على مجموعة من الأواني الفخارية جيدة الصنع، وعثر فيها أيضاً على أواني



(شكل ٤٢) رسم تخطيطي للمنازل من الطبقة الرابعة من تل حسونه

(١)

فخارية كبيرة لحفظ الحبوب. ويلاحظ أن أرضية الحجرات قد مهدت بالطين والقش ' (شكل ٤٣) [١].



شكل (٤٣) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الخامسة من تل حسونه

ومن الناحية الفكرية، فيلاحظ أن الموتى كانوا يدفنون أسفل أرضية المنازل وكانوا يضعون بجوار الموتى أواني فخارية لحفظ الطعام والشراب، كما

(١) Ibid., p. 275, Fig. 32.

عثر بجوار أحد الموتى في الطبقة الأولى a على فأسين من الصوان، مما قد يشير إلى الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت.

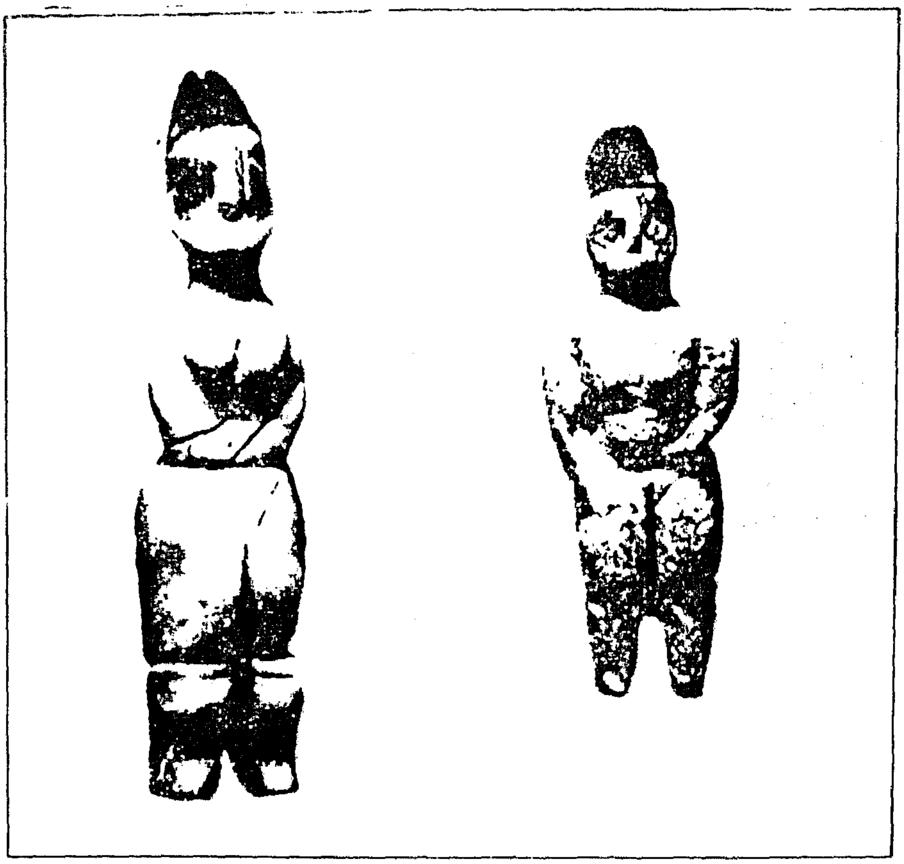
ومن الظواهر اللافتة في هذه الحضارة أيضاً الكشف عن بقايا جثث لأطفال دفنوا في بعض الأواني الفخارية، وكان اتجاه رأس المتوفى ناحية الشمال. ويرى الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري - يرحمه الله - إلى أن وجود بقايا الهياكل العظمية للأطفال إنما يتصل بظاهرة التضحية البشرية لإسترضاء القوى الإلهية، وعلى رأسها آلهة الأمومة التي عبر عنها في شكل تماثيل صغيرة[١].

ومن الناحية التعبيرية، فلقد كشف في هذا الموقع عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع والتي كان معظمها يمثل آلهة الأمومة والتي مثلت هنا واقفة (بينما كانت في حضارة جرمو تمثل جالسة القرفصاء) وقد زود بعضها بغطاء رأس من القار وعيون من المحاسر (شكل ٤٤)، كما كشف في بعض المواقع عن بعض القطع الأثرية التي تشبه العضو الذكري وقد حاول الباحثون معرفة دلالة وجود هذه التماثيل في هذه المرحلة المبكرة فذهب بعضهم إلى أن تماثيل إلهات الأمومة كانت تودع في مدافن الذكور، دون الإناث اللاتي قد أودعت في قبورهن قطعاً حجرية تشبه عضو التذكير، خاصة وأن الحفائر لم تكشف عن وجود الإثنين معاً في قبر واحد. على أن هناك من يرى أن هذه التماثيل تعبر عن الأمومة الفعلية التي تضفي حمايتها على الأطفال الذين تغلب هياكلهم العظمية في مدافن تل الصوان وتل حسونة، خاصة وقد عبرت أشكال تماثيل إلهات الأمومة عن اهتمام صانعيها بإبراز صفة الإخصاب فيهن، حيث شكلت هذه التماثيل بحيث تتجه الأيدي غالباً نحو بطونهن[٢].

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٢) انظر:

Sumer, 26 (1970), figs. 39-42.

وكذلك: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق. ص ٤٩ - ٥١، وكذلك محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٧.



شكل (٤٤) تمثالان صغيران من المرمر مزخرفان بعيون وبقبعتين من مادة القار ـ التمثالان مأخوذان من قبور تل الصوان ـ بداية عصر حسونه

٤ ـ عصر الحجر والنحاس

يمثل هذا العصر مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنساني إذ خرج الإنسان من نطاق قريته وأخذ في البحث عن إمكانيات مادية جديدة في البيئات المحيطة به، حيث توصل إلى استخدام معدن النحاس وذلك منذ حوالي منتصف الألف الخامس ق.م وكان استخدام الإنسان لهذا المعدن في أول الأمر نادراً، ويفسر ذلك قلة المصنوعات النحاسية التي عثر عليها في المواقع التي تنتمي لبداية هذه المرحلة.

ويعتبر عصر حضارة حلف(١) هو العصر المميز لهذه المرحلة في العراق القديم وهو ينسب إلى موقع تل حلف على نهر الخابور بالقرب من رأس العين في أقصى شمال العراق، وهو من أولى المواقع التي كشف فيها عند الإنتاج الحضاري لهذه المرحلة. ومن المواقع النموذجية لهذه الحضارة موقع العربجية قرب الموصل وكذلك تبة ياريم بوادي سنجار. وانتشرت هذه الحضارة على شكل قوس من نهر الفرات إلى الزاب الكبير، وبينما كانت الحدود الجنوبية لهذه الحضارة محددة بشكل دقيق، فإنه من المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية مع جيوب منتشرة هنا وهناك في الهضبة الأناضولية إلى الشمال

(١) انظر:

J. Mellaart, in CAH, vol. I, part I, pp. 276 - 281 , Sumer, vol. 22 (1966), p 23 ff., M.E L. Mallowan, and J R. Cruikshank, Prehistoric Assyria, The Excavations at Tell Arpachiyah, London, 1935., H. Schmidt, Tell Halaf, 1, Berlin, 1943.

من هذه الجبال[١].

ومن الناحية الزمنية، فإنه يمكن القول اعتماداً على التقويم الزمني القائم على طريقة الراديو كربون أنها كانت في النصف الثاني من الألف الخامس ق.م[٢].

تعتبر حضارة حلف من الحضارات النشيطة بشكل خاص ولس لها ما تدين به إلى حضارة حسونة، ولقد اختلف المؤرخون في تحديد أصل هذه الحضارة، فيرى البعض أن مركزها في المنطقة الواقعة ما بين الموصل في شمال العراق إلى منطقة الخابور، وهناك من يرى أنها ترجع إلى أصل أرميني. أما الاتجاه التقليدي فهو اعتبار نشأتها كانت في تل حلف ذاتها وأنها تطورت تطوراً ذاتياً. ويلاحظ من جهة أخرى أن حضارة حلف لم تتصل بحضارة إيران وذلك لوجود الحواجز الطبيعية وخاصة جبال زاجروس التي عملت على منع حضارة حلف من دخول إيران، وكذلك لم تمتد هذه الحضارة إلى جنوب العراق القديم وذلك لعدم سكنى الجنوب بعد في ذلك الوقت، ولذلك امتدت هذه الحضارة في منطقة الموصل وكذلك في منطقة سنجار عبر نهر الخابور وفي منطقة جبل عبد العزيز، وغرباً في سورية حتى منطقة العمق ورأس الشمرة، وامتدت حتى حدود الأناضول الجنوبية الشرقية[٣].

ونتيجة لهذا الامتداد الكبير لحضارة حلف فإن إنتاجها من المصنوعات الفخارية يمكن أن يقسم إلى نوعين متميزين، النوع الأول خاص بالمناطق الشرقية من حلف، وظهر في مواقع العربجية وتبه جورا، والنوع الثاني وهو الخاص بالمنطقة الغربية وقد عرف في مواقع حلف وقرقميش وتل يونس في سورية[٤].

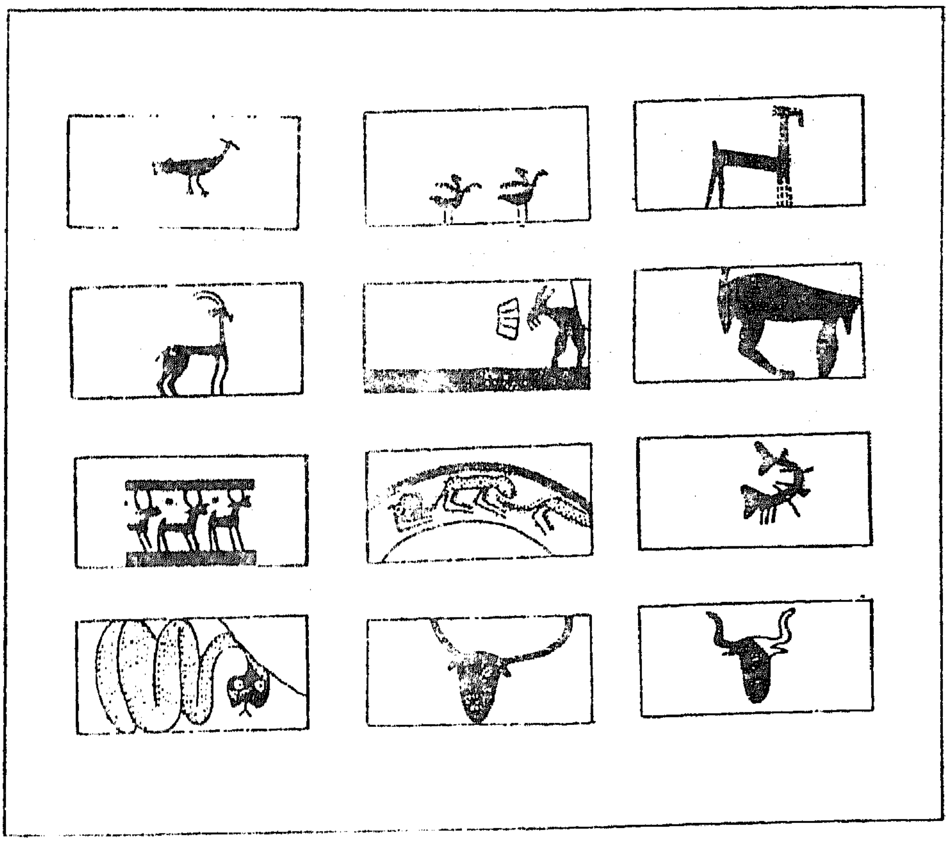
(١) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 276.

(٣) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٨.

ويتميز فخار حلف بنوعيه بألوانه وزيناته التي تمثل تفوقاً صناعياً وفنياً كبيراً، ولقد مر الفخار بثلاث مراحل من التطور، كان في المرحلة الأولى منها وهي المرحلة المبكرة من حضارة حلف، عبارة عن أواني ضحلة قواعدها مستوية وجوانبها منثنية للداخل، وهي مزينة بمجموعات مختلفة من التموجات المتوازية أو الخطوط المتعرجة، وزينت الأواني أيضاً بأشكال الطيور والماعز والأغنام والأفاعي ورؤوس الكباش (شكل ٤٥)[1] ويلاحظ أن كثيراً من هذه



شكل (٤٥) زينات الأواني من عصر حضارة حلف (المرحلة المبكرة)

(١) T. Dabbagh, «Halaf Pottery», in Sumer, 22 (1966), pl. XVIII.

الأشكال تناسب الرسوم الجدارية أكثر من كونها زينة للأواني الفخارية، ولكن لم يعثر على أية رسوم جدارية خلال هذه المرحلة الحضارية[١].

وفي المرحلة الثانية كان الفخار يلون باللون الأصفر الشاحب، وكان لبعض الأواني حواف متموجة، وزينت الأواني بزخارف عبارة عن مساحات من التصاميم الهندسية التي تشبه النسيج متناسقة مع خطوط ملتوية ونقاط وصور تمثل الشمس والنجوم. (شكل ٤٦) [٢].

وفي المرحلة الأخيرة ظهرت الأطباق المتعددة الألوان المزودة بزخارف مركزية وقد أصبحت هذه الأطباق إحدى المنتجات البارزة في فخار منطقة الشرق الأدنى القديم[٣] (شكل ٤٧) .

وتمكن إنسان حضارة حلف من صناعة العديد من أوانيه من الحجر الذي صنع منه كذلك العديد من الأدوات الحجرية وأدوات الزينة كالخرز والدلايات واستخدم الطين كذلك في صناعة بعض أدوات زينته كالخواتم ومن الصناعات المميزة في هذه المرحلة صناعة الأختام التي استخدمت في الطباعة على قطع الطين، وكانت هذه الأختام من أقدم الأمثلة التي عثر عليها في العراق القديم.

ولقد عثر على بعض الأدوات النحاسية، كالدبابيس والأزاميل، إلا أنه يلاحظ أن عددها كان محدوداً في هذه المرحلة.

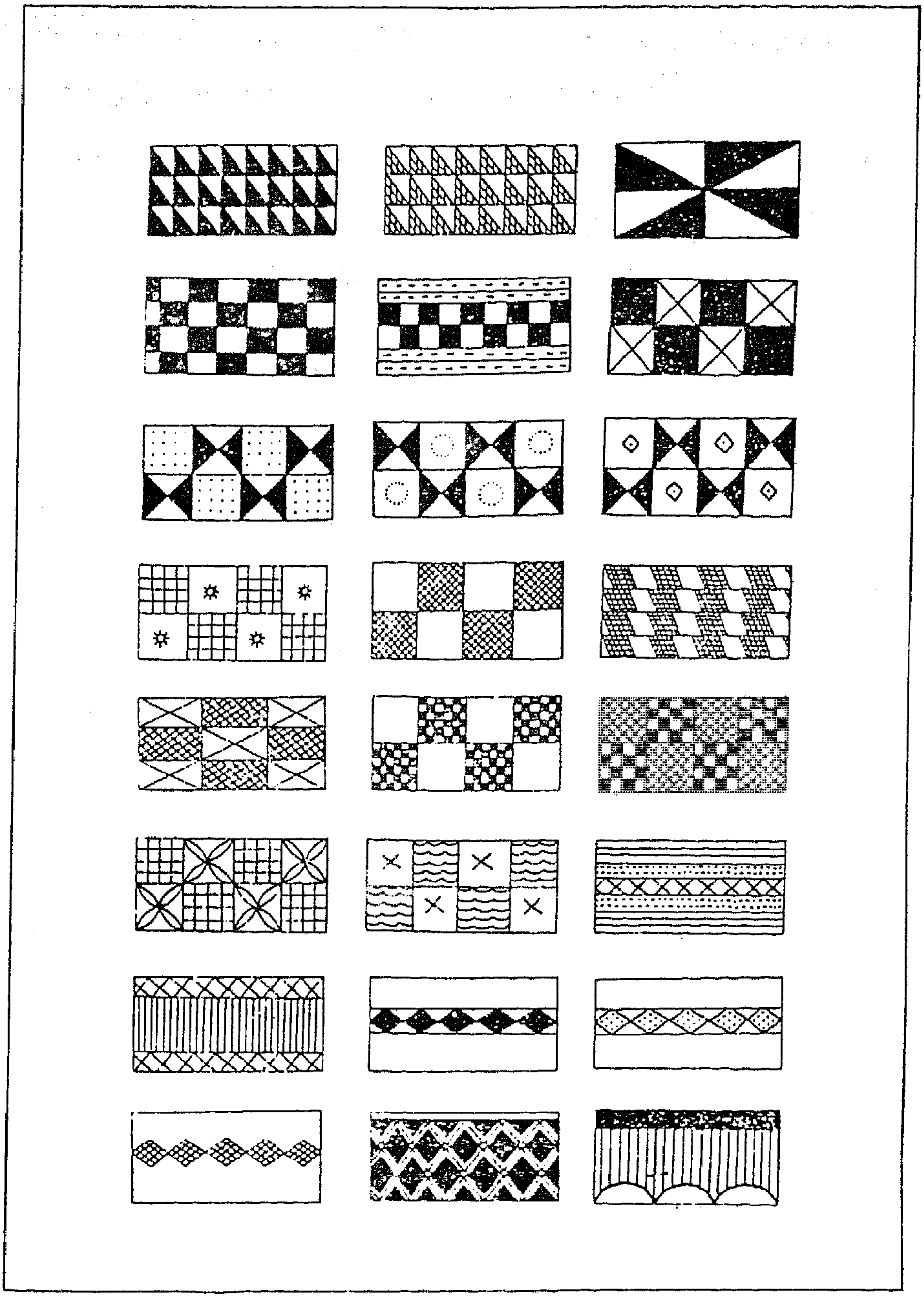
أما في مجال العمارة، فكانت القرية تتكون من منازل ذات غرفتين مبنية على امتداد طرق مرصوفة بالأحجار. ويتألف المنزل من غرفة داخلية ذات قبة ضخمة وأمامها غرفة مستطيلة الشكل ذات سطح مثلث، وكان لهذه الأبنية أساسات من الحجارة واحتوت المنازل على أفران ومواقد ومخازن، وغطيت جدران وأرضيات الحجرات بطبقة سميكة من الطين وطليت من الداخل

---

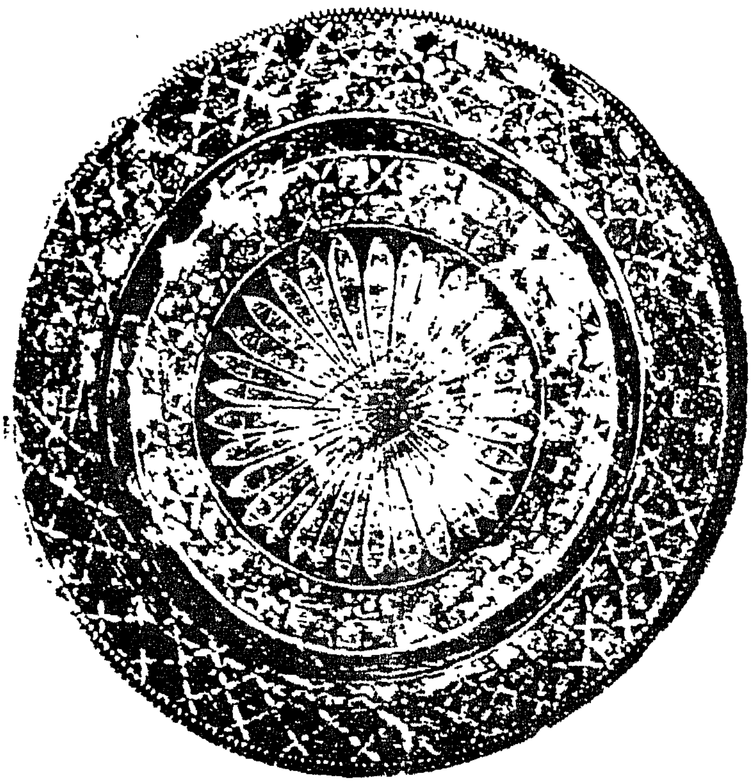
(١) J. Mellaart, op. cit , p. 280

(٢) T. Dabbagh, op cit , pl. XV.

(٣) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٩، شكل ١٠٧.

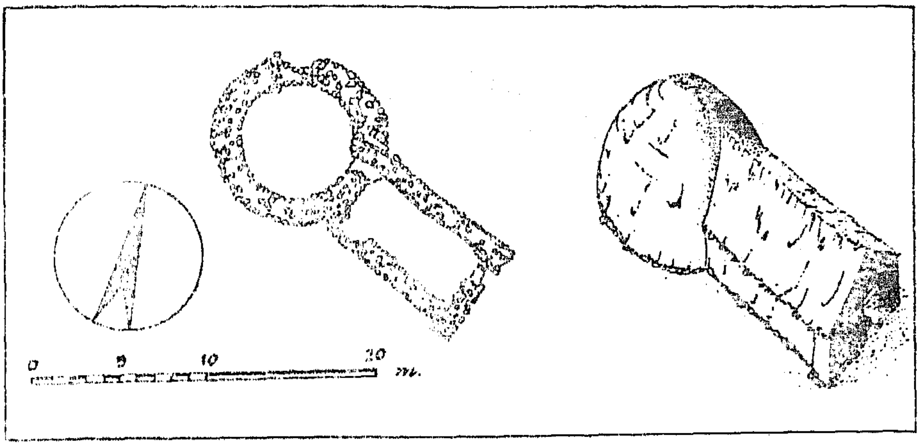


شكل (٤٦) زينات الأواني من عصر حضارة حلف (المرحلة الثانية)



شكل (٤٧) طبق متعدد الألوان من الفترة الأخيرة لعصر حلف في شمالي العراق - المربجية

والخارج باللون الأحمر. (شكل ٤٨)[١].



شكل (٤٨) رسم ومخطط لمنزل في موقع العربجية
التابع لحضارة حلف في العصر الحجري النحاسي

ومن الناحية الاقتصادية فلقد عمل سكان تل حلف في الزراعة حيث عثر على المناجل ذات النصال المصنوعة من الصوان بكميات كبيرة، وكانت نصال المناجل لامعة بسبب الاستعمال، كما عثر على مناجل مصنوعة من حجر الصابون، ومن الحبوب التي انتجوها الشعير والقمح، وظهر الشعير ذو الستة صفوف لأول مرة في حوالى نهاية هذا العصر.

ويلاحظ أنهم تمكنوا من إنتاج الخيوط الكتانية، ويتضح من نماذج الأشكال المرسومة على الأواني الفخارية أنهم وصلوا إلى درجة كبيرة من التطور في صناعة النسيج الذي كان من الصوف بشكل رئيسي.

وتمكن الإنسان خلال هذا العصر من استئناس المواشي كالماعز والغنم

(١) نفس المرجع السابق، شكل ١٠٦.

وكذلك نوع من الكلاب يشبه كلب الصيد (السلوقي). وبالإضافة إلى ذلك فلقد مارس الإنسان حرفة الصيد، حيث عثر على رؤوس سهام وحجارة ومقالع، كما أظهرت رسومهم مناظر خاصة بالصيد، حيث ظهرت على الأواني رسوم لطيور كبيرة وخنازير برية وأرانب وحمير وحشية.

ومن الناحية الفكرية، فلقد ظل الإنسان يدفن موتاه أسفل أرضية المساكن ودفن الموتى على الجانب الأيمن في وضع مقرفص، ويتجه الرأس نحو الغرب، ووضعت مع المتوفى احتياجاته الأساسية من الأواني الفخارية والأواني الحجرية الصغيرة وحبات العقود من المرمر ودلايات من الحجر زينت بصور الطيور ورسوم الحيوانات[١].

ولم يقتصر إنسان حضارة حلف على تشكيل تماثيله في شكل إلهة الأمومة بل لقد عثر على تماثيل إنسانية أخرى يحمل بعضها زخارف معينة ربما تعبر عن وشم خاص أو عن زينات في الملابس، كما عثر على الكثير من تماثيل رؤوس الكباش مما قد يشير إلى عقيدة الخصوبة[٢].

ويشير استخدام إنسان تلك الحضارة للمواد الطينية والحجرية والأصداف والنحاس وغيرها إلى خروجه عن الإطار المحلي واستكشافه الأقاليم القريبة والنائية، فلقد حصل على الزجاج البركاني الأسود (الأوبسيدان) من منطقة بحيرة ڤان، كما حصلوا على الأصداف من منطقة الخليج العربي، كما قام بتوريد فخارهم إلى مناطق بعيدة، حيث عثر عليه في تلكي تبه قرب بحيرة ڤان التي يعتقد أنها كانت سوقاً لبضائع حلف، وعثر عليه أيضاً في مناطق أخرى مثل منطقة مالاتيا الغنية بالنحاس والذهب، هذا ويمكننا أن نشاهد أثار حلف ومستورداتها في أشكال الأواني ونماذج الزخرفة في المنطقة الممتدة من الخليج العربي حتى البحر المتوسط. وبهذا فإنه لم يسبق لأي حضارة قبل حلف أن

---

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢) جيمس ميلارت. المرجع السابق، ص ١٦٢.

تحكمت في منطقة إقليمية بمثل هذا الاتساع.

ويعتقد أن حضارة حلف قد انتهت نتيجة غزو من بلاد الرافدين الجنوبية، حيث جاء إلى هذه المنطقة بعض سكان حضارة العبيد نتيجة لزيادة أعداد السكان في منطقتهم الجنوبية، ويقدر نهاية عصر حضارة حلف في الفترة من ٤٤٠٠ ـ ٤٣٠٠ ق.م[(١)].

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

٥ ـ حضارات جنوب العراق القديم

عند نهاية عصر حضارة حلف انتقل مركز الثقل الحضاري من القسم الشمالي للعراق إلى القسم الجنوبي. وتعتبر حضارة العبيد التي تقع إلى الغرب من أور بحوالى ستة كيلومترات من أولى الحضارات التي ظهرت في القسم الجنوبي.

غير أن الحفائر التي قامت بها إدارة الآثارالعراقية في موقع أريدو عام ١٩٤٦، وأدار هذه الحفائر فؤاد صفر وسيتون لويد[١]، أثبتت وجود حضارتين أسبق عهداً من حضارة العبيد، وهما حضارة أريدو، وحضارة الحاج محمد (حجي محمد)، ويرى بعض الباحثين في هاتين الحضارتين مرحلتين مبكرتين من عصر حضارة العبيد، ومن ثم فإنهم يقسمون هذا العصر الحضاري إلى ثلاثة مراحل هي[٢]:

العبيد (١) = حضارة أريدو.
العبيد (٢) = حضارة الحاج محمد.
العبيد (٣) = حضارة العبيد الصميمة.

وعلى ذلك تصبح حضارة أريدو هي أولى المواقع الأثرية من الناحية الحضارية في جنوب السهل العراقي، يليها حضارة الحاج محمد ثم حضارة العبيد التي يليها عصر حضاري جديد، هو عصر حضارة الوركاء ثم عصر

(١) S. Lioyd, and F. Safar, «Eridu», in Sumer, 3 (1947) p. 84 F, and 4 (1948), p. 115 ff.

(٢) انظر: J. Oates, in Sumer, 22 (1966) p. 52, 58.

حضارة جمدة نصر الذي يمثل آخر المراحل التي تسبق بداية العصور التاريخية.

وستناول فيما يلي هذه الحضارات بشيء من التفصيل.

١ ــ حضارة أريدو: Eridu

تقع أريدو على بعد ١٩ كيلومتر جنوبي غربي أور وعلى مسافة ٢٤٠ كيلومتر من الخليج العربي ويطلق عليها حالياً أبو شهرين. ورغم هذا البعد الحالي بينها وبين الخليج العربي إلا أنه من المحتمل أنها كانت مرتبطة مباشرة مع شاطئ الخليج عبر عدد من البحيرات الواسعة وبواسطة موجات المد والجزر.

وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو أول المدن الخمس قبل الطوفان وأول مقر للملكية(١)، ويشير السومريون إليها بقولهم: «كانت كل البلاد بحار... ثم قامت أريدو»(٢) وأشار الملك شولجي ابن أورنامو أحد ملوك أسرة أور الثالثة إلى أريدو وذكر أنها تقع على شاطئ البحر(٣). وارتبطت أريدو بالمعبود أنكي الذي اشتهر بالحكمة والمعرفة وبقوته على المياه العذبة التي تدفن أسفل الأرض، وأكدت أعمال الحفائر التي أجريت في موقع أريدو أن هذه المدينة أقدم المدن المكتشفة في جنوبي العراق القديم.

وكشفت الحفائر عن كميات وفيرة من الفخار في كل طبقات موقع أريدو، ويمكن تقسيمه إلى أربعة مراحل واضحة تتفق مع التطورات الرئيسية للتطور المعماري للموقع وذلك على النحو الآتي(٤):

١ ــ العبيد (١): وذلك في الطبقات من ١٩ ـ ١٥. وهذا هو فخار أريدو

---

(١) A. L. Oppenheim, «The Sumerian King List», in ANET, 1966, p. 265.

(٢) A. Heidel., The Babylonian Genesis Ed. 2. Chicago, 1951, p. 62.

(٣) M. Mallowan, «The Development of Cities from AL-Ubaid to the End of Urk 5» in CAH, I, part I, p. 331.

(٤) Abdul Jalil Jawad, and S.Al Ruwayshdi, «The Eridu Material and It's Implications», in Sumer, 30 (1974), p. 31.

المبكر وهو وحيد اللون، لونه أصفر برتقالي أو لونه كريمي، وهو مزين بأشكال ورسوم مستقيمة الأضلاع.

٢ ــ العبيد (٢): وعثر عليه في الطبقات من ١٤ ـ ١٢، وهو مزين بطراز ظهر لأول مرة في موقع الحاج محمد.

٣ ــ العبيد (٣): وعثر عليه في الطبقات من ١٢ ـ ٨، وهو عبارة عن أواني تشبه أواني العبيد.

٤ ــ العبيد (٤): وعثر عليه في الطبقتين السابعة والسادسة، وهو يتميز بظهور الفخار الذي يشبه فخار الوركاء.

ويلاحظ أن الأشكال السائدة لفخار أريدو هي الأكواب والسلاطين، وإن ظهرت أحياناً الأطباق الكبيرة، شكل (٤٩) ولقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمتعرجة والمثلثات والنقط، ويندر وجود الأشكال الطبيعية الحية. شكل (٥٠)

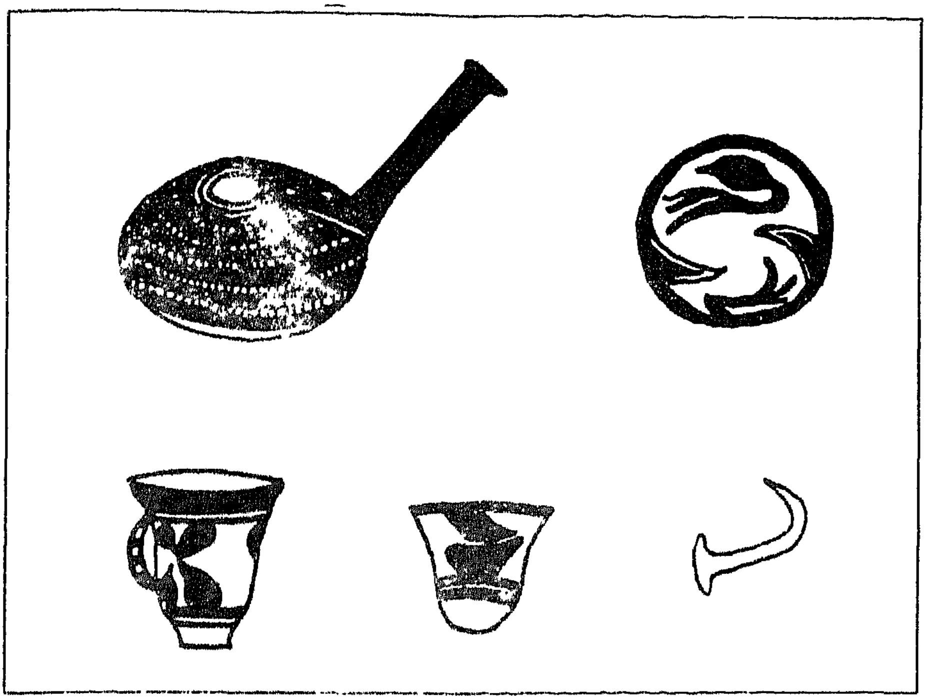
وكشف في موقع أريدو عن ١٨ طبقة أثرية تحوي آثار معمارية، ويلاحظ أن الطبقات الخمس العليا من ١ ـ ٥ تنسب إلى المرحلة الحضارية التالية وهي مرحلة الوركاء وجمدة نصر، أما الطبقات التالية من ٦ ـ ١٨ فإنها ترجع إلى مرحلة العبيد الحضارية. وتجدر الإشارة إلى أن جميع البقايا المعمارية المبنية من الطين والأجر التي كشف عنها كلها ذات طبيعة دينية، إذ كانت جميعها عبارة عن معابد يمكن تقسيمها حسب تطورها المعماري إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالي[١]:

المجموعة الأولى: وهي تمثل أقدم المباني وتوجد في الطبقات من ١٨ ـ ١٥، وتحوي الطبقة السادسة عشرة أول تخطيط متكامل لمعبد (هيكل)

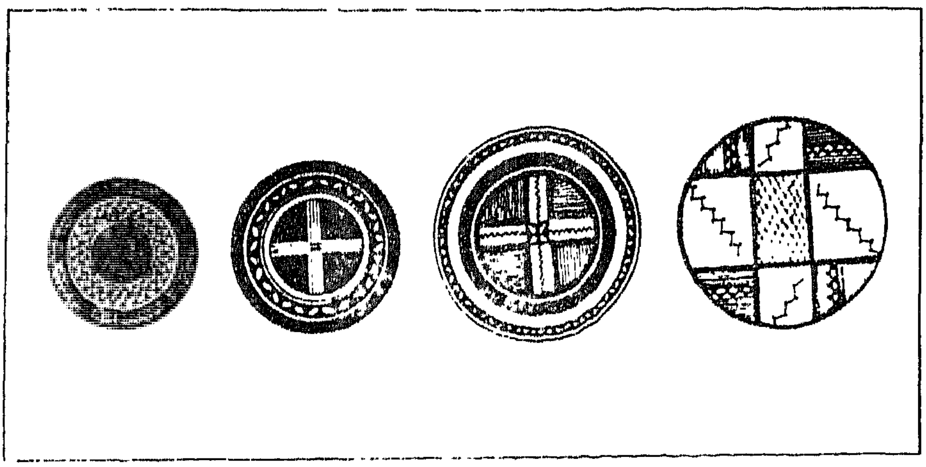
---

(١) انظر: M. Mallowan, op. cit., p. 334 ff, Fig. 24.,

سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٥٧ ـ ٥٩، شكل ١٠ ـ ١١.



(شكل ٤٩) بعض نماذج الأواني الفخارية من حضارة أريدو

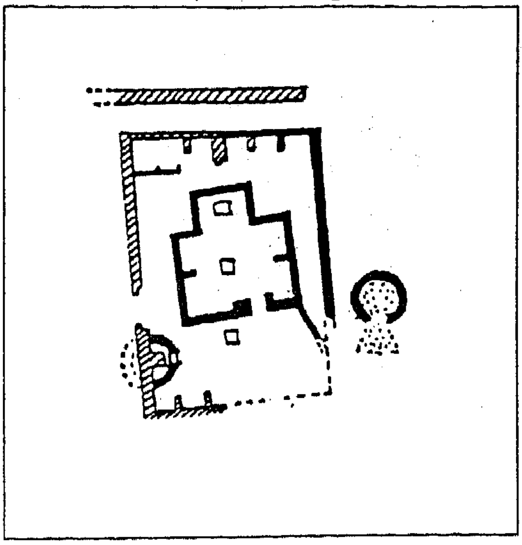


(شكل ٥٠) بعض التصميمات الفخارية الملونة من حضارة أريدو

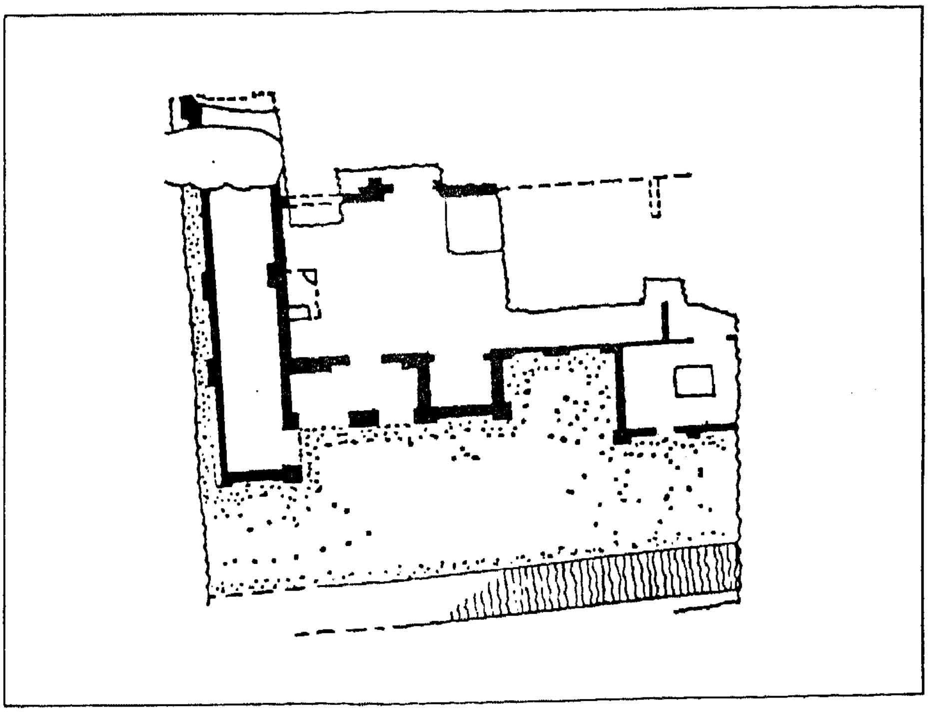
معروف في جنوب بلاد النهرين، وهو يرجع إلى حوالى ٤٩٠٠ ق.م، وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل تبلغ أبعاده ٤×٨ متراً، ويوجد له مدخل ضيق في جانب واحد، وهو يحتوي على مشكاة، ومذبح ومائدة قرابين، ويعتبر التصميم المعماري لهذا المعبد هو بداية التقليد المعماري الذي اتبع بعد ذلك في تصميم المعابد من حيث الأجزاء الرئيسية التي يجب أن تكون فيه (شكل ٥١).

المجموعة الثانية: تشمل المجموعة الثانية بقايا المعابد الموجودة في الطبقات من ١١ ـ ٩ ويلاحظ أن المعبد الذي كشف عنه في الطبقة التاسعة يعتبر أكبر بناء معماري كشف عنه في جنوب العراق حتى ذلك الوقت (حوالى ٤٠٠٠ ق.م)، حيث يبلغ طوله حوالى ١٥ م، وتوجد أدلة على وجود شبكة تصريف مياه بجواره (شكل ٥٢) وتجدر الإشارة إلى أن مباني هذه المجموعة ترتبط من حيث تخطيطها المعماري بطرز المعابد الشمالية وخاصة في موقع جاورا الطبقة ١٣.

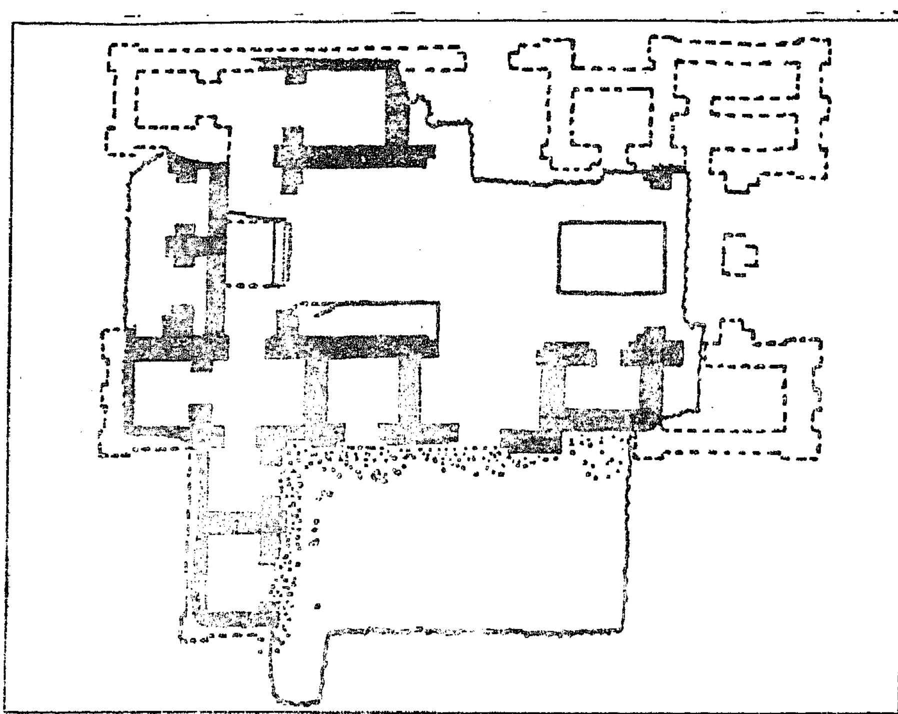
المجموعة الثالثة: تشمل المجموعة الثالثة بقايا المعابد الموجودة في الطبقات من ٨ ـ ٦ وهي آخر الطبقات التي ترجع إلى عصر حضارة العبيد وأكملها من ناحية التطور المعماري، ويلاحظ أن المعبد الموجود في الطبقة الثامنة شكل (٥٣) من أكبر المعابد التي شيدت حتى ذلك الوقت حيث تبلغ أبعاده ١٢×٢١ م، والمباني بحالتها الراهنة مترابطة إلى حد كبير. ويفترض أنه كان يوجد درج في الناحية الجنوبية الشرقية، والذي أصبح الآن امتداداً لرصيف المعبد. ويوجد مذبح في الركن الجنوبي الغربي، ومائدة قرابين في مواجهته في نهاية الفناء. وعثر في المعبد على الكثير من الأواني الفخارية وكميات كبيرة من الأسماك المضحى بها، كما عثر بجوار المذبح على قرون حيوانات مصنوعة من الطين وكذلك الكثير من الأدوات المستخدمة في صيد السمك، ويبدو أنها تمثل القرابين التي كان يقدمها الصيادون للمعبد، مما يرجح وجود صلة قوية تربطهم بالمعبد.



شكل (٥١) رسم تخطيطي لتصميم المعابد المبكرة في أريدو (الطبقة ١٥)



شكل (٥٢) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة التاسعة)

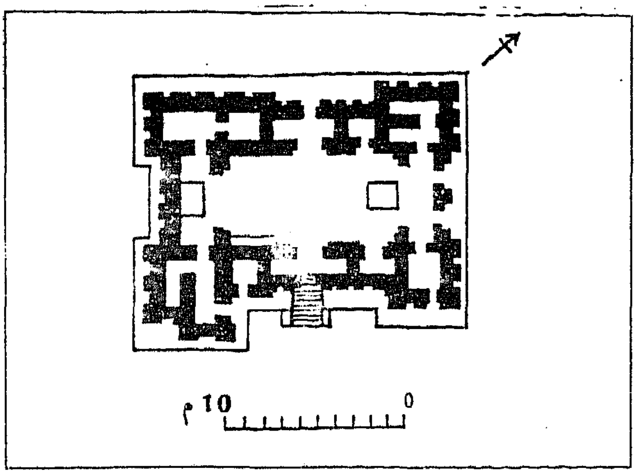


(شكل ٥٣) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة الثانية)

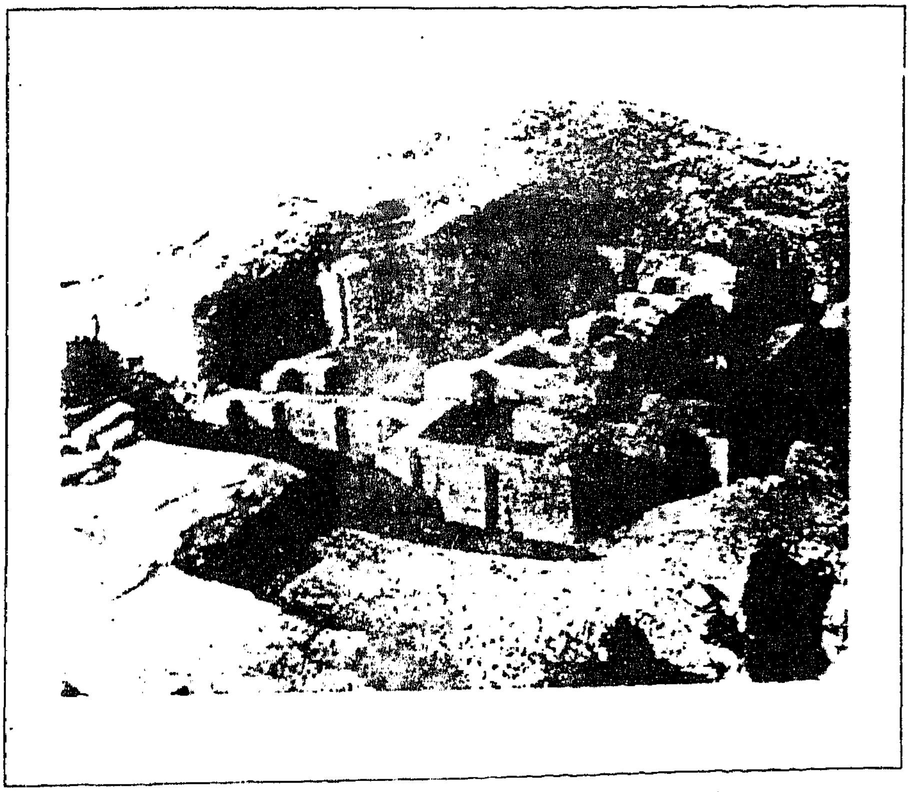
أما المعبد الذي كشف عنه في الطبقة السابعة (شكل (٥٤)[١]، (٥٥)[٢] فتبلغ مساحته ١٨,٥×١٣ متراً وكان مزيناً وأكثر ترتيباً من المعبد الموجود في الطبقة السابقة، وكان مدخله عبارة عن مجموعة متواصلة من الدرج التي تقع مباشرة على محور يؤدي إلى المقصورة، ويوجد هذا المدخل في الناحية الجنوبية من المعبد، وبالإضافة إلى هذا المدخل الرئيسي كانت توجد مداخل أخرى صغيرة في الجوانب الضيقة للمعبد في مواجهة المذبح. ويوجد في أرضية هذا المعبد

(١) M. Mallowan, op. cit., Fig. 25 (a), p. 337 - 339.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، شكل رقم ١١ ص ٥٩.



(شكل ٥٤) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة السابعة)



(شكل ٥٥) منظر يوضح شكل معبد أريدو بعد الكشف عنه في (الطبقة السابعة)

الكثير من عظام الأسماك، ويبلغ سمك هذه الأرضية حوالى ٤٠ سم. ويشبه هذا المعبد معابد حضارة الوركاء في المراحل الرابعة والثالثة مما يوضح أن المعابد السومرية ارتبطت ببعضها بمراحل مستمرة من التطور.

أما آخر المعابد التي ترجع إلى عصر حضارة أريدو، فلقد كشف عنه في الطبقة السادسة (**شكل ٥٦**)[١] وتبلغ أبعاده ٢٣×١٢ م. ويلاحظ أنه أقل عرضاً وأكثر تناسقاً من المعابد السابقة، كما أن الحجرات الموجودة في الأركان، كان البروز الموجود فيها أقل. ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذا المعبد أن المدخلين الموجودين في الجانبين الضيقين مختفيين، ويوجد مدخل من الجانب الطويل فقط. وبهذا المعبد تنتهي المباني الدينية التي ترجع إلى عصر حضارة العبيد في مدينة أريدو، والتي بلغت تطوراً كبيراً خلال الطبقات الأثرية للموقع ولقد أمكن عمل شكل يمثل معبد أريدو مكتملاً في عصر بداية الكتابة (**شكل ٥٧**)[٢].

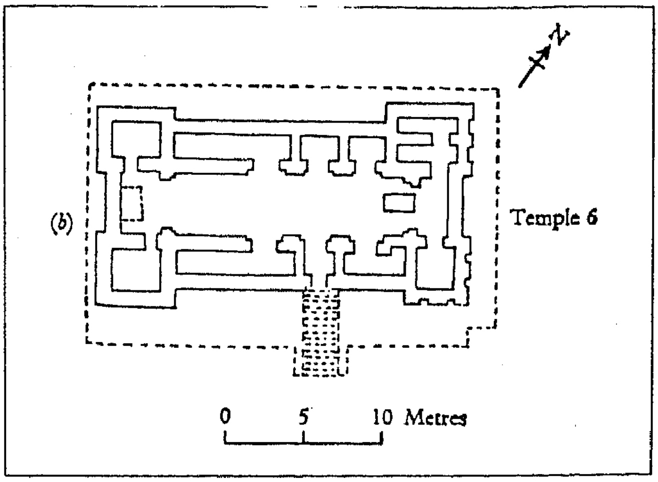
وفيما يتصل بعادات الدفن في أريدو، فلقد كشف عن جبانة أريدو والتي ترجع إلى النصف الأول من الألف الرابع ق.م، وكانت الجبانة خارج مبان المدينة والمعبد، ويتضح من تماثل القبور وعددها أنها كانت جبانة عاصمة حقيقية. ومن الأشياء اللافتة للنظر في مقابر أريدو، أن العظام التي كشف عنها كانت كلها تقريباً مصبوغة بلون برتقالي قاتم، وكان نفس اللون ظاهراً على عظام الكلاب، كما ظهر اللون نفسه على قطعة عظام بجانب فم كلب. ويتجه سيتون لويد إلى أن هذا اللون ربما كان ناتجاً عن بعض التفاعلات الكيميائية في التربة، ولم يكن نتيجة صبغه بشكل متعمد بمادة المغرة الحمراء لأسباب دينية[٣] وإن كان هذا الرأي تعوزه الدقة نظراً لحقيقة العثور على كثير من الهياكل العظمية في مناطق متفرقة من الشرق الأدنى القديم في إيران والعراق وسوريا وفلسطين وقد

---

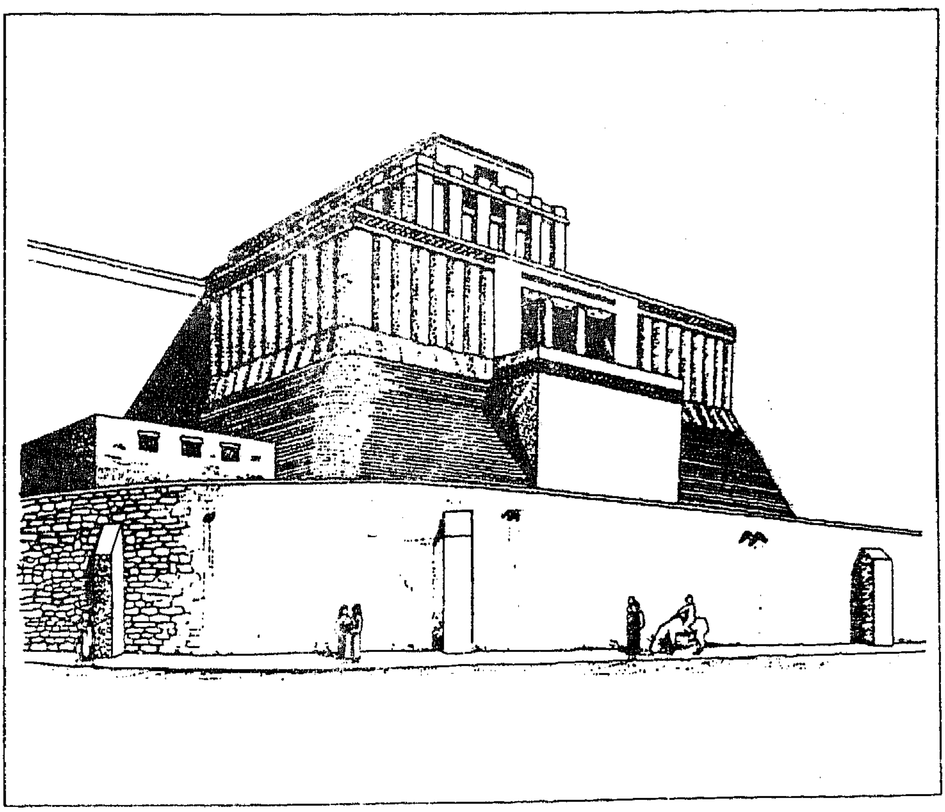
(١) M. Mallowan, op. cit., Fig. 25 (b), p. 339.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، شكل رقم ٨، ص ٥٣.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.



شكل (٥٦) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة السادسة)



شكل (٥٧) رسم يمثل إعادة بناء معبد أريدو في عصر ما قبل الكتابة

غطيت الأجساد باللون الأحمر، مما يشير إلى أن هذا اللون قد يوضع بشكل عمدي لهدف ديني يرجح أن يكون لعقيدة الإنسان بعودة الحياة مرة ثانية وهي عقيدة البعث والخلود.

ولقد عثر في هذه المقابر على مجموعات ضخمة من الأواني الفخارية الكاملة، كما عثر فيهاعلى إعداد كبيرة من التماثيل الطينية التي يمثل بعضها الإلهة الأم، كما عثر أيضاً على تماثيل فخارية للرجال شكل (٥٨) [١]، كما عثر على بعض المصنوعات الفخارية أيضاً مثل المناجل والفؤوس والمسامير الضخمة ذات النهاية المعقوفة، وعثر أيضاً على بعض الأدوات الحجرية كالسكاكين الصوانية، وكذلك بعض الأدوات العظمية.



(شكل ٥٨) تمثال فخاري لرجل من أريدو

(١) نفس المرجع السابق، شكل ١٦ ص ٦٤.

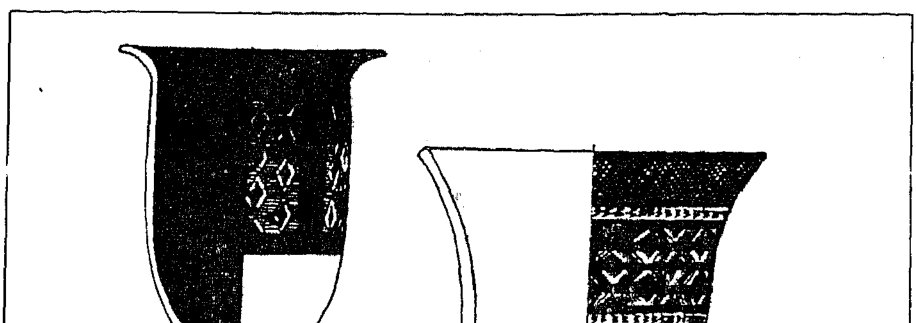
٢ ـ حضارة الحاج محمد : Hajji Muhammad

تقع الحاج محمد على ضفاف نهر الفرات، جنوب غرب الوركاء بحوالى ١٨ كم، ويطلق على الموقع الأثري «قلعة حجي محمد»[١].

ونظراً لارتفاع المياه الجوفية في هذا الموقع لوقوعه على ضفاف النهر، وتعرضه للفيضانات، فإن بقايا الجدران الطينية وكذلك المصنوعة من البوص قد تآكلت ولم يبق منها شيء.

ويمثل الفخار الذي أمكن جمعه من على السطح مرحلة مبكرة جداً في تطور إنسان العبيد، ويمثل هذا الفخار سلسلة من التطور تسبق نموذج فخار العبيد في طبقة أريدو الثانية عشرة، ويمكن أن يرتبط بأشكال الفخار المبكرة الشمالية والذي كان مألوفاً في عصور ما قبل الكتابة في آشور.

ويتميز فخار الحاج محمد بأنه شكل على هيئة أواني ومزهريات وأطباق، وأحياناً كانت تغطى جميعها بالزينات، ومن الأواني المميزة في هذا الموقع، الأواني الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة والمزينة بزينات هندسية في خطوط مائلة ومتعرجة ومربعات، وقد لون بنفس ألوان فخار أريدو مع ظهور لون جديد هو اللون القرمزي الغامق (شكل ٥٩)



شكل (٥٩) بعض نماذج الأواني الفخارية وزيناتها من موقع الحاج محمد

(١) C. Ziegler, Die Keramik von der Qala des Haggi Mohammed, Berlin, 1953

ويلاحظ أن صناعة الخزف في حضارة الحاج محمد قد تأثرت بشكل كبير بطرز فخار حضارة حلف الشمالية سواء في طرز الأواني أو زيناتها. ولقد عثر على فخار مشابه له أيضاً في سوسة في إيران[١].

ويبدو أن الإنتاج الحضاري في الموقع ظل مستمراً حتى عصر العبيد، حيث ظهرت بعض أنواع الأواني أكثر تطوراً من مثيلاتها. ولقد عثر في هذا الموقع أيضاً على منجل مصنوع من الفخار لم يُعرف قبل الطبقة الثالثة عشرة في أريدو، وعثر كذلك على فؤوس حجرية ومجارف.

ويلاحظ أن الفخار الذي عثر عليه في موقع الحاج محمد يقدم مجموعة متطورة وأكثر تقدماً من الفخار الذي كشف عنه في أريدو.

٣ ــ حضارة العبيد: Al-Ubaid

اتخذت هذه الحضارة اسمها نسبة إلى موقع العبيد الذي يقع غرب أور بحوالى سبعة كيلومترات. وتعبر حضارة العبيد عن استقلال جنوب السهل العراقي إذ قدم من المظاهر الحضارية الجديدة ما أضفى عليها طابعاً مميزاً يتفق مع طبيعة القسم الجنوبي من العراق، وانتشر التأثير الحضاري لحضارة العبيد حتى استوعب معظم شمال العراق.

ومن المواقع التي تمثل هذه المرحلة الحضارية في الجنوب: تل العبيد، والوركاء، ورأس العميان، وتل العقير، وأريدو، وأور، ولجش، والحاج محمد. أما المواقع التي تمثلها في الشمال فهي: تبة جاورا (تل الأربجية) وجبل سنجار وتل البراك ونوزي وتل حسونة ونينوى وتل حلف. ويشير ذلك إلى أن التأثير الحضاري لحضارة العبيد قد امتد إلى كل أرض بابل جنوباً وشمالاً وكذلك كل أرض آشور وتخومها الشمالية والشرقية والغربية حتى حدود الخابور.

---

(١) انظر: أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص ٢٧٨ وما بعدها.

وتعتبر حضارة العبيد أول حضارة في العراق القديم تنتشر في الشمال والجنوب رغم كونها جنوبية الأصل، ويظهر الإنتاج الحضاري الجديد في العديد من المجالات مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة، والأواني الحجرية والأدوات النحاسية والعظمية والطينية، والعمارة في مجالاتها الدينية والمدنية، كما ظهر التفوق الحضاري كذلك في ظهور بعض المفاهيم الفكرية في كل من المراكز الحضارية لحضارة العبيد في الجنوب والشمال، وقد أثبتت الدراسة المقارنة لحضارات العبيد الشمالية والجنوبية وجود تشابه واختلاف بين إنتاج هاتين الحضارتين ولكنهما ينتميان أصلاً إلى حضارة واحدة، سرعان ما تأثرت بالبيئة المحيطة بها فأعطتها شكلها المميز الذي انطبع على مظاهر إنتاجها الحضاري في مجالاته المادية المتعددة وكذلك في مجالاته الفكرية.

وفيما يتصل بأصل حضارة العبيد، فهناك من الباحثين من يرى أنها ليست متطورة من حضارات العراق السابقة لها، ويذهب بعضهم إلى القول بأنها ترجع في أصولها إلى الهضبة الإيرانية، حيث جاءت هجرة من غرب إيران في أوائل الألف الرابعة قبل الميلاد أو قبلها بقليل وذلك أثر حدوث تغير مفاجىء أدى إلى حدوث جفاف في مواطنهم الأصلية، وفي نفس الوقت فإنه لا يستبعد أن تكون قد حدثت هجرات أخرى سامية من ناحية الغرب اتجهت إلى بلاد النهرين بالتسلل السلمي حيناً وبالغزو القبلي حيناً آخر(١).

ولقد أدى الكشف في شمال الجزيرة العربية وشرقها عن العديد من المواقع الأثرية التي تنتمي إلى حضارة العبيد، إلى اتجاه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود علاقات بين سكان شرق شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، ويرى أصحاب هذا الرأي أن مجموعات بشرية من شرق الجزيرة العربية قد هاجرت إلى السهل الفيضي القريب منهم حيث حدث تبادل بين جنوب العراق وشمال شرق الجزيرة العربية في مجال الصناعات الحجرية والمنتجات

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

البحرية مثل الأصداف واللآلىء أثناء عصر العبيد[١].

كما أن هناك من الباحثين من يرى أن أصحاب حضارة العبيد قد جاءوا من المنطقة الشمالية في شمال العراق نفسه واتجهوا ناحية الجنوب، حيث أقاموا هذه الحضارة[٢].

ونتناول فيما يلي المظاهر الحضارية المتعددة لحضارة العبيد في جنوب بلاد النهرين وشمالها، ونبدأ بالمظاهر الحضارية في الجنوب.

ففي مجال الصناعات الفخارية، يلاحظ تأثر فخار العبيد المبكر بشكل واضح بفخار حضارتى أريدو والحاج محمد السابقتين، أما الإنتاج الفخاري في الطبقات التالية، فقد تضمن تصميمات عبارة عن أشرطة وخطوط عريضة مستقيمة ومقوسة، كما تضمن أشكالاً نباتية مثل الورود وأوراق الأشجار، وزود فخار العبيد أحياناً بالصنابير والأذان الصغيرة والمقابض ويلاحظ أنه لم يتبق من موقع العبيد إلا عدد ضئيل من الأواني الفخارية[٣]، بينما كشف في المواقع الأخرى في الجنوب على الكثير من طرز هذه الأواني، ومن هذه المواقع تل العقير (حالياً تل إبراهيم) جنوب بغداد بحوالى ٥٠ ميل. (شكل ٦٠)[٤].

ومن الصناعات الفخارية الهامة في جنوب العراق ما كان يتصل بمهنتي صيد الأسماك والزراعة، فلقد كشف عن مسامير مثنية من الطين، وفؤوس ومناجل في العديد من مواقع هذه الحضارة في الجنوب (شكل ٦١)[٥] ووجدت بعض المناجل وعليها بقايا القار عند مقابضها.

وفي مجال العمارة، فلقد شيدت المساكن من البوص والطين وبعضها

---

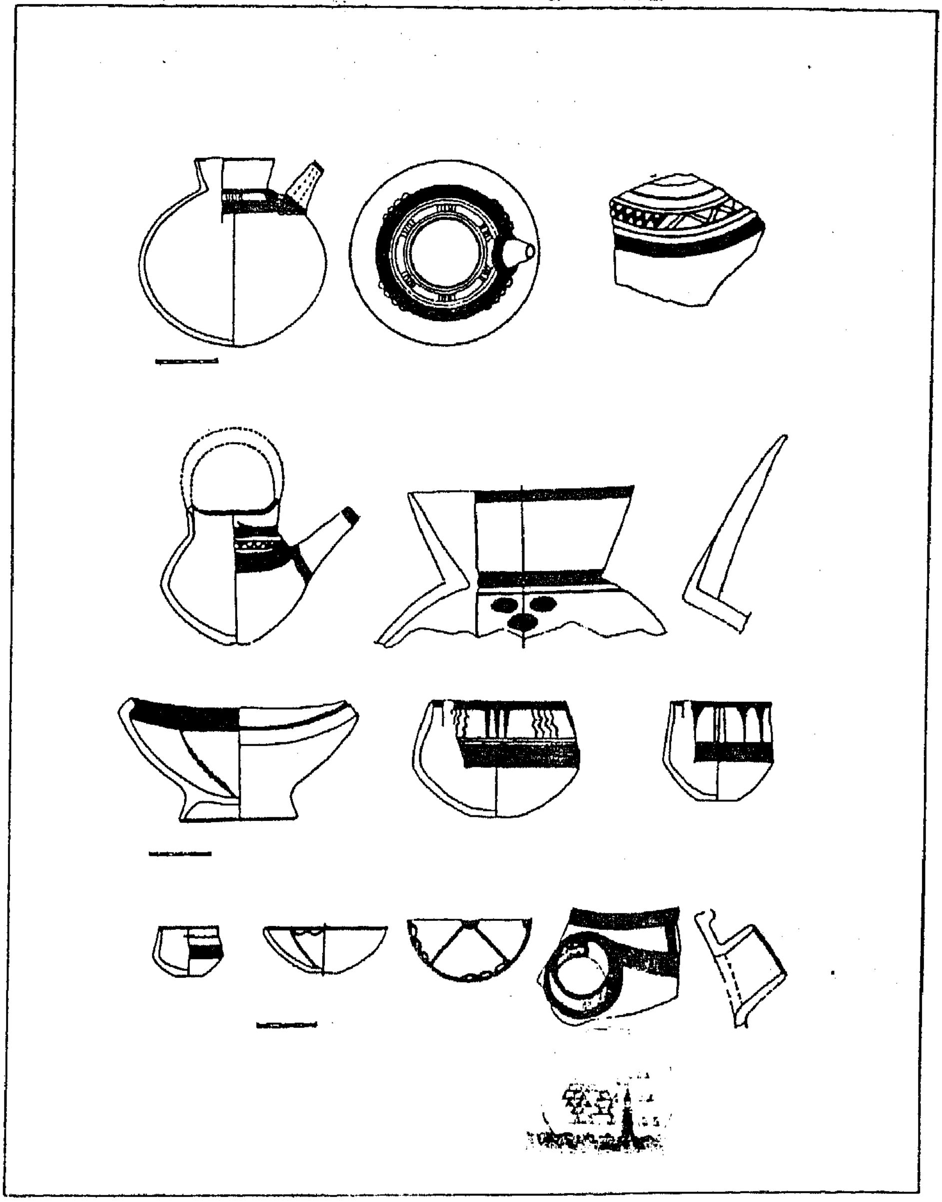
(١) Abdullah Hassan Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, The Problem of Interregional Interaction, Miami, Folorida 1974, p. 1 - 20.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) M. Mallowan, op. cit., p. 357.

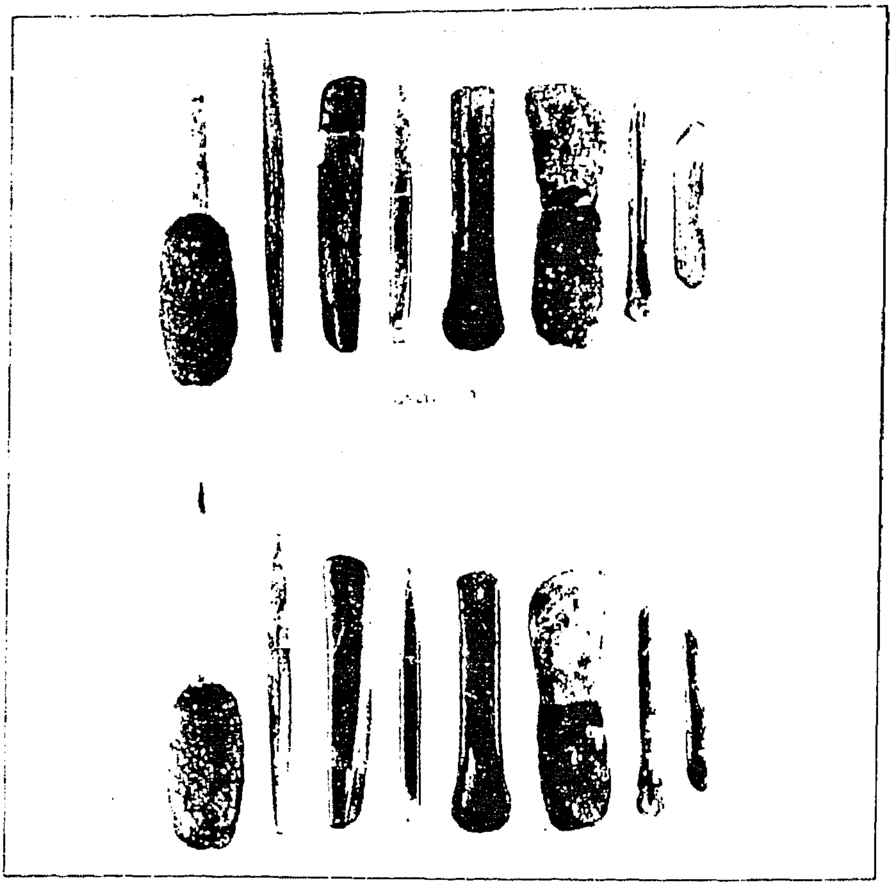
(٤) S. Lioyd, and F. Safar., «Tell Uqair», in JNES. vol. 2 (1943)I p. 150, pl. XXI.

(٥) Ibid., pl. XXVIII (b).



شكل (٦٠)

بعض نماذج الأواني الفخارية وزيناتها من موقع تل العقير



شكل (٦١)

بعض نماذج للمناجل الطينية من موقع تل العقير

كان من الآجر، وقد كشف في تل العقير عن منطقة استقرار من عصر العبيد تضم سبع طبقات أثرية، ويلاحظ أن الموقع، مثله مثل باقي المواقع التي كشف عنها في جنوب بلاد النهرين والتي شيدت فوق تربة مستنقعات، لم يكشف في أولى طبقاته عن أية آثار للجدران، حيث كانت المساكن الأولى تشيد من حزم البوص السميك أو الحصير، ولكن في الطبقات التالية بدأ أهل هذه الحضارة في

استخدام الجدران في بناء منازلهم حيث شيدت من كتل من الطين. وفي الطبقات العليا كشف عن بقايا منازل، ويلاحظ أنه كشف عن منزل يرجح أنه كان لشخصية كبيرة. وذلك نظراً لما يحتويه من حجرات وافنية وممرات وحجمه الكبير نوعاً ما[1]. أما معابد القسم الجنوبي فمن أفضل ما يمثلها معبد أريدو الذي سبقت الإشارة إليه.

وفيما يتعلق بالمظاهر الحضارية لحضارة العبيد الشمالية فيلاحظ أنه عثر على الإنتاج الحضاري الخاص بها في العديد من المواقع الأثرية الشمالية التي سبق الإشارة إليها، ومن أهم هذه المواقع تبة جاورا، ويحتوي هذا الموقع على عشرين طبقة أثرية تنتمي الطبقات من ٢٠ ـ ٩ إلى عصر حضارة العبيد أما الطبقات الثمان العليا فهي ترجع إلى عصر حضارتي الوركاء وجمدة نصر.

وفيما يتصل بالأواني الفخارية، فيلاحظ أن أولى طبقات هذا الموقع (الطبقة ٢٠) قد أنتجت فخاراً يشبه فخار تل حلف المجاور، ولكن بدءاً من الطبقة التاسعة عشر، بدأ يظهر الفخار الخاص بحضارة العبيد. ويتميز فخار العبيد في تبة جاورا بأحجامه الصغيرة ورقة جدرانه، وتزيين معظم أجزائه من الخارج فقط بزينات معظمها هندسية. ومن الأشياء المميزة في أشكال الأواني، هي الأواني التي توصف بأنها مزدوجة التحدب، والتي زينت من الداخل، ويلاحظ أيضاً أن زينة الأواني بواسطة النقط والتي كانت معروفة في تل حلف قد ندر استخدامها في جاورا، وأصبحت الألوان قاتمة (شكل (٦٢) [2].

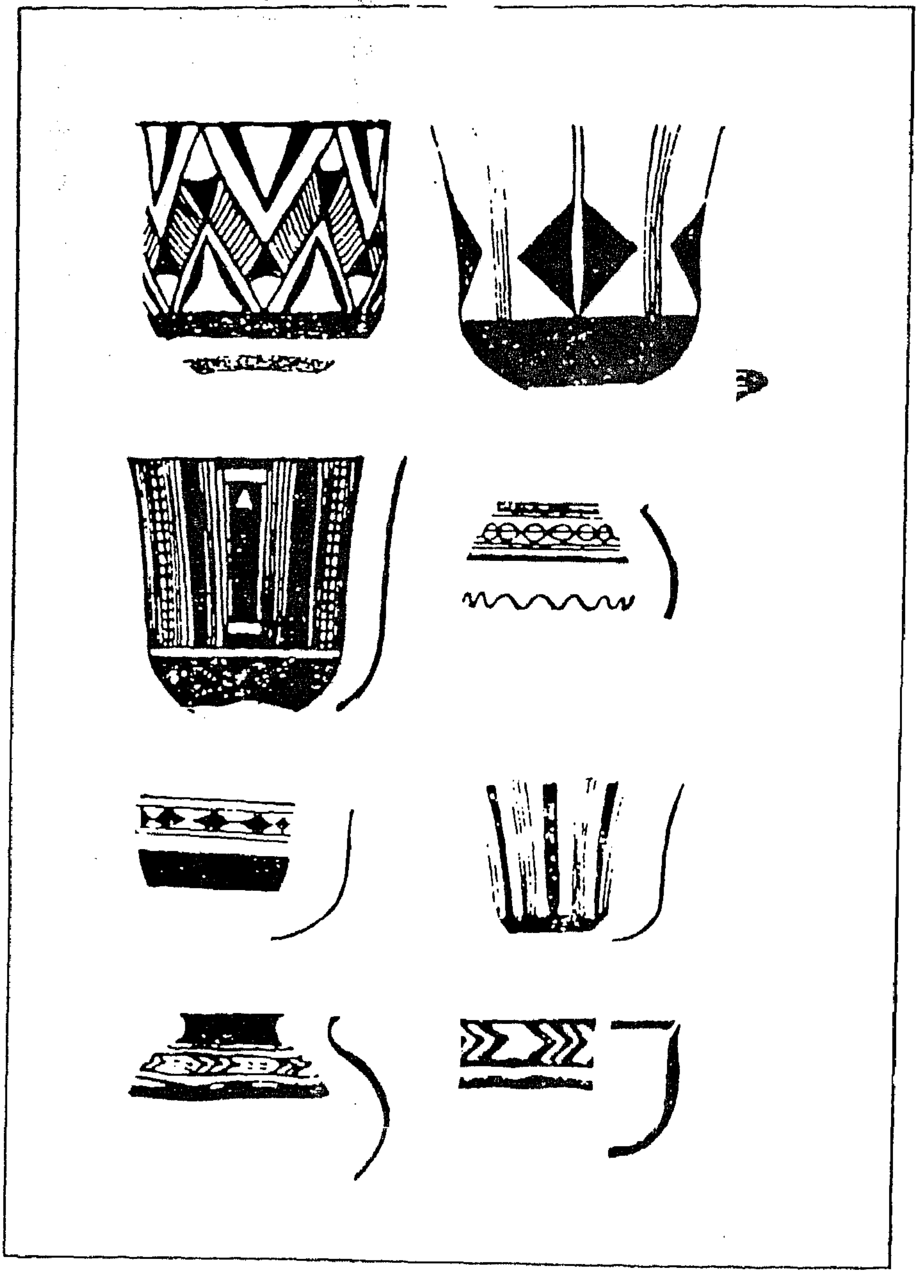
ويلاحظ أن الفخار الذي عثر عليه في تل العربجية قد زين بتصميمات هندسية عبارة عن أشرطة وخطوط مستقيمة ومتعرجة ومثلثات ونقط، كما زين أحياناً بأشكال نباتية مثل أوراق الشجر شكل (٦٣) [3] ويمثل موقع تل البراك آخر

---

(١) M. Mallowan, op. cit., p 369.

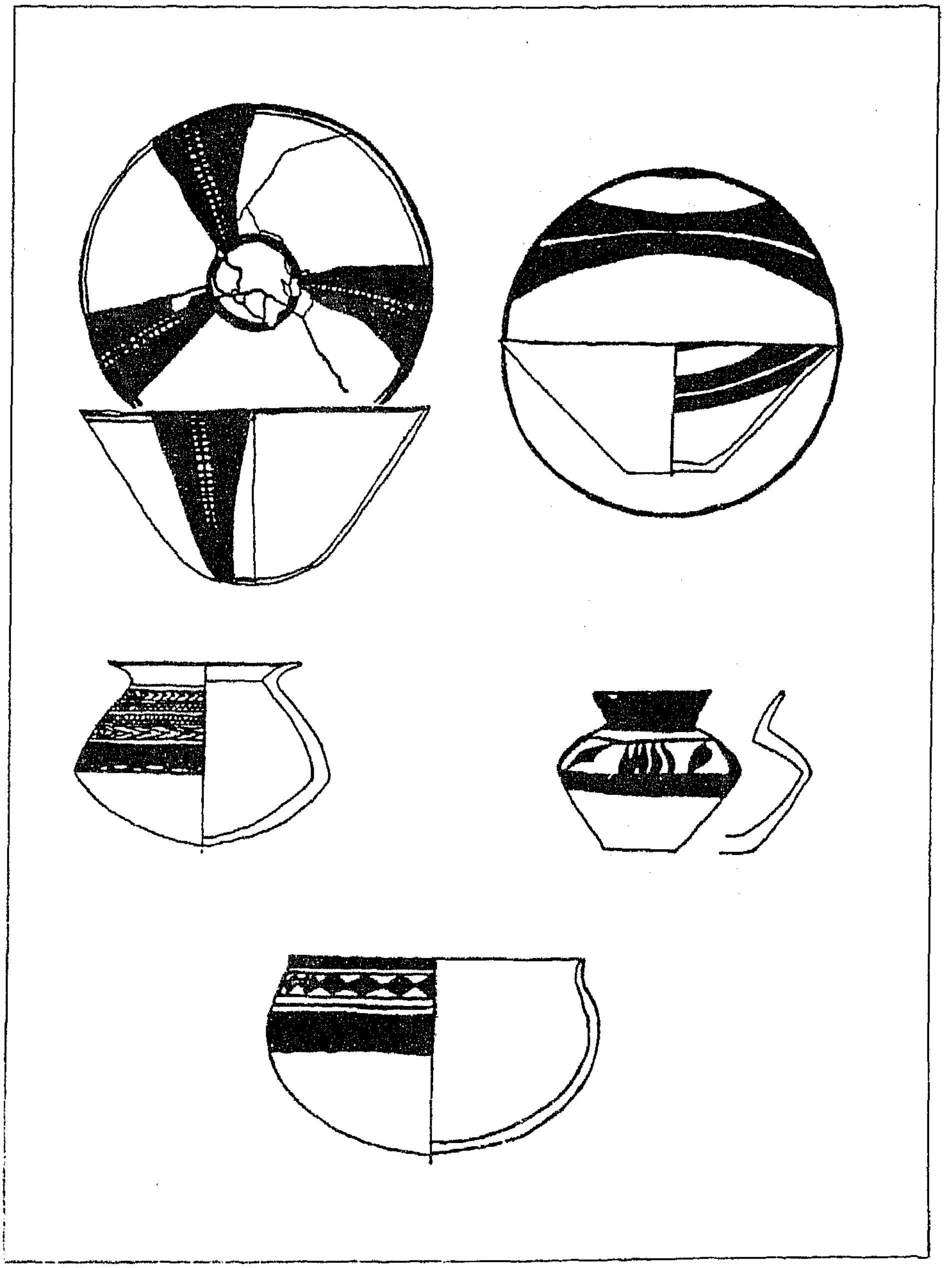
(٢) بورهارد برنيتيس: نشوء الحضارات القديمة ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق، ١٩٨٩، ص ٨٢.

(٣) M. Mallowan, op. cit , Fig. 34.



(شكل ٦٢)

بعض نماذج الأواني الفخارية في تبة جاورا



(شكل ٦٣)

بعض نماذج الأواني الفخارية في تل العربجية

المواقع التي انتشر فيها فخار العبيد في شمال العراق.

ولقد كشف عن العديد من المصنوعات في مواقع العبيد الشمالية وبخاصة صناعة الحلى حيث استخدمت العديد من الأحجار مثل الفيروز والعقيق والهيماتيت والرخام والحجر الكلسي والكوارتز والأوبسيديان واللازورد في صناعة الخرز، كما صنع الخرز أيضاً من العاج والأصداف، ومن الملاحظ أيضاً استخدام الحلي الذهبية بكثرة في موقع تبه جاورا حيث كشف عن خواتم وأزرار صغيرة ووردیات وحلى هلالية الشكل مأخوذة من صفائح معدنية ومعلقة على قماش الملابس أو أكاليل الرأس، كما عثر أيضاً على قطعة حلى صغيرة مصنوعة من خليط الذهب والفضة وهي مشكلة على هيئة رأس ذئب، وكانت مؤلفة من عناصر وأجزاء منفصلة ملحومة بمهارة فائقة(١).

وتتميز حضارة العبيد الشمالية بإنتاج أختام الطابع، حيث كشف عنه في تبه جاورا وبخاصة في الطبقة (١٣) حيث عثر على العديد من نماذج طبعات الأختام، ويلاحظ أن أولى الأختام التي كشف عنها كانت عبارة عن أقراص بسيطة وأزرار ومربعات من الحجر وكانت تحوي رسوماً بسيطة من خطوط مستقيمة أو متقاطعة، كما تضمنت أشكالاً إنسانية وحيوانية (**شكل ٦٤**)(٢)، ورسمت على بعض الأختام بعض الطقوس الدينية، ومنها طقوس الرقص المقدس، ومن بين هذه الأختام رسم شخص وقد ارتدى قناعاً له قرون وقد تبعه وعل، كما توجد مناظر الصيد(٣).

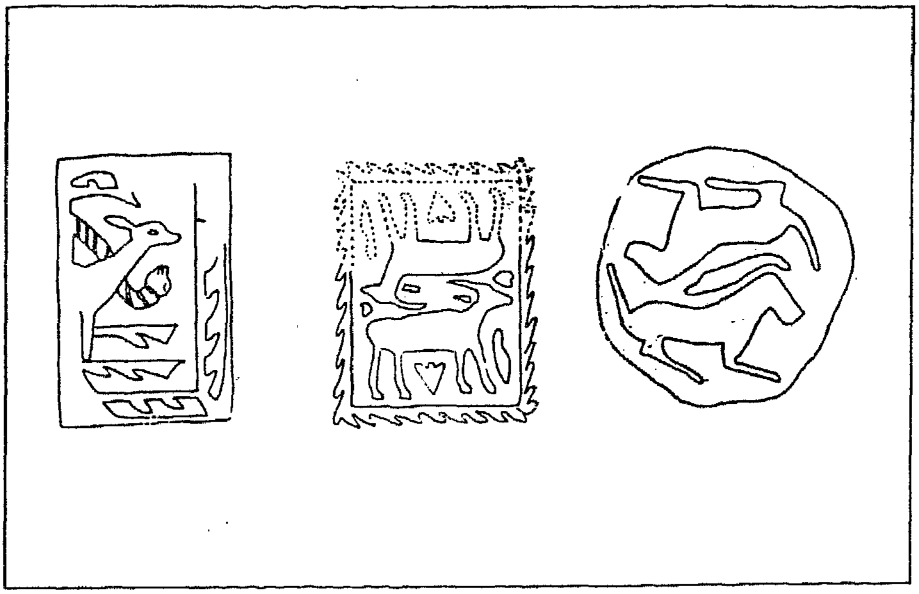
وفيما يتعلق بالإنتاج الحضاري في مجال العمارة، فقد شيدت المنازل في مواقع حضارة العبيد الشمالية من الآجر، وقد وجدت بقايا المنازل في موقع تبة جاورا (الطبقة ١٩) خلف المعبد، حيث كشف عن مجموعتين من المساكن

---

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) نفس المرجع السابق، شكل ٤٧.

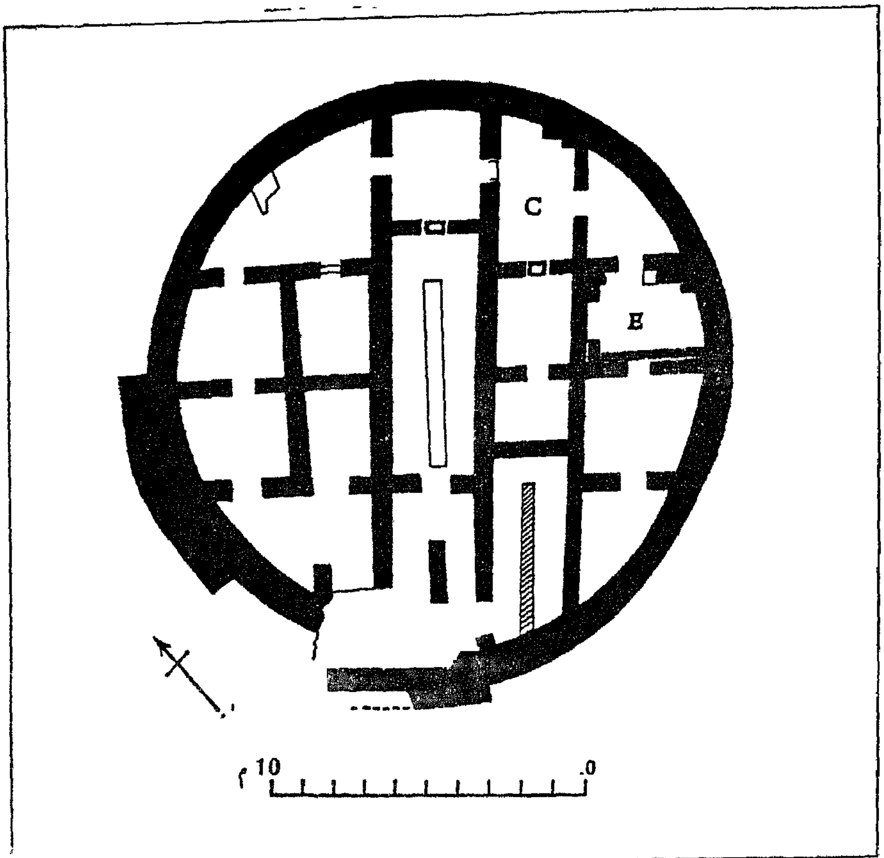
(٣) M. Mallowan, op cit., p 392.



شكل (٦٤) بعض نماذج الأختام من موقع تبة جاورا

حيث لم تخصص منطقة للسكن وأخرى للعبادة، وأقيمت بعض جدران المنازل فوق أساسات من الحجر، وزودت المنازل بالأفران والأواني الفخارية الكبيرة التي استخدمت في تخزين المياه والحبوب. ولقد كشف في الطبقة (١١) في تبة جاورا عن بناء مستدير عرف باسم «البيت المستدير» (شكل ٦٥) [١] وهو يتميز بجدرانه التي يبلغ سمكها حوالى المتر، كما يبلغ قطر البناء ١٨ م، ويبدو أنه يحتوي على ما لا يقل عن ١٧ غرفة. وقد اختلف الباحثون حول طبيعة هذا البناء والغرض منه، فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد بأنه بناء ديني، بينما يرى آخرون أنه ليس لتصميمه أية أهمية طقسية وليس هناك أي مبرر لإعطائه أي غرض ديني، وذلك حيث ظهرت الأبنية الدائرية في مناطق عديدة من الشرق الأدنى القديم منذ العصر الحجري الوسيط، وكانت تمثل بالإضافة إلى الأبنية المستطيلة

(١) Ibid., Fig. 32.



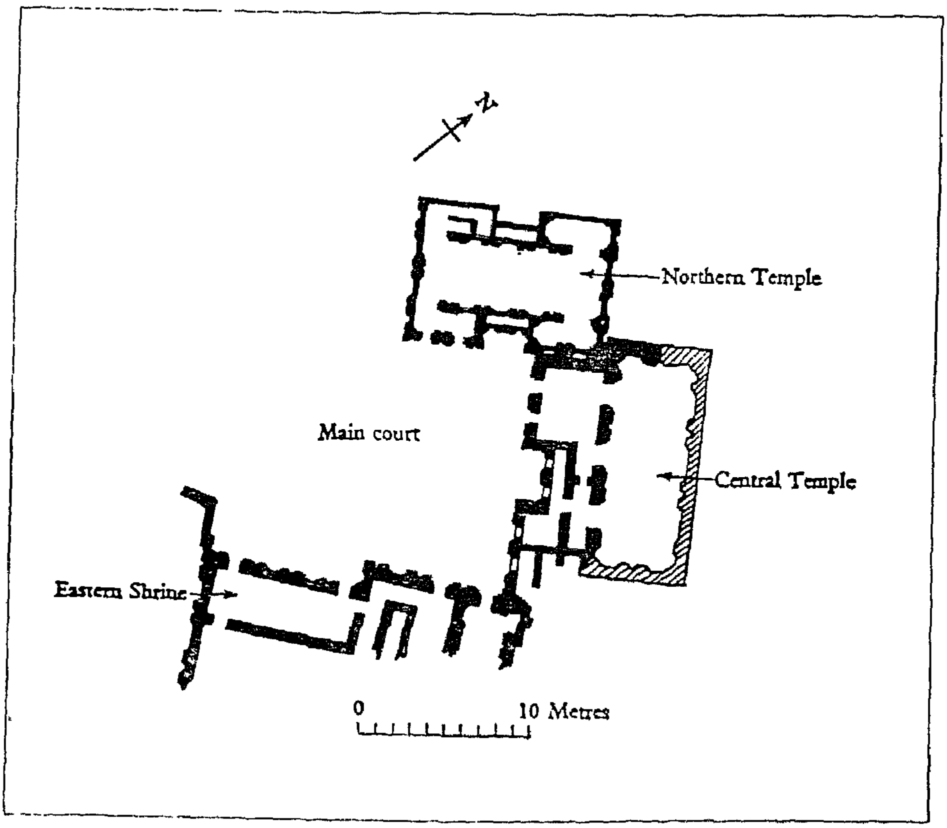
شكل (٦٥) رسم تخطيطي للمنزل المستدير في تبة جاورا

واحداً من نوعين بسيطين للأبنية الدائمة المتطورة من تقاليد مختلفة في بناء المنازل المؤقتة للسكان المتنقلين[١]. وعلى ذلك فإنني أعتقد أنه يمثل أحد المنازل الدنيوية، ولقد ظهرت في مصر أيضاً منازل دائرية وذلك في عصر حضارة المعادي.

وتفوق إنسان حضارة العبيد في المجال المعنوي حيث عثر على آثار

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

المعابد والمقابر، وفيما يتصل بالمعابد، فلقد كشف في موقع تبة جاورا على العديد من المعابد التي يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم مبكر ويتضمن معابد ذات أشكال مستطيلة مبنية من الأجر، وتشغل مساحة كبيرة، وتتضمن فناء تتوسطه مائدة قرابين. أما القسم المتأخر فيعبر عنها ثلاثة معابد شيدت بحيث تواجه أركان كل منها الجهات الأربع الأصلية، وقد زودت جدرانها بكثير من الركائز التي استخدمت كدعامات للجدران، وقد طليت بعض جدران المعابد بلون أبيض. (شكل ٦٦) (١).



شكل (٦٦) رسم تخطيطي لمعبد في تبة جاورا

(١) M. Mallowan, op. cit., pp. 378 - 386, Fig. 33

ولقد عثر في تبة جاورا على الكثير من المقابر ويلاحظ أن الموتى كانوا يدفنون أسفل أرضيات المنازل أو بجوار الأبنية الدينية، كما دفن بعض الكبار في مقبرة خارج حدود القرية، أما الأفراد البارزون في المجتمع فقد دفنوا ضمن قبور مبنية بعناية داخل الأبنية السكنية، ولقد كشف عن أكثر من ثمانين قبراً من هذه القبور التي شيدت من الحجارة أو الطين اللبن وسقفت بألواح خشبية أو صفائح حجرية، واحتوى كل قبر على جسد ميت واحد، ولقد دفن في وضع منثني، وكان الميت يدفن بلباسه الكامل وكان يغطي أحياناً أو يلف بحصير من القصب، وقد عثر في هذ المقابر على الحلى الشخصية الخاصة بالموتى(١). ويستدل من ذلك على وجود عقيدة لديهم في الحياة الآخرة وأنهم قد اعتقدوا في البعث والخلود مما يشير إلى التطور الفكري الذي وصل إليه الإنسان العراقي القديم عند نهاية عصر حضارة العبيد مما مهد للنقلة الحضارية التالية في العراق القديم والتي تعرف باسم «عصر حضارة الوركاء».

٤ ـ حضارة الوركاء: Warka

يعتبر عصر حضارة الوركاء هو العصر الحضاري التالي لعصر حضارة العبيد في العراق القديم، والوركاء هو الاسم الحديث لاسم المدينة القديم أوروك Uruk، وهي التي وردت في العهد القديم ايريك Erech. وهي تقع على ضفاف نهر الفرات شمال غرب أور بحوالى ٦٥ كيلومتر. ولقد ساد الاعتقاد بأن المدينة في عصور ما قبل الأسرات كانت تشغل مساحة ٢٠٠ فدان، وكان ثلث هذه المساحة مخصصاً للمعابد والثلثان الأخران كانا أبنية سكنية، ولقد أثبتت الأبحاث الأثرية التي أجريت في هذا الموقع أن عملية الإستيطان بلغت حجماً كبيراً حتى في عصورها المبكرة أيام عصر حضارة العبيد(٢). ولقد ارتبطت

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) A L. Perkins, The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949, p. 97 - 161.

المدينة في الأدب السومري بشخصية الملك جلجامش الذي بنى فيها الكثير من الأبنية المدنية والدينية.

وتتمثل حضارة الوركاء في العديد من المواقع الأثرية في العراق مثل أريدو وأور وتلو وتل العقير، كما انتشرت حضارة الوركاء في قسمها المبكر شمال العراق وظهر ذلك على وجه الخصوص في مواقع تبة جاورا ونينوى ومنطقة سنجار.

وقد اختلف العلماء فيما يتعلق بأصحاب تلك الحضارة، هل هم ينتمون إلى العنصر السومري الذي ثبت دخوله جنوب العراق في عصور ما قبل الأسرات بوجه عام والذي كان له دوره الحضاري الهام المتصل بكل من وادي السند وجنوب العراق ومصر في عصر ما قبل الأسرات الأخير، أم إلى العنصر السامي الذي سبق له الاستقرار أيضاً في جنوب العراق، والذي اتجه الرأي إلى اعتباره ذو مكانة خاصة في عصر حضارة الوركاء على أساس وجود شبه بين فخار الوركاء والفخار السامي في المواقع الفلسطينية والسورية، ويغلب أن العنصريين السومري والسامي وعناصر أخرى عيلامية وجبلية متسللة من منطقة جبال زاجروس في غربي إيران قد تواجدت في جنوب العراق في تلك الفترة، ولكن كان للسومريين أولوية حضارية خاصة في تلك المرحلة، وكذلك في عصر حضارة جمدة نصر التالية لها.

ويعتبر عصر حضارة الوركاء من أهم المراحل الحضارية في مرحلة التكوين الحضاري في تاريخ بلاد النهرين، وهي تمثل مرحلة عصر ما قبل الأسرات الأوسط في بلاد النهرين، ففي المجال المادي بدأت المدن في التكوين رغم ما تكلفته من جهود شاقة اتصلت بعملية ترسيب الغرين والصراع المتمثل بين المياه المالحة في الخليج العربي والعذبة في نهري دجلة والفرات وروافدهما. ولكن بفضل القدرة على التحكم في القوى المائية والتعاون بين العناصر المستقرة في الجنوب قد تحققت عملية بناء المدن لأول مرة في

الجنوب ابتداء من عصر حضارة العبيد، وتمثلت بصورة أوسع في عصر حضارة الوركاء، ويعتبر هذا التعاون الجماعي من الظواهر التي تميز بها العراق القديم رغم اختلاف العناصر البشرية في الجنوب وتباين لغاتها وتقاليدها الحضارية، ولكن أدى تجمعها تحت تأثير التفوق الحضاري السومري إلى المساعدة على تحقيق ذلك التعاون دون تمييز عنصري فيما بينها. وقد استمرت ظاهرة عدم التفرقة العنصرية بين الساميين والسومريين وغيرهم في جنوب العراق القديم على الرغم من تمكن السومريين من التحكم في المجالات السياسية والحضارية، إلى أن تزداد عناصر الاحتكاك والتنافس السياسي خلال الألف الثالث ق.م والتي تؤدي إلى تناوب السيادة السياسية بين السومريين والساميين(١).

ويمكن تقسيم حضارة الوركاء إلى قسمين متميزين أحدهما مبكر ويدخل في نطاق عصر ما قبل الكتابة ويتضمن الطبقات من ١٢ ـ ٦، والآخر يطلق عليه تسمية عصر ما قبيل الكتابة ويتضمن الطبقات ٥ ـ ٤، ويلاحظ أنه يشترك معه في هذه الصفة العصر التالي له وهو عصر حضارة جمدة نصر.

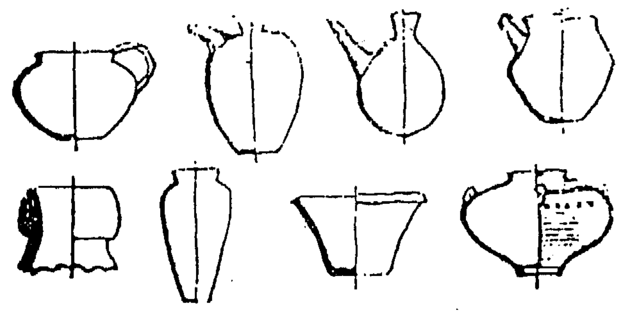
ويمثل الفخار الإنتاج المميز للمرحلة المبكرة من عصر حضارة الوركاء، وهو من أنواع مختلفة، شكلاً ولوناً، فمن ناحية اللون، فلقد ساده اللون الواحد الرمادي أو الأحمر المصقول، كما أن منه الأسود المصقول والمزين بنماذج ملونة، وإن كان هذان النوعان الأخيران قليلين، ويلاحظ أن الفخار المزين لا يوجد في غير الطبقات المبكرة من عصر حضارة الوركاء، وظهر ذلك في موقعي أريدو والوركاء، ويغلب على زينة هذه الأواني الشرائط العريضة والأشكال الهندسية البسيطة(٢).

أما الفخار البسيط غير الملون، فكان من أكثر طرزه شيوعاً: الجرار والآنية

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) M. Mallowan, op cit., p. 362.

ذات الصنابير، وذات المقابض وذات الآذان، وظهر كذلك الفخار الذي أطلق عليه «الأواني النذرية» وهي أواني خشنة مصنوعة باليد، وتبدو في شكل سلاطين تتسع عند الحافة المشطوفة وتضيق تدريجياً نحو القاعدة المسطحة، ومن هذه الطرز كذلك الجرار الطويلة التي تتميز بضيق اتساع الإناء وقصر الرقبة، هذا فضلاً عن الأواني ذات الحواف المنثنية إلى الخارج بشكل فوهات القوارير[1]، (شكل ٦٧) ولقد انتشر فخار الوركاء شمالاً حيث عثر عليه في العديد من المواقع الشمالية مثل نينوى ومنطقة جبل سنجار.



شكل (٦٧)
بعض نماذج الأواني من عصر حضارة الوركاء

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٤٠ وكذا:

S. Lioyd, «Urk Pottery, A Comparative Study in Relation to Recent Finds at Eridu», in Sumer, 4, (1948), 44 - 49.

وتميزت هذه المرحلة المبكرة في جنوب بلاد النهرين بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية مثل الأزاميل ورؤوس الحراب والإبر وخطاف صيد الأسماك، إلا أنه يلاحظ أن القسم الشمالي من حضارة الوركاء كان أكثر تفوقاً في إنتاج المصنوعات المعدنية التي شملت بجانب النحاس الذهب وكذلك أيضاً المصنوعات الحجرية التي استخدمت في الزينة حيث استخدمت الأحجار الكريمة وشبه الكريمة[1].

أما عن المرحلة الثانية من عصر حضارة الوركاء، فلعل من أهم أثارها الفكرية التوصل إلى ظاهرة التعبير بالرموز التي أدت إلى اختراع الكتابة التي تعتبر من أهم بوادر عناصر النقلة إلى بداية العصر التاريخي، ويطلق على هذه المرحلة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تعبير مرحلة ما قبل الكتابة، وهي تنقسم بدورها إلى قسمين: أحدهما مبكر وهو يشمل الإنتاج الحضاري للمرحلة الأخيرة من عصر حضارة الوركاء، والآخر أكثر تطوراً، وهو ما يطلق على إنتاجه الحضاري تسمية عصر حضارة جمدة نصر.

وأقدم تسجيلات كتابية وصلتنا من المرحلة الأخيرة لعصر حضارة الوركاء تتصل بالأغراض الاقتصادية، وهي قوائم تتضمن إحصائيات خاصة بممتلكات المعبد من الحقول والأغنام وغيرها من الماشية، ودخله من المحاصيل والسلع المختلفة، وما يصرف عن طريقه، وقد كتبت هذه الوثائق على ألواح طينية بواسطة قلم من البوص حفرت به العلامات الكتابية على المادة الطينية وهي لا تزال طرية، وكانت أقدم العلامات الكتابية صورية، وعبرت كثير من العلامات عن اختزال الصور الكاملة إلى خطوط بسيطة أو أجزاء منها فقط.

وتظهر التطورات الحضارية الهامة لحضارة الوركاء في مجال العمارة الدينية، وبصفة خاصة المعابد المبنية من الأجر والتي تتميز بكون أسسها من الحجر الجيري، وتعرف هذه العمارة الدينية باسم «عمارة الزاقورات» وهي

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

المعابد المدرجة. والمعبد عبارة عن مبنى موجه إلى الجهات الأربع الأصلية، وهو بناء من اللبن يتكون من ثلاث درجات يصل بينها سلم يؤدي إلى القمة حيث يوجد المكان المقدس الذي هو عبارة عن حجرة مستطيلة الشكل ملحق بها بعض الحجرات الجانبية.

ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن أصل عمارة الزاقورات يرجع إلى العناصر الجبلية المتسللة إلى جنوب العراق والحاملة لطابع الارتفاع إلى أعلى في العمارة الدينية بحكم تأثرهم بارتفاع الهضاب الوافدين منها. إلا أنه يصعب تقبل هذا الرأي بسهولة، إذ يغلب أن وجود المعبد فوق سطح البناء المرتفع المدرج يهدف إلى اقتراب المعبد وهو منزل الإله من السماء التي كان يعتبر تأليهها في ذلك الوقت ذو أولوية خاصة في الديانة السومرية.

٥ ـ حضارة جمدة نصر: Jemdet Nasr[1]

أعقب طور حضارة الوركاء، المرحلة الأخيرة من العهود التي اصطلح على تسميتها بعصور ما قبل الأسرات، وقد أطلق على هذه المرحلة اسم «جمدة نصر» (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) وذلك نسبة إلى تل صغير يعرف بهذا الاسم قرب مدينة كيش القديمة. وانتشرت مراكز حضارة جمدة نصر في العديد من المناطق مثل الوركاء والعقير وتل أسمر. ويعد النصف الثاني من هذه المرحلة الحضارية أقرب إلى العهد التاريخي منه إلى عهد ما قبل الأسرات، وهو يقابل في مصر المرحلة الأخيرة من عصر جرزة وقيام مملكتي الصعيد والدلتا[2].

ويظهر الإنتاج الحضاري لمرحلة جمدة نصر في العديد من المجالات، ولعل من أبرزها مجال العمارة الدينية، حيث كشف عن العديد من المباني

(١) انظر:

H. Frankfort, «The Last Predynastic Period in Babylonia» in CAH, vol. I, part II, Cambridge, 1971, pp.81 - 92.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٦٧.

الدينية التي خصصت لإله السماء آن في المناطق الأثرية التي تنتمي لمرحلة جمدة نصر.

ومن هذه المعابد «المعبد الأبيض» الذي شيد في مدينة الوركاء، فوق تل صناعي يرتفع نحو ١٢ متراً عن مستوى السهل الممتد حوله ويشرف عليه، وسوروا جوانب هذا التل بسور ذى مشكاوات، وكان يؤدي إلى سطحه طريق صاعد، ودرج طويل بقي جزء منه، وتوسط المعبد الأبيض سفح التل واستكملت جدارنه هيئة المستطيل وتشكلت على هيئة مشكاوات متتالية تتعاقب في كل منها عدة مستويات داخلية، وقد توسطت المعبد مقصورته الرئيسية التي تضمنت في داخلها المذبح ومائدة القرابين[١] (شكل ٦٨).

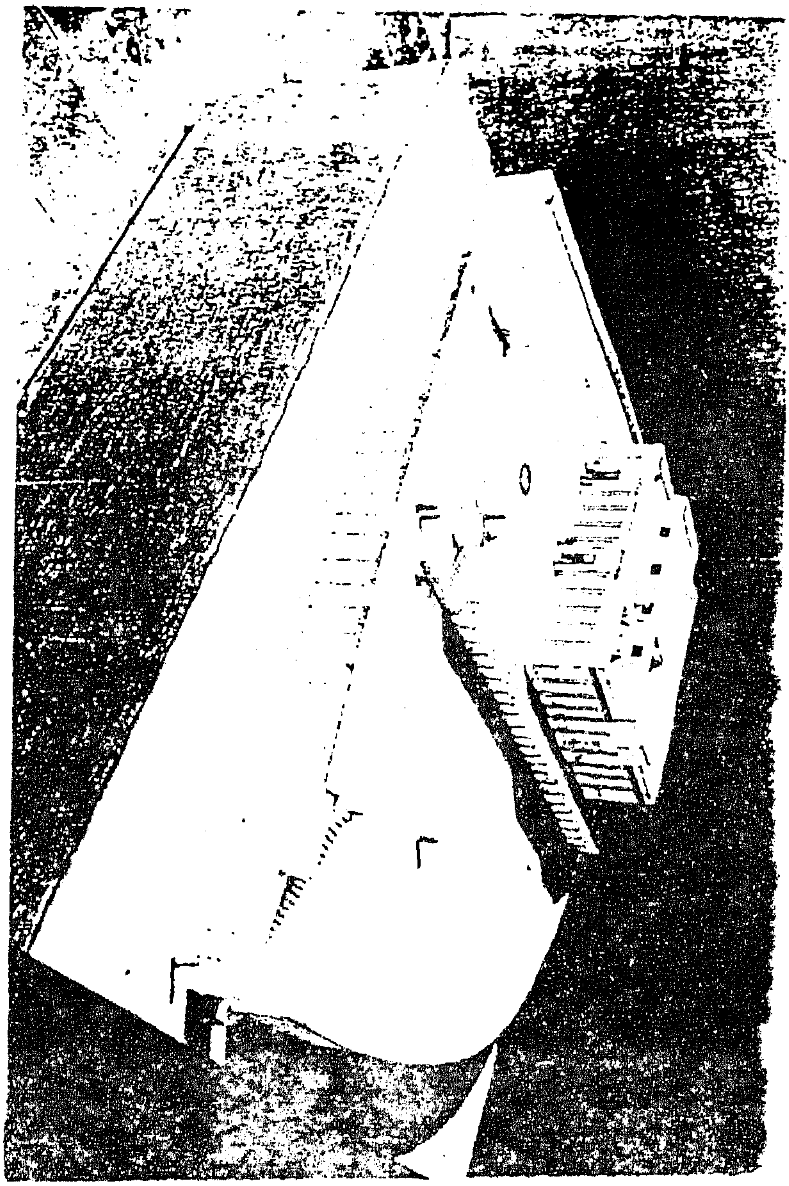
وكشف في تل العقير، جنوب بغداد بحوالى ٨٠ كم على بقايا معبد يطلق عليه «المعبد الملون» ويتميز بوجود الرصيف الذي بنى فوقه في حالة جيدة، وذلك بالإضافة إلى أن أقساماً عديدة من الأسوار ما تزال قائمة على ارتفاع بضعة أمتار، ومخطط هذا المعبد يطابق تماماً المعبد الأبيض في الوركاء، باستثناء أن أدراجه الموجودة في أحد الأطراف قد حل محلها المذبح الموجود على المحور الرئيسي والذي يتم الوصول إليه بواسطة مجموعة من الدرجات. (شكل ٦٩)[٢] وكانت الواجهات الداخلية مغطاة برسوم جدارية ملونة بألوان متعددة، فكان الجزء السفلي من الجدران ملون باللون البني الفاتح تعلوه حزمة من الزخارف الهندسية، ويمتد فوق ذلك افريز من الأشكال البشرية والحيوانية لم يبق منها سوى القسم السفلي. والزخارف التي بقيت في حالة أفضل فهي الزينات الموجودة على واجهات المذبح الرئيسي، وعلى الجهات المقابلة للدرج ظهرت لوحات تمثل نمرين للحراسة منقطين بالأحمر والأسود[٣]، (شكل ٧٠).

---

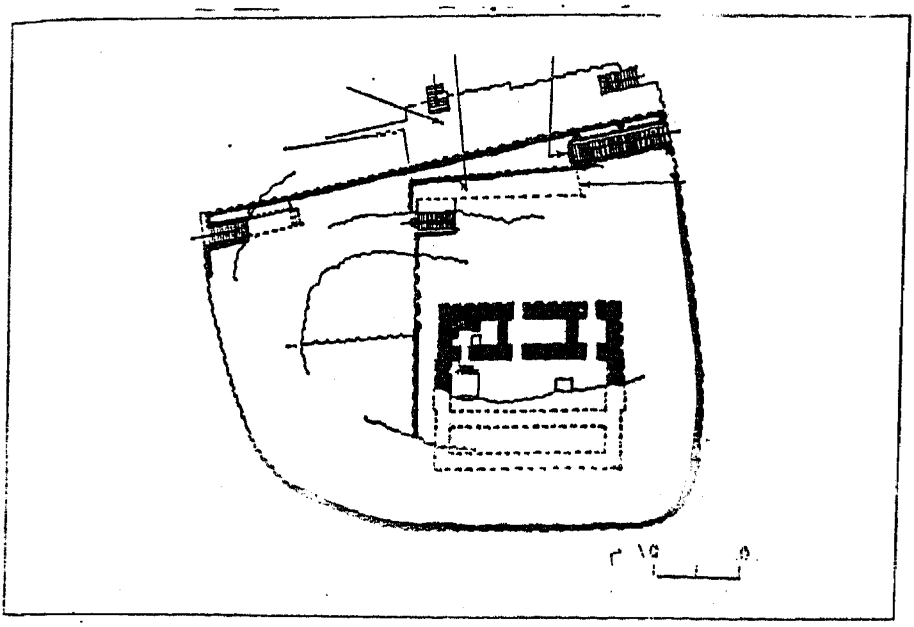
(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٢) M. Mallowan, op. cit., pp. 368 - 371, fig. 31.

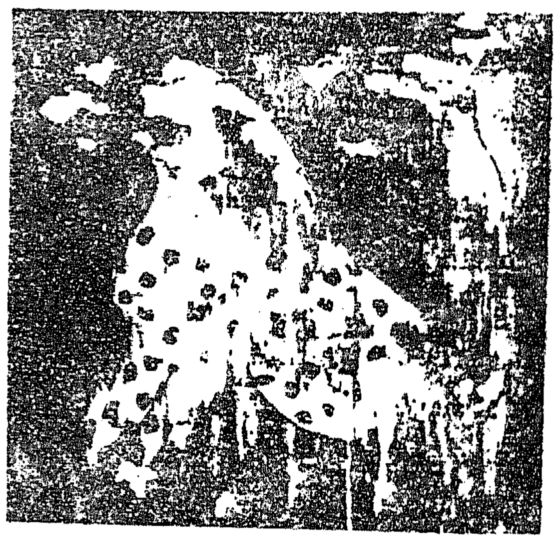
(٣) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٧٢ ـ ٧٥، شكل ٢٣.



شكل (٦٨) نموذج تسميمي للمعبد الأبيض .



شكل (٦٩) رسم تخطيطي للمعبد الملون في تل العقير



شكل (٧٠) شكل لفهد ملون مرسوم في مذبح المعبد الملون في تل العقير

ويتميز فخار جمدة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وقد ظهر في هذه المرحلة نوعية مميزة من الفخار أطلق عليها «فخار جمدة نصر»، وهو جيد الإحراق والصقل ومن أحجام مختلفة، وأغلب آنيته ذات شكل كروي منتفخ، ولها قواعد مسطحة أو مقوسة، وقد زودت فوهاتها أحياناً بسدادات من الطين لتغطيتها.

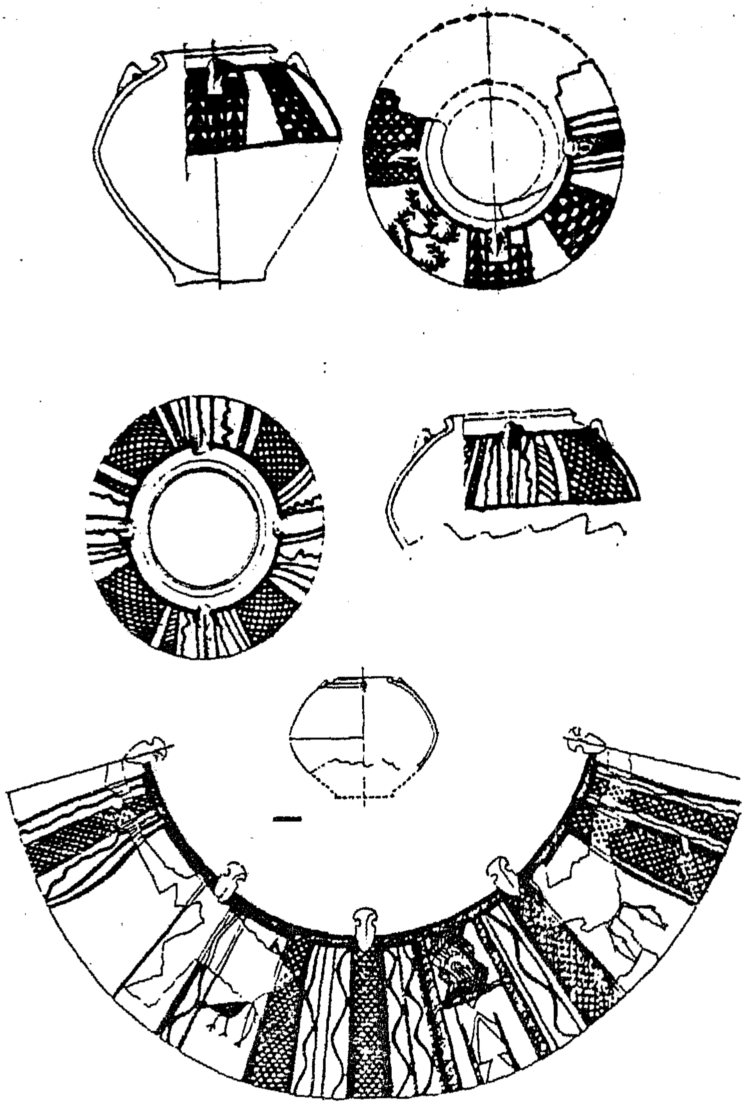
وشغلت زينة هذه الأواني غالباً الجزء العلوي من الإناء بما فيه الرقبة وهي تتكون من أشكال هندسية سوداء وحمراء فوق أرضية فاتحة اللون، أما باقي الإناء فلا تتجاوز زينته طلاء بلون أحمر أو مائل للحمرة، ومن هذه الأشكال الهندسية المثلثات والمربعات والأشرطة العريضة والخطوط المتقاطعة والمستقيمة والمموجة[1]. وعند نهاية هذه المرحلة شاعت صناعة الجرار الفخمة ذات الأعناق والمزينة برسوم هندسية باللونين الأحمر والأصفر والتي تشكل لوحات تظهر فيها رسوم لحيوانات وأوراق أشجار وظهرت في بعض الأحيان رسوم إنسانية، وكان يغطي القسم الباقي من سطح هذه الجرار بدهان أرجواني اللون يشكل سطحاً لامعاً[2] شكل (٧١).

وقد انتشر فخار جمدة نصر في جنوب العراق، في أور والوركاء وكيش وتل العقير، وفي التخوم الشرقية في خفاجى وتل أسمر، كما امتد إلى منطقة كركوك، وربما امتد إلى مناطق أبعد في الشمال حتى وصل إلى نينوى، حيث يشبه فخار نينوى القديم فخار جمدة نصر، ويبدو أن ذلك كان بواسطة التجارة، وربما ينطبق ذلك أيضاً على موقع تبة جاورا، وإن كان يلاحظ أنه في أخريات عصر جمدة نصر وبداية العصر التاريخي في الجنوب أن فخار نينوى هو الذي

(١) فرج بصمة جي: «بحث في الفخار ـ صناعته وأنواعه في العراق القديم» مجلة سومر، العدد ٢١، لسنة ١٩٦٥، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥، شكل ٣٠، وكذا:

P. Delougaz, Pottery from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 63, Chicago, 1952.



(شكل ٧١) نماذج لفخار جمدة نصر الملون

ساد في شمال العراق[١].

وقدم عصر حضارة جمدة نصر العديد من النماذج الهامة للنحت على الحجر والتي تلقي بعض الأضواء على الفكر الديني والسياسي المبكر للعراق في أواخر عصور ما قبل الكتابة والانتقال إلى بداية عصر الأسرات، ومن هذه النماذج: «لوح صيد الأسود» وهو من حجر الجرانيت الأسود، ويضم اللوح منظرين: المنظر الأول (السفلي) يصور فيه مقاتل وهو يجذب وتر قوسه الكبير ليطلق سهماً على أسد سبق أن أصابته سهامه، وأسفل هذا الأسد، يوجد أسد آخر صرعته سهام هذا المقاتل، كما نرى خلف المقاتل أسداً ثالثاً صرع بهذه السهام، ويمثل هذا المقاتل بالزي والسمات المميزة للحاكم أو البطل. أما المنظر الثاني وهو في أعلى اللوح، فهو يصور نفس المقاتل على الأرجح، إذ يمثل بنفس الزي والسمات المميزة، وهو يمسك في هذا المنظر برمح طويل ويتأهب لغرسه في عنق أسد يثب نحوه مهاجماً. ويرجح بعض الباحثين أن الهدف من مناظر هذا اللوح هو تخليد ذكرى الصراع مع البيئة في أرض القسم الجنوبي من العراق وتهيئته للاستقرار ثم التطور إلى مرحلة المدنية[٢].

ومن نماذج النحت على الحجر أيضاً، ما أطلق عليه «الإناء النذري» وهو عبارة عن آنية إسطوانية من المرمر، قسمت سطوحها إلى ثلاثة صفوف، ظهرت الآلهة إنانا في صفها الأعلى وينسدل غطاء رأسها على ظهرها وكتفيها، وهي تتدثر بثوب طويل أو شال واسع، وتمسك بيدها اليسرى مجامع ثوبها، بينما ترفع يدهااليمنى لتبارك بها سلة فاكهة قدمها إليها أحد الكهنة العراة، وتلاهاتصوير رمز معبدها (النباتي؟) ومجموعات الهدايا الفاخرة التي قدمت إليه، ثم رجل وامرأة بملابس طويلة يصعدان سطحي المعبد المسورين، وشغل الصف الثاني من نقوش الآنية عدد من الكهنة العراة حاملي القرابين، بينما صورت

---

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٤١ - ١٤٩.

(٢) H Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, (Penguin Books), 1970, pp. 33 - 34

في الصف الثالث مجموعة كباش ونعاج ونباتات[1] (شكل ٧٢).



شكل (٧٢) نقوش الإناء النذري (عصر جمدة نصر)

(١) عبْد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ وكذلك:
عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٣٠ ـ ٣١، شكل ٣.

ويدخل إنتاج الأختام الإسطوانية في نطاق النحت على الحجر، ولقد استخدمت للدلالة على الملكية الشخصية، ثم استخدمت بعد ذلك في طباعة الألواح الطينية، واستخدمت لأغراض دينية وحربية. وكان يوجد بها ثقب في وسطها من أجل التعليق، وكانت تنحت برقة على طرفها المحدب بأشكال وتصاميم متنوعة لتشكل إفريزاً دقيقاً من الزينة عند دحرجتها فوق الطين قبل أن يجف، ولقد عثر على الكثير من هذه الأختام الإسطوانية وكذلك على انطباعاتها **على الألواح الطينية وسدادات الجرار.**

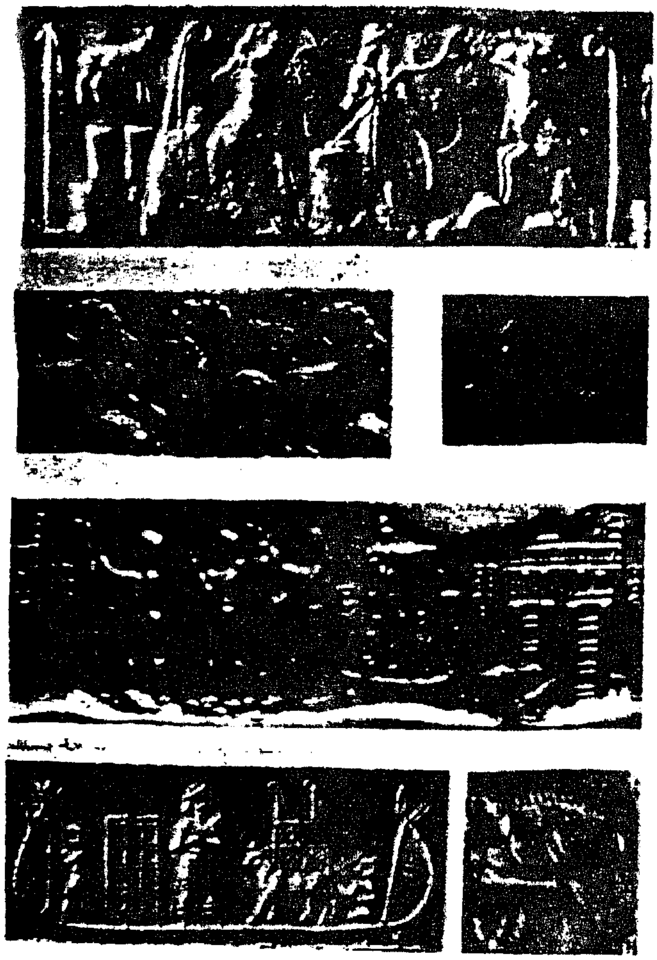
وظهرت الأختام الإسطوانية لأول مرة في الطبقتين ٥ ـ ٤ في الوركاء، وبرع الفنان السومري في نحت الأشكال بدقة كبيرة[١]، (شكل ٧٣) ولكن في عصر حضارة جمدة نصر نلاحظ تدهوراً طفيفاً في دقة صنع ونحت هذه الأختام، كما ظهرت أشكال أخرى من الأختام طويلة بشكل لا يتناسب مع قطرها، وكانت مغطاة بشكل كامل بأشكال وزخارف هندسية[٢].

وانتشرت هذه الأختام الإسطوانية، عن طريق التجارة على الأرجح، في القسم الشمالي من العراق، كما انتشرت أيضاً في الشمال السوري وبلغت الأناضول ومصر وبعض مواقع الهضبة الإيرانية. وتعتبر ظاهرة ازدياد مجالات الاتصال الخارجي من الظواهر الهامة في عصر حضارة جمدة نصر والتي اتضح امتدادها حتى مصر والهند، ويغلب أن الطريق البحري كان هو المستخدم في هذه الصلات، ومن المحتمل العثور على آثار المحطات الحضارية التي كان على تلك السفن التوقف عندها في سواحل عمان وحضرموت والبحر الأحمر. ولا يمكن حسم هذا الموضوع دون إجراء المزيد من الحفائر لاكتشاف تلك المحطات الساحلية في شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك سواحل البحر الأحمر للوصول إلى حل نهائي يحسم موضوع هذا الصلات.

---

(١) H. Frankfort, Stratified Cylinder Seals from the Diyala region, Oriental Institute Publications, no. 72, Chicago, 1955, pl I FF

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٨١ ـ ٨٤.



شكل (٧٣)
نماذج للأختام الأسطوانية

الفصل الرابع
عصور ماقبل التاريخ
فى
إيـــــران

مقدمة

استخدم تعبيري «فارس» و «إيران» للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، ولكنهما ليسا مترادفين تماماً. وتسمية «إيران» هي الأقدم، فلقد وردت في الأوستا كـ «إيريانا فيجا» أي موطن الآريين والإيرانيين، ثم تطورت التسمية فصارت «بلاد إيران»[1]. واستخدم الجغرافي «أراتو سثينيز» الذي كان مديراً لمكتبة الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد مصطلح «بلاد إيران»، «أريانا»[2]. والآري بمعناها الذي يفيد «نبيل» أو «سيد» يبدو أنها تسمية عامة لهؤلاء الناس الذين يتحدثون اللغة الهندو أوربية الشرقية والذين جاءوا إلى هذه المنطقة الواقعة بين نهر الجانج والفرات عند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد[3].

أما تعبير «فارس» فأول من أطلقه هم الإغريق، واستمد هذا الاسم من إقليم بارسا Parsa في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة، وحرف هذا الاسم عند الإغريق ليصبح «پرسيس» Persis ثم أطلق عليها العرب «فارس» وعلى الرغم من

---

(١) عبد النعيم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١١ هامش ١، وكذلك:

E. Herzfeld, Iran in the Ancient East, OxFord University Press, 1941, p. 192.

(٢) طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد ١٩٥٦، ص ٣٧٣، هامش ١.

(٣) R N Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p 2

أن يارسا تكون إقليماً واحداً في امبراطورية عظيمة، إلا أنها استمدت شهرتها من كونها مسقط رأس الملوك الهخشامنيين الذين كونوا البيت الحاكم الفارسي، وأطلقت هذه التسمية بواسطة الإغريق على الامبراطورية كلها بشكل عام(١).

وأدرك المؤرخون القدامى أن الفرس والميديين يرجعون إلى أصل آري، فظهر في مصادرهم تعبير «آري» للدلالة على كليهما(٢)، ومهما كان الأمر، فإن فارس إحدى أقاليم أيران، وإطلاقه هو من قبيل اطلاق الجزء على الكل، أما سكان هذه المنطقة فيسمون بلادهم «إيران»، ويطلقون عليها أحياناً التسمية «إيرانشهر» بمعنى «إقليم إيران» وكذلك التسمية «إيرانزمين» بمعنى «أرض إيران» وهي مشتقة جميعها من كلمة «آري» Aryan(٣).

ولقد ظل تعبيري «فارس» و «إيران» مستخدمين لعدة قرون مع بعضهما، فكان يطلق عليها أهل البلد «إيران» بينما يطلق عليها الغربيون المتأثرون بشكل رئيسي باليونان «فارس»(٤) وظل الوضع على ذلك حتى عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م حينما طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية مراعاة للتنسيق والتوحيد أن يطلق على البلاد رسمياً اسم «إيران» فظفرت هذه التسمية ذات الدلالة الصحيحة بالاستعمال العام(٥).

وسنقدم فيما يلي دراسة عن تطور تاريخ إيران منذ الدهور الحجرية، وحتى سقوط الامبراطورية الإيرانية على يد الاسكندر المقدوني، ونبدأ الدراسة بجغرافية إيران ومواردها الطبيعية.

---

(١) B. Dicks, The Ancient Persians, How They lived and worked, London, 1979, p. 14.

(٢) انظر في ذلك ما ورد في كتاب هيرودوت السابع الفقرة (٦٢).

(٣) B. Dicks, op. cit., p. 23

(٤) Y. Armajani, Iran, New Jersy, 1972, p. 23

(٥) دونالدو لبر: إيران ماضيها وحاضرها: ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، مراجعة وتقديم أمين الشواربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠.

الموضوع الأول

جغرافية إيران ومواردها الطبيعية

يتكون القسم الأكبر من إيران من منطقة واسعة تعرف باسم «هضبة إيران»[١] وهي تبدو كمثلث محصور بين منخفضين هما: الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين[٢] في الشمال، وهي توصل ما بين وسط آسيا وغربها، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا فيما وراءها، ويوضح ذلك أهمية العوامل الجغرافية للهضبة الإيرانية في قيامها بدورها التاريخي الذي قدر لها أن تقوم به على مدار آلاف من السنين في التاريخ الإنساني. ويحيط بالهضبة الإيرانية سلاسل من الجبال الشاهقة من كل جانب، ويبلغ متوسط ارتفاع إيران فوق مستوى سطح البحر حوالي ٣,٠٠٠ قدم. (خريطة ٣).

ويلاحظ من دراسة المظاهر الجغرافية العامة لإيران، أنها يمكن أن تقسم من الناحية الجغرافية إلى أربعة أقسام رئيسية هي: منطقة جبال زاجروس التي تتضمن السهول الخارجية الصغيرة (وبصفة خاصة في منطقة خوزستان). وهي تكون جزءاً من بلاد النهرين والأرض المنخفضة الواقعة على الخليج العربي. ويتكون القسم الثاني من سلسلة جبال البرز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين. أما القسم الثالث فيتضمن الحافة المرتفعة في الشرق والجنوب الشرقي، وأخيراً المنطقة الصحراوية المنخفضة في الوسط. ويجب ملاحظة أن كل قسم من هذه

---

(١) W.B. Fisher, «Physical Geography». In The Cambridge History of Iran, Vol. I, The Land of Iran, Cambridge, 1968, p. 5

(٢) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم، من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، والسباعي محمد السباعي، ومراجعة وتقديم يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨ حاشية ١.

الأقسام يمكن أن يقسم إلى عدة أقسام، ولكن هذا التقسيم يعتمد على المظاهر والمعالم الرئيسية، ومن ناحية أخرى، فإن الحدود بين هذه الأقسام ليست دقيقة تماماً، فإنها تتداخل فيما بينها بشكل كبير.

وسنحاول فيما يلي تتبع المظاهر الجغرافية العامة لإيران على أساس هذه الأقسام[١]. (خريطة ٤).

١ ـ منطقة زاجروس:

تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ طولها نحو ٩٩٨ كيلومتراً، وعرضها نحو ١٩٣ كيلومتراً وتتراوح ارتفاعاتها بين ١٠٠٠ م و ٣٣٠٠ م، وهي تتألف من جملة سلاسل متوازية تخترقها أودية تتراوح في أطوالها من ٩٧ كيلومتراً إلى ٤٨ كيلومتراً طولاً، ومن ١٩ كيلومتراً إلى ١٠ كيلومتراً عرضاً[٢]، ويمكن القول بأنها تحد إيران من جهة الغرب.

وإذا نظرنا إلى منطقة زاجروس من ناحية البنية ومظاهر السطح، فإنه يمكن تمييز منطقتين فرعيتين بمنطقة زاجروس، وهما القطاع الشمالي الغربي ويمتد من الحدود التركية ـ الروسية حتى منطقة حمدان ـ كرمنشاه. وتمتد المنطقة الثانية حتى بندر عباس وهرمز على مضيق عمان. وفي الحقيقة فإن تسمية «زاجروس» تقتصر على هذه المنطقة الأخيرة، ولكن من الأفضل إطلاقه على المنطقتين معاً[٣].

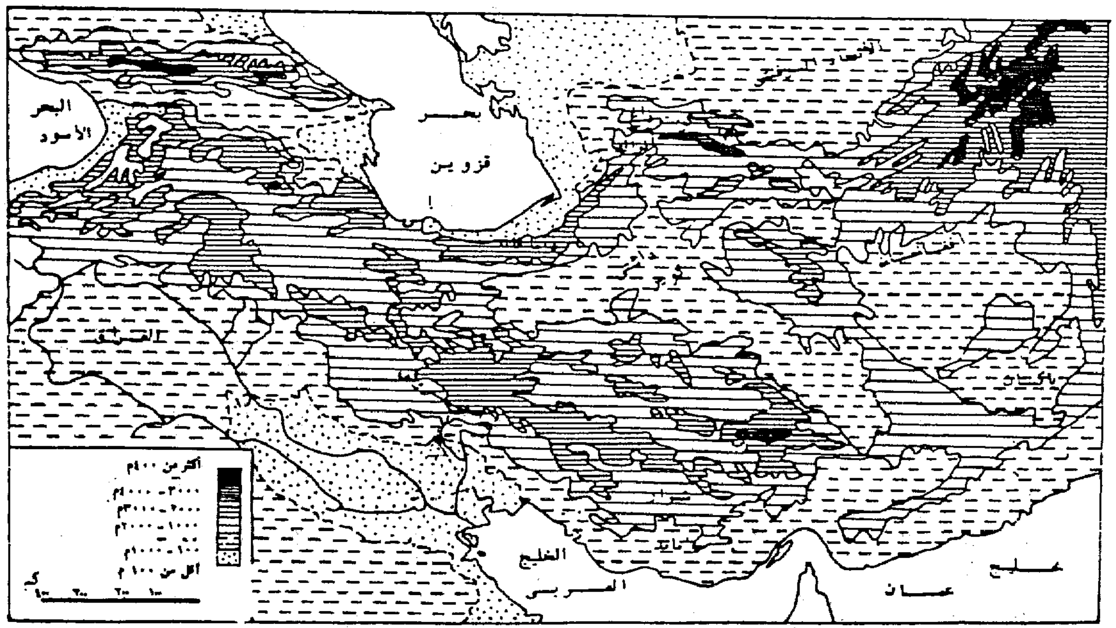
ويمكن وصف القطاع الشمالي الغربي من زاجروس بأنه على هيئة مستطيل تقريباً، وهو يتكون من مجموعة من التركيبات الجيولوجية المعقدة التي حدثت

---

(١) W.B. Fisher, op. cit., pp. 6- 7.

(٢) R. Ghirshman, Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest, Translated from the French by Miss Margared Mum- Rankin, (Pelican Books), London, 1978, p. 21.

(٣) W.B Fisher, op. cit., p. 8.



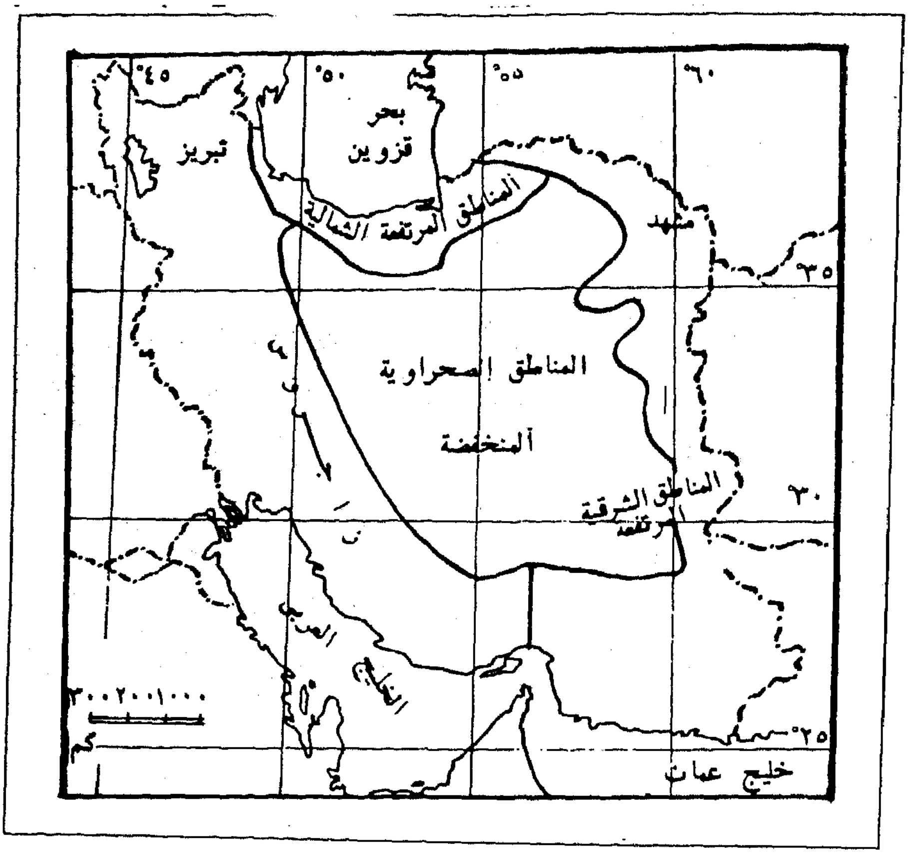
خريطة رقم (٣) مظاهر السطح في إيران

بصفة خاصة أثناء العصر الكريتاسي الأعلى Upper Cretaceous وعصر الميوسين Miocene، وعصر البلايستوسين (الزمن الرابع) Pleistocene.

ويبدو المظهر الطبوغرافي العام له كسلسلة غير منتظمة من الهضاب يتراوح ارتفاعها من ٥٠٠٠ قدم إلى ٦٠٠٠ قدم، ويقع أكثرها ارتفاعاً في أقصى الشمال والغرب، حيث يتراوح ارتفاعها ما بين ٧٠٠٠ قدم و ٩٠٠٠ قدم، وينحدر سطح الهضبة بشكل رئيسي في اتجاه الجنوب والشرق.

واكتسبت المنطقة الشمالية الغربية من زاجروس أهميتها لكونها مركزاً رئيسياً لطرق المواصلات. فهي تضم العديد من الطرق التي تربط ما بين الشرق والغرب، فهي تربط ما بين اليونان وآسيا الصغرى ووسط آسيا والهند.

أما المنطقة الثانية في زاجروس وهي التي تبدأ من حمدان ـ كرمنشاه في الشمال والتي يمكن أن يطلق عليها منطقة زاجروس الرئيسية، وهي التي يطلق عليها مع المناطق المتصلة بها والتي تكون الفاصل المائي الجنوبي الغربي لبحيرة أورمية التسمية «كردستان» فيلاحظ أن الثنيات الجبلية بها منتظمة إلى حد بعيد، وهي ذات هيئة مستقيمة، وضيقة نسبياً، وتمتد السلاسل الجبلية فيها بجوار بعضها، ويزداد اتساعها ناحية الجنوب، حيث تصبح المجموعات الجبلية أقل كثافة، ويتغير شكلها فتتحول من الهيئة المستقيمة إلى الشكل المقوس. ومن المظاهر المميزة لهذه المنطقة المجاري المائية الموجودة بها. ففي الشمال أدى تساقط المياه بقوة إلى تكوين العديد من الأنهار التي قطعت العديد من الأودية المتباينة والمعقدة. وفي بعض الحالات تشق الأنهار طريقها في شكل متعرج حول نهايات السلاسل الجبلية، ثم تتجه ناحية الغرب لتصب في نهر دجلة والخليج العربي. وقطعت بعض مجاري المياه طريقها في السلاسل الجبلية في ممرات ضيقة. وهذه الممرات أو التشققات كانت عادة على هيئة مستقيمة. ومن أفضل الأمثلة لهذا النوع نهر Saidmarreh والذي يعرف في أجزائه الدنيا باسم نهر الكرخة. أما في الجنوب فإن معدل سقوط الأمطار تقل كميته تدريجياً



(خريطة ٤) الوحدات الرئيسية لمظاهر السطح في إيران

كلما اتجهنا جنوباً، ومن ثم فإن وجود التيارات المائية والأنهار الدائمة طوال العام تقل في وجودها أكثر فأكثر، ويصبح معظمها موسمياً، أو تجري لمسافات قصيرة لتنتهي في أحواض مغلقة، وتتسرب مياهها كلها في أعماق الأرض[١].

وتمتد سلسلة جبال زاجروس في جنوب غرب إيران، وتسمى هذه المنطقة تانجستان، ومن أهم ما يميز هذا الجزء هو انخفاض كمية سقوط الأمطار بالنسبة لباقي أجزاء منطقة زاجروس مما تتطلب من الإنسان في هذه المنطقة العمل على الاستفادة قدر الإمكان من كميات المياه المتجمعة لديه باستخدام أفضل الوسائل المتاحة للري. ويضاف إلى فقر هذه المنطقة في الإنتاج الزراعي، أن المناطق المرتفعة تطل على شاطىء الخليج العربي مباشرة ولا يتخللها سهول ساحلية مما أدى إلى ندرة وجود الأماكن التي تصلح كموانىء، وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى قلة السكان في هذه المنطقة، كما أثرت هذه العوامل البيئية القاسية على طبيعة الإنسان القاطن في هذه المناطق فأصبحت طباعه خشنة نوعاً ما[٢].

٢ ـ المناطق الشمالية المرتفعة ـ البرز وتاليش:

يحد الناحية الشمالية من إيران سلسلة جبال البرز وتاليش، وتبدو هضبة البرز كنتوء ثانوي متجه ناحية الشرق من سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة في شمال غرب إيران، وهي تكمل حافة السلسلة المرتفعة التي تشكل حدود المناطق الوسطى لإيران. وفي الحقيقة فإن سلسلة جبال البرز تمتد كقوس ولا يتجاوز عرضها في أقصى اتساعه ١٣٠ كيلومتراً، أما متوسط عرضها فلا يتعدى مائة كيلومتر. ويوجد في سلسلة البرز أعلى قمة جبلية في إيران، وهي قمة جبل دامافاند Damavand الذي يبلغ ارتفاعه ١٨,٩٩٥ قدماً، وهو يقع في وسط سلسلة جبال البرز شمال شرق طهران بحوالي ٦٤ كيلومتراً. وتجدر

---

(١) Ibid., pp 17- 18.

(٢) Ibid., pp 26- 30.

الإشارة أن قمة جبل دامافاند أعلى من أي قمة جبلية تقع إلى الغرب منه سواء في آسيا أو في أوروبا[١]. ولقد أطلقت المصادر المسمارية على جبل داما فاند التسمية «بكني» أي جبل اللازورد[٢].

وتتكون سلاسل جبال البرز من قسمين رئيسيين: هضاب تاليش في أقصى الغرب والشمال الغربي، وجبال البرز في الوسط والشرق وتصل هضاب تاليش في نهايتها الغربية إلى منطقة أذربيجان التي تتوسطها بحيرة أورمية المالحة، ويمتاز إقليم أذربيجان بكثرة سكانه، ويطلق على أذربيجان عبارة «برزخ ميديا»، إذ يمكن الدخول إليها بواسطة عدة طرق تأتي من الشمال الغربي، والشمال، والشمال الشرقي. وتتمتع هذه المنطقة بشهرة تاريخية خاصة، إذ ظهرت فيها سلالات الميديين والفرس، كما استوطنتها أقوام أخرى كالكرد والمغول والتتار. ونظراً لطبيعة هذه المنطقة التي تعتبر باباً مؤدياً إلى إيران فقد عملت الدول الفارسية على المحافظة عليه وحمايته وتحصينه إزاء الغزاة القادمين عبر القوقاز من جنوب روسيا، ولا تزال بقايا الحصون التي أقيمت في هذه المنطقة باقية حتى الآن[٣].

وتتكون منطقة البرز من مجموعة من الثنيات الضيقة نسبياً، وتأخذ شكلاً أقرب إلى الشكل الهلالي على امتداد الحد الجنوبي لبحر قزوين. ورغم ضيقها فإن السلاسل الجبلية شديدة الانحدار إلى أبعد حد، وتوجد فيها العديد من القمم الجبلية التي يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ قدم في مساحة لا تتعدى ٤٨ كيلومتراً من شاطىء بحر قزوين ومن أعلى القمم الجبلية الموجودة جبل دامافاند، الذي سبقت الإشارة إليه، وجبل Alam Kuh الذي يبلغ ارتفاعه ١٥,٥٠٠ قدم، وهو يقع شمال غرب طهران بحوالي ٩٧ كيلومتراً.

---

(١) Ibid., p. 38.

(٢) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٥٦، ص ٣٧٤.

(٣) R. Ghirshman, op. cit., pp. 22- 23.

٣ ـ المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية:

تقع هذه المنطقة من إيران بين سلاسل جبال البرز، والحد الجنوبي الشرقي لسلاسل جبال زاجروس. وتتميز هذه المنطقة بعدم وجود وحدة جغرافية تربط فيما بينها، فالمناطق المرتفعة تتباين من حيث اتجاه محاورها واتجاهاتها، كما أنها في كثير من المواضع تتباعد عن بعضها تاركة العديد من المناطق المنخفضة، ويمكن القول، بشكل عام، أن المنطقة الشرقية تتميز بالقحولة، وعدم وجود إنتاج زراعي بها. ويرجع ذلك إلى طبوغرافيتها غير المنتظمة، وتحركات الرمال، والعوائق المناخية.

ومناطق الاستقرار في هذه المنطقة قليلة، وهي توجد فقط في الأماكن المحمية من الرياح الشديدة، وفي الأراضي المنخفضة بالقرب من منحدرات التلال، حيث ينتشر الغرين الناتج عن تفتت الحصى توجد الزراعة، كما توجد أيضاً بعض الأراضي الزراعية بجوار الأنهار القليلة الموجودة في هذه المنطقة. ومن أهم هذه المناطق، المنطقة المنخفضة لحوض نهر هيلماند والذي يطلق عليه سستان، وتصل المياه إلى منطقة سستان من أنهار أفغانستان[١].

وترتب على هذه المظاهر الجغرافية للمنطقة الشرقية من إيران، والتي تعرف بجبال خراسان، أنه كان من السهل اجتيازها، ولذا فهي تمثل المدخل الثاني إلى إيران، قد عبرها الغزاة الفاتحين خلال العصور التاريخية، الذين جاءوا إليها من سهول وسط آسيا. ولقد أقام الملوك الساسانيون في هذه المنطقة جداراً سميكاً من الأجر يبلغ طوله عدة أميال لدرء الخطر عن أنفسهم من هذه الناحية، وما زالت بعض بقايا هذه السور قائمة حتى الآن. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنطقة من إيران كانت مهد العديد من السلالات الحاكمة المشهورة كالفرثيين والصفويين والقاجاريين.

---

(١) W.B. Fisher, The Middle East, pp. 285- 287.

وأخيراً فإن الجبال التي تحدد المثلث الإيراني تكتمل بالسلسلة الجنوبية المعروفة باسم جبال «مكران». ويخرج من هذه الجبال ممران يؤدي أحدهما إلى بندر عباس على خليج عمان، ويؤدي الآخر إلى بلوخستان في الشرق[١].

٤ ـ وسط الهضبة الإيرانية:

تحيط سلاسل الجبال المرتفعة بالمنطقة الوسطى من إيران، وهي ذات شكل غير منتظم وتضم عدداً من المناطق المنخفضة الداخلية، بعضها كبير جداً، والبعض الآخر صغير. ويبلغ ارتفاع معظم المنطقة الداخلية حوالي ٣٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، بينما يصل ارتفاع بعض المناطق إلى ١٠٠٠ قدم فقط، وأحياناً أقل من ذلك. ويوجد في بعض أجزائها سلاسل جبلية مرتفعة يصل ارتفاعها من ٨٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠ قدم.

وتصل مساحة المنطقة الداخلية من إيران إلى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً، وكان يشغل سطحها البحيرات الضخمة المتتالية والتي كانت تمتد شرقاً حتى افغانستان ووسط آسيا، ولم يتبق من هذه البحيرات حالياً سوى أجزائها السفلى التي تكون بحيرات ملحية أو أحراش مليئة بمخلفات الحصى والرمال وحطام الأحجار والغرين[٢].

وتعد هذه المنطقة الداخلية من أشد بقاع العالم قحولة وجفافاً، وهي تنقسم إلى صحراوين شاسعتين، تسمى إحداهما «دشتي كافر Dasht- i -Kavir» في الشمال، والأخرى «دشتي لوط Dasht-i Lut» في الجنوب[٣] وتتكون دشتي

---

(١) R. Ghirshman, op. cit. p. 23.

(٢) W.B. Fisher, «Physical Geography» in CHI, vol, I pp. 90- 92.

(٣) تجدر الإشارة إلى أن كلمة «لوط Lut» كلمة فارسية تشير عادة إلى المناطق الصحراوية المنخفضة، ولكنها تطلق في الغالب بشكل أوسع على المناطق القاحلة في الجنوب والشرق. أما كلمة «دشت Dasht» فتشير إلى الصحراء الجافة التي توجد فيها عادة بقايا حجرية صغيرة مثل الحصى والظران. انظر: Ibid, p 93.

كافر في معظمهـا من الطين والملـح، ولا ينمو عليها شيء، ومظاهر الحياة عليها نادرة، وهي تنخفض عن سطح البحر من ٢٠٠ - ٢٥٠ قدم[١]. وتبلغ مساحتها ما يقرب من ربع المنطقة الداخلية من إيران. وفي بعض مناطقها يمكن الحياة حيثما تقل درجة الملوحة في التربة، حيث توجد بعض الواحات القليلة. أما «دشتي لوط» فهي صحراء قاحلة تماماً، وتعد من أشد جهات العالم قحولة[٢].

ويتضح من هذه الدراسة الجغرافية لسطح إيران، أن المناطق التي يمكن أن تتطور عليها الحياة في سطح الهضبة تنحصر في أودية السلاسل الكبرى الرئيسية وفي الواحات والسهول الواسعة، مثل سهل خوزستان في الجهة الجنوبية الغربية، وهي بلاد السوس القديمة التي تعد من الناحية الجغرافية امتداداً لسهل ما بين النهرين الأسفل، لأنها تتكون من الأرض الرسوبية التي كونها نهر كارون وروافده. وتعتبر هذه المنطقة من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في إيران، كما ظهرت فيها البواكير الأولى لفجر حضارته. وحينما امتدت الحدود السياسية للامبراطورية الفارسية إلى الغرب من زاجروس نشأت في هذه المنطقة العاصمة الكبرى «سوسة».

ويلاحظ كذلك أن السهول الواقعة خارج الهضبة، مثل السهول الواقعة على حدود بحر قزوين، لم تقم بدور رئيسي في التطور الحضاري لإيران الذي تركز منذ أقدم العصور في الواحات المنتشرة في سلاسل الجبال المحيطة بالهضبة، وتمكن الإنسان منذ عصر ما قبل التاريخ من التغلب على المشاكل التي تواجهه في إمكانية زراعة هذه الواحات. ومن أهم هذه المشاكل كيفية تزويدها بالمياه، ولقد استطاع التغلب على هذه المشكلة الحيوية بتجميع مياه

---

(١) K.W. Butzer, «Physical Conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt, Before the Period of Agricultural and Urban Settelment», in CAH., vol 1, part I, Cambridge 1970, p 52.

(٢) R. Ghirshman, op cit., p. 24

الأمطار، ثم شق القنوات المؤدية إلى الواحات[١].

ولقد أدى وجود سلاسل الجبال الضخمة التي تحيط بإيران وبخاصة في الوسط إلى عدم وجود وحدة في تطورها الحضاري سواء في مناطق السهول أو الهضاب، ويضاف إلى ذلك أنه لم يوجد في إيران نهر ضخم يوحد إحدى طرف البلد بالطرف الآخر، وأدى تفرق الأنهار الضخمة إلى تركيز تطور النشاط الإنساني في إطار مناطق محدودة.

وكان للعوامل الجغرافية تأثيرها الهام في توزيع مناطق الاستقرار البشري على الهضبة وظهور المدن الكبرى. وظهر ذلك بوضوح على امتداد سلسلتي جبال زاجروس والبرز، وبخاصة على حوافهما الداخلية المواجهة للصحراء. فمن المدن التي ظهرت على الطريق التجاري الواقع على امتداد سلاسل البرز، مدينة أكبتانا وطهران ودمغان وهيرات، ومن المدن التي نشأت على الطريق الجنوبي أصفهان وباسارجادا وبرسبوليس وشيراز.

وتم نفس الأمر كذلك في عصور ما قبل التاريخ، حيث أوضحت التنقيبات الأثرية الحديثة، أن الإنسان منذ أن اتجه إلى السهول قد استقر على امتداد نفس هذا الخط الذي يشبه قوساً حول المنطقة الداخلية القاحلة من إيران (صحراء الملح). ومن المواقع الرئيسية التي كشف عنها سيالك ودمغان وقم[٢].

ومن الأمور الهامة التي أثرت في تاريخ إيران وحضارتها، الثروات الطبيعية التي تثرى بها أرضها، فبالإضافة إلى وجود مساحات كبيرة من الأراضي الخصبة بها، فإنها تملك العديد من المحاجر والمناجم الغنية، فهي غنية بأنواع الأحجار الجيدة كالمرمر والرخام، وكذلك الأحجار الثمينة كاللازورد، والفيروز، والعقيق. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الإنسان الإيراني القديم قد

---

(١) P. Beaumont, The Middle East, A Geographical Study, London, 1976, pp. 449- 450.

(٢) R. Ghirshman, op. cit., pp. 24- 25

استخرج هذه الأحجار منذ أقدم العصور، كما كان لها دور كبير في طبيعة العلاقات ما بين العراق وإيران منذ أقدم العصور، وذلك نظراً لحاجة الإنسان العراقي إليها في صنع حضارته. ويتوفر بالهضبة الإيرانية، العديد من المعادن كالنحاس والحديد والقصدير والرصاص. ويضاف إلى ذلك أيضاً أن سفوح سلاسل جبال زاجروس ومنحدراتها تتكون من حجارة كلسية تحتوي على النفط الذي كان معروفاً بالفعل في عصر هيرودوت[١]. ووجدت بوفرة الأخشاب الجيدة الموجودة في الغابات التي كانت تغطي الجبال، وكانت الأخشاب من المواد الهامة التي كان سكان العراق القديم في حاجة إليها، فقد استوردوا الأخشاب من إيران منذ أقدم عصورهم، وبصفة خاصة منذ الألف الثالث ق. م.

وعلى الرغم من إحاطة السلاسل الجبلية بإيران، فإنها في حقيقة الأمر مفتوحة من كل جانب، إلى سهول بلاد النهرين وروسيا والهند والخليج العربي. ولقد قامت منذ عصور ما قبل التاريخ بدور هام كوسيط بين الشرق والغرب. ولقد قامت الطرق الموصلة ما بين الشرق والغرب بدور حيوي في الصلات والتأثيرات الحضارية ما بين بلاد النهرين وإيران.

وتمت الصلة بين إيران والعراق كذلك من خلال أودية الأنهار التي تصب في نهر الفرات. وبصفة خاصة نهري الزاب وديالي. ولقد انتشرت بواسطة هذين النهرين العديد من المظاهر الحضارية بين البلدين، وبصفة خاصة بعض أنواع الأواني الفخارية وزيناتها. وكان لامتداد سلاسل زاجروس ناحية الشرق عند نهايته الجنوبية أثر كبير في اتساع الصلات ما بين منطقة السهول في جنوب العراق ومنطقة سوسيانا الإيرانية. فهذه المنطقة من إيران ـ من الناحية الجغرافية ـ لا يمكن التفرقة بينها وبين المنطقة المجاورة لها في جنوب العراق، ووجدت بالفعل في عصر حضارة الوركاء في العراق القديم صلات مميزة في الفنون والمنحوتات بين المدن السومرية ومنطقة سوسة، ويمكن ملاحظة ذلك

---

(١) Ibid., pp. 25- 26.

بشكل واضح في نماذج الأختام الأسطوانية التي كانت تنحت أحياناً في أشكال متطابقة في كلا المنطقتين[١].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجدت العديد من الطرق التي توصل إلى داخل إيران، وأدى ذلك إلى تعرضها للغزو ولعبور القبائل منذ عصور ما قبل التاريخ، وجاء الغزاة والقبائل إليها من وسط آسيا وشمال الهند طمعاً في العثور على مراعي غنية في مناطق إيران.

وبالإضافة إلى هذه الطرق التي ربطت إيران بالعالم الخارجي المحيط بها، فقد قامت الطرق الداخلية بها بدور هام وفعال في انتقال التأثيرات الحضارية بين أجزاء الهضبة الإيرانية، وكان لها دورها الكبير كذلك في التحركات البشرية بها، ومن أهم هذه الطرق، الطريق الذي يبدأ من خوزستان ويتخذ اتجاهاً شمالياً شرقياً إلى لورستان والهضبة، أو يتخذ اتجاهاً جنوبياً شرقياً إلى منطقة فارس. أما الطرق التي تبدأ من شمال غرب زاجروس ووسطها فإنها تلتقي حول كازفين ـ كاشان ـ وتتجه من هذه المنطقة ناحية الشرق على امتداد الناحية الجنوبية لسلسلة جبال البرز حتى مشهد. ويوجد طريق يتجه من فارس جنوباً إلى بلوخستان، ويوجد هناك طريق آخر يربط منطقة فارس بمنطقة كاشان[٢].

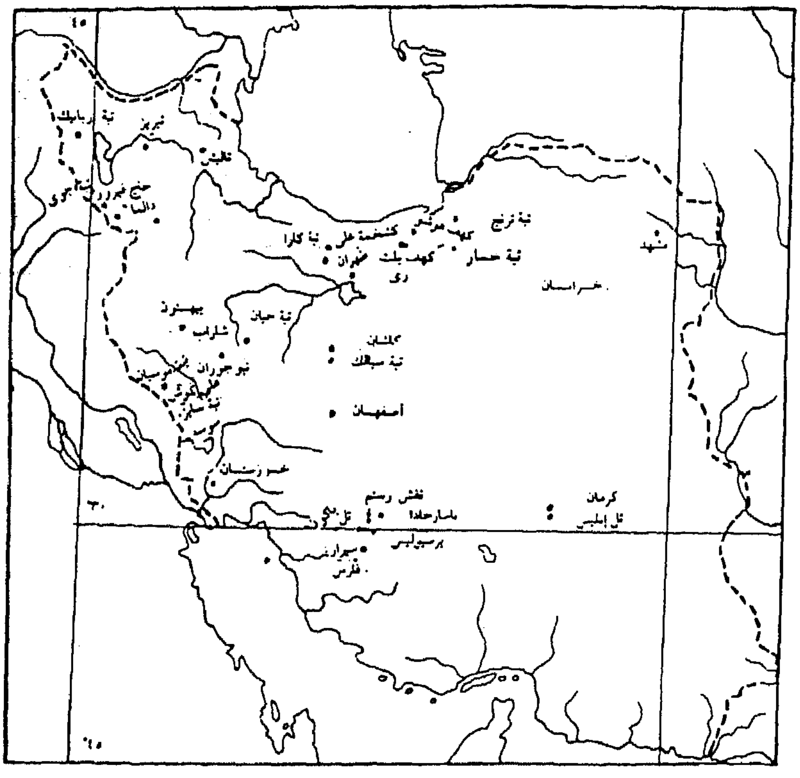
---

(١) M E.L. Mallowan, Early Mesopotamia and Iran, London, 1965, p. 20.

(٢) R.H. Dyson, «Problems in the Relative Chronology of Iran, 6000-2000 B C» in Chronologies in Old World Archaeology, U S.A., 1967. p 215.

الموضوع الثانى

عصـور مـا قبل الكتابة والتدوين



(خريطة ٥) **بعض المواقع الأثرية الرئيسية في إيران**
في عصور ما قبل الكتابة والتدوين

أولاً: العصر الحجري القديم

يميز العصر الحجري القديم (الباليوليتي Palaeolithic) بداية الحضارة الإنسانية، وذلك حينما استطاع الإنسان الأول أن يصنع أدواته عن قصد وهدف، واعتمد في صنع أدواته بصفة رئيسية على الحجر الذي شكله بما يناسب مطالبه المحدودة، واستخدم بجانبه مواداً أخرى كالعظم والخشب والعاج والأصداف البحرية.

ولقد قام العلماء بتصنيف المادة الأثرية الخاصة بالعصر الحجري القديم وذلك حسب التقاليد الصناعية المتبعة في تشكيلها، وكذلك كميتها ووظيفتها، إلى ثلاث مراحل حضارية رئيسية وهي:

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل.

ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط.

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى.

وسنحاول فيما يلي دراسة هذه المراحل الثلاث بشيء من التفصيل.

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل:

تمثل هذه المرحلة الجهد الإنساني الأول في مجال صنع حضارته، ويعتبر الفأس اليدوي Hand Axe الأثر المميز لهذه المرحلة، وسادت خلال هذه

المرحلة حضارتان هما: الأبيفلية[١]، وهي أقدم الحضارات الإنسانية، ثم الحضارة الأشولية.

ولقد أصبحت الفأس اليدوية في الحضارة الأشولية أكثر اتقاناً وأصغر حجماً، ووجه الإنسان اهتمامه بتحديد حوافها وتهذيب سطحها كله تاركاً أقل مساحة ممكنة من القشرة الأصلية في أسفل الأداة لكي يجعل شكلها متناسقاً، ويلاحظ أن الإنسان قد بدأ في هذه المرحلة في صنع بعض أدواته من الشظايا، كما استعمل بعض الأدوات الخشبية والعظيمة.

ويلاحظ قلة المادة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة في منطقة جنوب غربي آسيا بشكل عام، وفي إيران بوجه خاص، وهو الأمر الذي أدى ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنه لم يعثر في إيران على أية أدلة أثرية تتصل بهذه المرحلة[٢].

ولقد عثر رومان جيرشمان R. Ghirshman على بعض الأدوات الحجرية في كهف تانجي بابدا Tangi- Pabda في جبال بختيار[٣] والتي يرجح نسبتها إلى نهاية هذه المرحلة وبداية المرحلة التالية لها. (شكل ٧٤).

ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط:

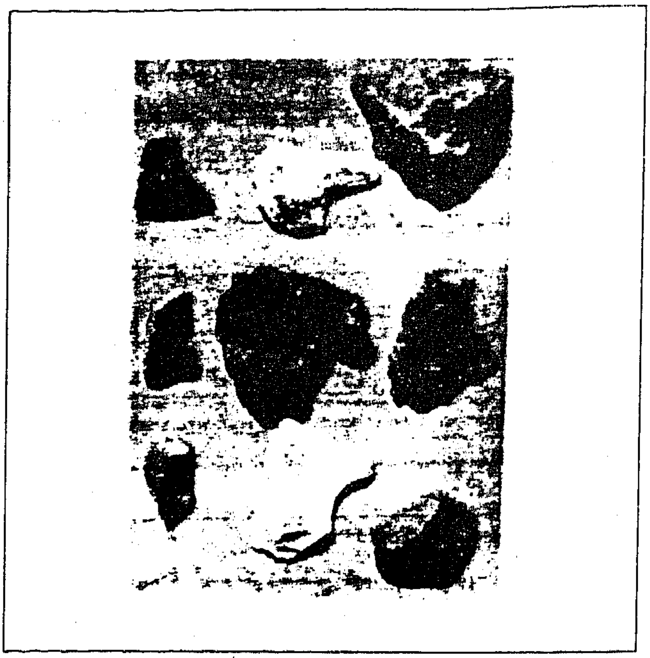
يطلق على الإنتاج الحضاري المتصل بهذه المرحلة «الأدوات الموستيرية» وذلك نسبة إلى كهف موستييه بفرنسا. واعتمدت صناعة الأدوات في هذه المرحلة على اساس استخدام الشظايا التي تنفصل عن جوانب الفأس اليدوي

---

(١) كانت تسمى بالحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المارن في فرنسا، ولكن نظراً لأن الموقع الشيلي وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والآشولية، فقد تركت تسمية الحضارة الشيلية. انظر: محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) E. Sunderland, «Early Man in Iran», in CHI, vol. I, Cambridge, 1968, p. 396.

(٣) R. Ghirshman, op. cit., pp.27- 28, pl. Ia



شكل (٧٤)
بعض الأدوات الحجرية من كهف تانجي بابدا

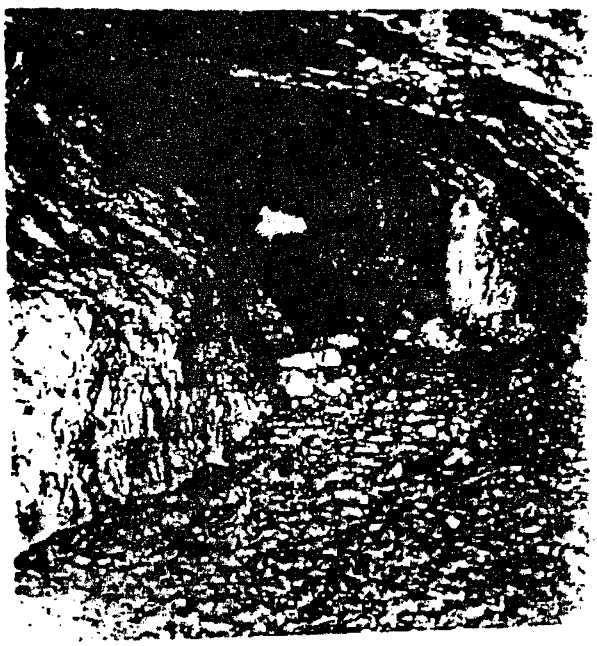
حين صناعته. وتتميز هذه الأدوات الحجرية بصغر حجمها وتنوع أشكالها حتى تمكن الإنسان من تحقيق أغراضه المتعددة. فصنع من هذه الشظايا السكاكين والمكاشط والمخارز وغيرها، وتمكن الإنسان من صنع هذه الأدوات، وذلك بفصلها عن النواة الأصلية حتى تؤدي الوظيفة التي يحتاجها إليها.

ورغم التقدم النسبي الذي حققه الإنسان في صناعة أدواته في هذه المرحلة، فإنه من الناحية الاقتصادية، ظل جامعاً للطعام متنقلاً من مكان إلى آخر بحثاً عن البيئة المناسبة لصيده ومعيشته المؤقتة في الأماكن التي تتناسب مع الأحوال الجوية السائدة في ذلك الوقت[١] والتي كانت في غالب أوقاتها حقباً مطيرة.

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٠٣.

ولقد عثر على العديد من الأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة الحضارية في العديد من المناطق الإيرانية، مثل سفوح جبال زاجروس، وشمال جبال البرز، وجبال هندوكوش الإيرانية. فلقد كشف في العديد من الكهوف الموجودة في هذه الجبال على الكثير من الأدوات والأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة، ومن هذه الكهوف، كهف بيهستون، الذي يقع شرق كرمنشاه بحوالي ٤٨ كيلو متر (**شكل ٧٥**)[1]، وهو يقع أسفل نقش بيهستون، وتقع



شكل (٧٥)

منظر خارجي لكهف بيهستون قبل عمل حفائر فيه

(١) C.S. Coon, op. cit., pl. VI., p. 108.

بيهستون على الطريق الرئيسي الذي يصل ما بين إكباتانا وبابل، كما يتجه من عندها طريق فرعي يؤدي إلى برسبوليس في الجنوب الشرقي، ولعل مما يوضح أهمية هذا الموقع، اختيار الملك داريوش الأول له ـ كما سبقت الإشارة ـ ليسجل نقوشه على صخوره.

وقام كارلتون كوون Carleton S. Coon بعمل حفائر في هذا الكهف عام ١٩٤٩ م حيث عثر فيه على بعض بقايا عظام إنسانية مثل عظمة الزند وأحد الأسنان، وكشف كذلك عن بعض الأدوات الموستيرية[1]، ويلاحظ أن الأدوات الحجرية التي عثر عليها توضح تفوقاً ملحوظاً في هذا المجال، وعثر فيه كذلك على كميات كبيرة من السكاكين ذات التقنية التي تفوق مثيلاتها في المناطق الأخرى، وهو الأمر الذي قد يرجع أنها متطورة بشكل كبير، أو أنها متأخرة زمنياً عن مثيلاتها، أو أن الإنسان في هذه المنطقة قد استطاع أن ينمو بصناعته الحجرية نحو التخصص بشكل يفوق الأدوات الموستيرية في المناطق المجاورة لها، ويبدو محتملاً من الأدوات التي عثر عليها في كهف بيهستون أنه كان مأهولاً بالسكان خلال مرحلة فرم الأولى[2] Würm I.

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى:

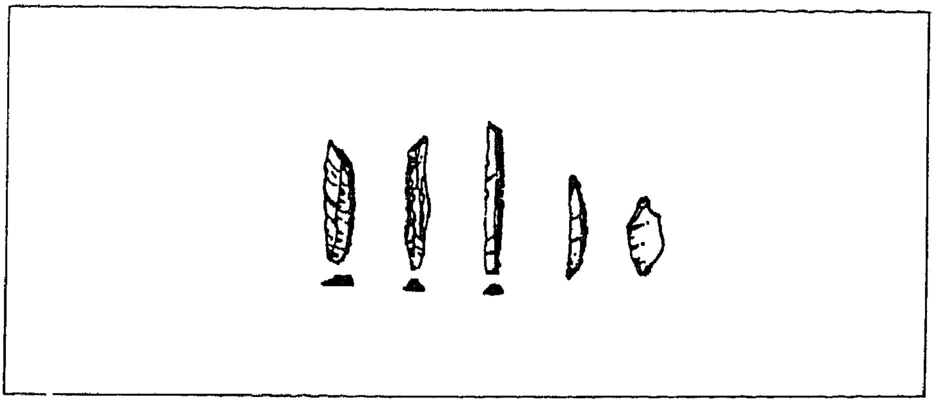
أخذ المناخ خلال هذه المرحلة يميل إلى الدفء، وذلك بعد انسحاب الهجمات المطيرة والباردة نحو الشمال، وانحسار المياه المتجمعة في البحيرات

---

(١) Coon, C S., «Cave Explorations in Iran, 1949», in University Museum Monographs, Philadelphia, 1951, p 125 ff., Coon C S , Seven Caves, pp 124- 126

(٢) يعتبر «دور فرم» آخر الأدوار الجليدية التي حدثت أثناء الزمن الجيولوجي الرابع أو «البليوستوسين»، ولقد سمي كل دور تقدم فيه الجليد باسم أحد أودية الألب، حيث عثر على الركامات الجليدية في تلك الوديان، وهذه العصور الجليدية هي: جنز Guntz، ومندل Mindel، ورس Riss، وفرم Wurm على التوالي. انظر: محمد أبو المحاسن عصفور. المرجع السابق، ص ٢٢ حاشية ١.

والمستنقعات والواحات والآبار. وتمتاز هذه المرحلة بصناعة حجرية جديدة هي صناعة الأسلحة النصلية، وهي عبارة عن أدوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الإنسان من صنعها بصورة تفوق في دقتها مجهوداته السابقة. وهي تعرف باسم «الأدوات القزمية»، ولا شك أن الإنسان قد أصبح من الميسور له حمل هذه الأسلحة والانتقال بها إلى أماكن جديدة، ويسر له ذلك صغر حجمها وفاعليتها كأداة قاطعة (شكل ٧٦)[١].



شكل (٧٦)
أدوات حجرية ترجع إلى مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى

ولقد كشف في العديد من المواقع الإيرانية على أدوات حجرية وهياكل عظيمة ترجع إلى مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى، ومن هذه المواقع كهف هوتو Hotu. ولقد قام كارلتون كوون C.S. Coon بعمل حفائر فيه عام ١٩٥١[٢]. ويتجه محور الكهف في اتجاه شمالي جنوبي بزاوية مقدارها ٤٥

(١) D.A.E. Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia, and Europe in Palaeolithic Times», in C A H., vol. I, Part I, Cambridge, 1970, Fig. 6, p. 85, nos 12 - 16.

(٢) نشرت ثلاثة تقارير مبدأية عن الحفائر التي أجريت بهذا الكهف، انظر:
C S Coon, «Excavations in Hotu Cave Iran, 1951, A preliminary report», in P A P.S., vol.96, No. 3, Philadelphia, 1952, pp 231 - 249.

درجة بالنسبة للواجهة الصخرية، ويبلغ طول الجدار الشمالي ثلاثون متراً، والجدار الجنوبي عشرون متراً[١]. ويستدل من المخلفات الأثرية التي كشف عنها في طبقات هذا الكهف أنه ظل مسكوناً منذ أواخر العصر الحجري القديم الأعلى وحتى العصر الإسلامي. ولقد كشف فيه عن العديد من الهياكل العظمية البشرية والحيوانية. فلقد عثر على ثلاثة هياكل عظمية، رجح أنها ترجع إلى هذه المرحلة، وذلك اعتماداً على الدراسات التي أجريت عليها باستخدام طريقة كربون ١٤. وعثر على أحد هذه الهياكل على ارتفاع ٢٥ قدم، وتبين أنه هيكل عظمي لرجل يتميز بالطول والضخامة، ويرجح أنه يرجع إلى أواسط الألف العاشر قبل الميلاد، أما الهيكلين الآخرين، فلقد عثر عليهما على ارتفاع ٢٧،٥ قدم، وهما لامرأتين، ويبدو أنهما قد لقيتا حتفهما نتيجة لسقوط كتلة صخرية عليهما من سقف الكهف، ويترجح أنهما يرجعان إلى أواسط الألف الثامن قبل الميلاد[٢].

ويلاحظ أن محتويات هذا الكهف توصف أحياناً بأدوات العصر الحجري القديم الأعلى القزوينية أو الموولليانية Mouillian،[٣] ويتجه بعض الباحثين إلى نسبة المخلفات الأثرية لكهف هوتو إلى أواخر العصر الحجري القديم الأعلى أو

= L.B. Dupree, «The Pleistocence Artifacts of Hotu Cave, Iran», in P.A.P.S., vol. 96, No. 3, pp. 250- 257.

J L. Angel, «The Human Skeletal Remains from Hotu Cave, Iran», in P.A.P.S., vol. 96, No. 3, pp. 258- 269.

ولقد أشار كارلتون كوون في مؤلفه الذي أصدره عام ١٩٥٧ أن التقرير النهائي عن حفائر كهف هوتو لم يكتب بعد، وأنه ليس متأكداً من أنه سوف يكتب نظراً لكثرة الأدوات المكتشفة فيه. انظر:

C.S. Coon, Seven Caves, London, 1957, p. 203.

(١) Ibid., p. 169.

(٢) Ibid., p. 179ff.

(٣) E. Suderland, op. cit., p. 403

بداية العصر الحجري الوسيط، وذلك اعتماداً على وجود قوس وهيكل عظمي لكلب في مخلفات هذا الكهف(١).

وعلى ذلك، فقد تركز البحث عن الكهوف والمآوي التي عاش فيها الإنسان خلال العصر الحجري القديم الأعلى في مثلث شيراز - مشهد - زاهيدان، وبصفة خاصة في منطقة بام كوهي تافتان. ولقد عثر بالفعل في مأوى صخري يسمى كونجي Kunji يطل على خورام أباد على أدوات حجرية ترجع إلى هذه المرحلة. ويقع هذا المأوى الصخري على ارتفاع يصل إلى ثلاثمائة قدم فوق مستوى سطح الوادي(٢).

---

(١) S. Coon., op. cit., p. 199.

(٢) Sunderland, op. cit., p. 405.

ثانياً: العصر الحجري الوسيط

يمثل العصر الحجري الوسيط مرحلة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وتضمنت الأدوات التي استخدمها الإنسان فيه، الأدوات الحجرية ورؤوس السهام، وغيرها من أدوات العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك بالإضافة إلى المناجل والأجران التي تمثل عنصراً حضارياً جديداً يقترب بالإنسان من مرحلة إنتاج الطعام والاستقرار أكثر من انتمائه إلى مرحلة الجمع والالتقاط[١].

وتوجد الأدلة الأثرية المرتبطة بهذه المرحلة في عدد من المواقع الإيرانية التي تنتشر من شمال غرب جبال زاجروس إلى شواطىء بحر قزوين، ومن شواطىء بحر قزوين إلى المنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش.

ومن المواقع التي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط في إيران، كهف بلت Belt الذي يطلق عليه كذلك «غاري كامارباند Ghar-i- Kamarband وهو يقع إلى الغرب من مدينة بهشهر Behshahar بحوالي ثمانية كيلومترات، وهو يقع على ارتفاع يصل إلى ثلاث وخمسين قدماً فوق مستوى بحر قزوين، على محور شمالي غربي[٢] وبنيت جدران الكهف من كتل الأحجار الجيرية البيضاء التي وضعت في مداميك أفقية، وهي تتفاوت في سمكها ما بين ٧٠، ٥٠، ٣٠،

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٢) C.S. Coon, op. cit., p. 143.

٢٠ سم. ويبلغ طول الكهف ثلاثون قدماً وعرضه اثني عشر قدماً وارتفاعه سبعة عشر قدماً[١].

وتوجد الأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط في كهف بلت أسفل الأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث. ولقد عثر في الطبقة الحادية عشرة من كهف بلت على كميات كبيرة من قرون الغزال، مما قد يرجح أنها قد استخدمت في عمليات حفر الأرض. ويرجح ـ اعتماداً على دراسة المخلفات الأثرية في كهف بلت ـ أنه قد شُغل بالسكان منذ حوالي منتصف الألف العاشر قبل الميلاد، واعتمد سكانه في حياتهم على صيد عجل البحر، واستخدموا العديد من الأدوات التي ترجع إلى مرحلة العصر الحجري الوسيط مثل الفؤوس والسهام، كما أنهم قد تمكنوا من استئناس الكلاب في هذه المرحلة، ولكن يلاحظ أن موقع كهف بلت قد هجره السكان لفترة تقرب من ثلاثة آلاف عام، حيث سكنه مرة أخرى صيادون اعتمدوا في حياتهم على صيد الغزلان، ثم هُجر الكهف مرة أخرى، حيث سكنه هذه المرة الرعاة، الذين عملوا بالزراعة وذلك أثناء العصر الحجري الحديث[٢]. (شكل ٧٧)[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن الأدوات التي كشف عنها في كهف بلت تشبه بشكل كبير تلك التي كشف عنها في كهف شانيدار الذي يقع في أقصى شمال العراق[٤]،

---

(١) Ibid., pp. 142- 143.

(٢) Ibid., pp. 149- 150, 167.

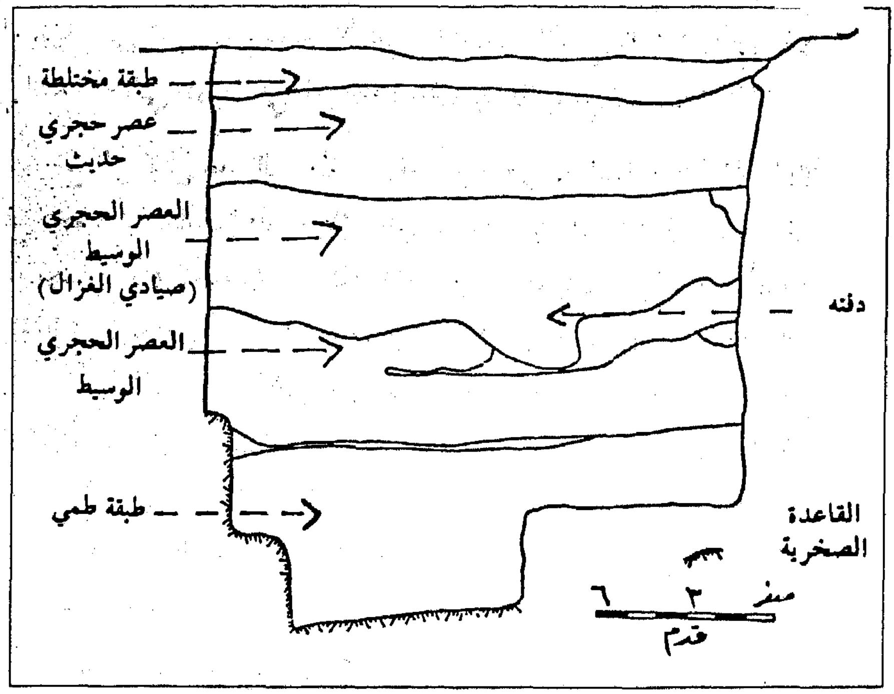
(٣) Ibid., p. 144.

(٤) يعتبر كهف شانيدار من الكهوف الكبيرة التي سكنها الإنسان منذ دور فرم الأول، ولقد عثر فيه على العديد من الهياكل البشرية والأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط. انظر:

R. Solecki, «Three Adult Neanderthal Skeletons from Shanidar Cave, Northern Iraq» Smithsonian Report Publication (1959- 1960), pp 603- 635 ,

D.A.E. Garrod, op. cit., p. 87 ,

J.G.D. Clark, «in Mesolithic Times», in C A H., vol. I, part I, pp 120-121



شكل (٧٧)

رسم تخطيطي لقطاع يوضح ترتيب طبقات كهف بلت

ولا يقتصر التشابه على تقنية صناعة الأدوات الحجرية فقط، بل يتعداه أيضاً إلى أنهما يرجعان إلى نفس الفترة الزمنية[١].

ويلاحظ أن معظم الأدوات الحجرية التي عثر عليها في كهف بلت تتكون بشكل رئيسي من الأسلحة النصلية وتتضمن المكاشط، وأدوات حجرية مشكلة بطريقة هندسية، وهي تعبر عن الإنتاج الحضاري للإنسان في مرحلة العصر الحجري الوسيط وبداية العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة[٢] فقد عثر في هذا الكهف على بعض الأدلة الأثرية المتصلة ببداية العصر الحجري الحديث،

(١) E. Sunderland, op. cit., p. 403.

(٢) J.G.D. Clark, op. cit., fig. 15, nos. 15- 20, p. 119.

مثل بداية ظهور الأواني الفخارية الملساء، واستمرت هذه الأواني مستخدمة في هذه المنطقة حتى تطورت صناعة الأواني، فظهرت الأواني الملونة التي تشبه الأواني الفخارية التي ظهرت في المرحلة الحضارية الثانية في تبه سيالك[1].

ويرجع إلى نفس هذه المرحلة، موقع آخر، هو تبة أسياب Tepe Asyab وهو يقع بجوار تبة جانجي داره ويطل على نهر كاراسو Karasu إلى الشرق من كرمنشاه بحوالي ستة كيلومترات. ولقد كشف في تبة أسياب عن بعض الأدوات الحجرية المصنوعة من حجر الصوان، والتي يحتمل معاصرتها للأدوات التي كشف عنها في موقع كريم شاهير في العراق. وعثر في تبة أسياب على بعض أدوات الزينة المصنوعة من الأحجار كالعقود والقلادات وكذلك بقايا أساور مصنوعة من الرخام. وبالإضافة إلى الأدوات الحجرية والحلي، فلقد عثر على العديد من الأشكال الطينية الصغيرة، منها ما يشمل أشكالاً مبهمة لا يمكن تحديد ما تهدف إليه.

ومن الأمور التي قد تشير إلى وجود نوع من الاعتقاد في العالم الآخر، الكشف في موقع تبة أسياب عن دفنتين نثر فوقهما التراب الأحمر ـ وهو الأمر الذي سنناقشه فيما بعد ـ كما عثر كذلك على كميات كبيرة من العظام الحيوانية والأصداف النهرية.

ويذكر J. Braid Wood أنه من الأشياء الملفتة للنظر في موقع أسياب، الكشف عن كميات كبيرة لما يمكن أن يكون برازاً متحجراً، وفي حالة التأكد من أن هذه المادة هي براز متحجر، وأنها خاصة بالإنسان، فإنها في هذه الحالة تعتبر دليلاً قوياً على وجود مجموعة من الناس استطاعت تحقيق نوع من الاستقرار المعيشي في هذا الموقع، وكانت تعتمد في حياتها بشكل رئيسي على جمع الطعام، وإن كانت تتجه نحو مرحلة إنتاج الطعام. ويضيف J. Braidwood أن هذه المادة التي يرجح أنها براز، هي على الأرجح براز آدمي، وذلك من

---

(١) C.S Coon., op. cit., p 166

ملاحظة حجمها وشكلها، وهي توجد بكميات كبيرة مركزة في داخل المنطقة السكنية في موقع أسياب، وهو الأمر الذي يشير أيضاً إلى أنها براز آدمي، ولا يمكن أن نتوقع وجود براز حيوانات برية بهذه الكمية في هذا الموقع، كما أنه لا يوجد أي دليل على استئناس الإنسان للحيوان في منطقة أسياب[١].

ولقد كشف في موقع أسياب عن بعض حفر في الأرض، يبدو أنها كانت تثبت فيها أعواد البوص التي كانت تستخدم لبناء الأكواخ، ويبدو أنه لم تبن هذه الأكواخ بهدف الإقامة الدائمة، إذ يرجح أنها كانت تستخدم كمكان إقامة مؤقت في بعض فصول السنة فقط[٢].

وبالنسبة للتحديد الزمني للنشاط الإنساني في موقع أسياب، فيذكر J. Braidwood أنه يمكن القول بأنه يقع في الفترة ما بين٩,٠٠٠، ٧,٠٠٠ق.م[٣].

ويرى جيرشمان R. Ghirshman[٤] أن المرأة في هذا المجتمع البدائي، قامت بالأعمال التي تتطلب مهارة خاصة، فقد كان عليها حراسة النار، وربما كذلك، اختراع وصناعة الفخار، وكانت تبحث عن الجذور الصالحة للطعام، وتجمع الثمار البرية من الجبال. وكانت معرفتها للنباتات نتيجة ملاحظة طويلة ومثابرة كبيرة وأدى ذلك إلى تجربتها للزراعة، وكانت محاولاتها الأولى للزراعة في المسطحات الغرينية. ويرى أنه بينما ساهم الرجل بجزء بسيط في التقدم الحضاري، فإن المرأة بمحاولاتها المبكرة للزراعة البدائية، قد أدخلت العديد من الاختراعات خلال العصر الحجري الحديث، وذلك نتيجة لنقص التوازن الذي نشأ بين الأدوار التي قام بها الرجل والمرأة، وربما كان ذلك أصل بعض

(١) R J. Braidwood, B. Howe. and, C.A. Reed. «The Iranian Prehistoric Project», in Science, vol. 133, No. 3458 (7 April, 1961), p. 2008

(٢) J. Mellarat, «The Earliest Settlements in Western Asia from the Ninth to the End of the Fifth Millennium B.C , «In C A H., vol. I, part I, Cambridge, 1970, p 262.

(٣) R.J. Braiwood, B Howe and C. A. Reed, op. cit . p 2008

(٤) R. Ghirshman, op. cit., p. 28

المجتمعات المبكرة التي كانت السيادة فيها للمرأة. وفي هذا المجتمع الذي تتسلط فيه المرأة (وربما كذلك في المجتمعات التي تمارس فيها المرأة الزواج بأكثر من رجل واحد) فإن المرأة كانت هي التي تدير شؤون القبيلة، وتُرفع إلى مرتبة الكهانة، وتكون وراثة الأسرة وتعاقبها عن طريق خط المرأة، واعتبرت المرأة كناقلة في هيئتها النقية لدم حياة القبيلة، وكان هذا النظام الذي تتسلط فيه المرأة، أحد الممارسات الخاصة للسكان الأصليين في الهضبة الإيرانية، وانتقلت تلك الممارسات إلى عادات الآريين الذين دخلوا الهضبة.

ثالثاً: المرحلة الحضارية الأولى
(بداية الاستقرار البشري على الهضبة الإيرانية)

اصطلح على تسمية مرحلة العصر الحجري الحديث في إيران باسم المرحلة الحضارية الأولى، وهي تمثل أقدم مراحل الاستقرار في منطقة الهضبة الإيرانية، أي مرحلة العصر الحجري الحديث أو مرحلة إنتاج الطعام وما يتصل بها من الصناعات اللازمة للزراعة وبناء القرى والاستقرار.

ويمكن تتبع العديد من المواقع الأثرية التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث في إيران سواء في الأودية أو على سفوح الهضاب، وتختلف التطورات الحضارية من منطقة إلى أخرى، بل أحياناً من موقع إلى آخر وذلك لأسباب بيئية وبشرية، فبينما تمكن بعضها من التوصل إلى مرحلة العصر الحجري الحديث تقريباً، في الوقت الذي توصلت إليه كل من عصر حضارة جرمو وحسونة في العراق القديم والفيوم أومرمدة بني سلامة وحلوان العمري ودير تاسا في مصر أو قبلها بقليل، فأن بعضها الآخر لم يصل إلى مرحلة العصر الحجري الحديث إلا في وقت متأخر عن ذلك. ويلاحظ كذلك أن الكثير من هذه المواقع قد توقف إنتاجها الحضاري بعد مرحلة العصر الحجري الحديث، كما تباين الإنتاج الحضاري فيما بينها بشكل كبير.

واستمر الإنسان في العصر الحجري الحديث في سكنى الكهوف والمآوى الصخرية، وبالتدريج أصبحت المناطق المفتوحة مألوفة لديه. وكان للرغبة

الإنسانية في المحافظة على القديم وعدم التجديد أثره في أن ظلت بعض المواقع تشغل لعدة قرون، وبمرور الزمن أدى تراكم المخلفات إلى تكوين ما يسمى «تبة» أو «تل».

وتعتبر منطقة زاجروس من المناطق الرئيسية التي لها اعتبارها في مجال نشأة المراحل الأولية للزراعة، حيث ظهرت في هذه المنطقة المراحل الأولى المبكرة لاستئناس النبات والحيوانات التي وجدت في حالة برية. ففي الجانب العراقي، كشفت الحفائر الأثرية التي أجريت في بعض المواقع مثل شانيدار وجرمو وحسونة، وجود هذه التطورات الحضارية دون وجود أية فجوات، والتي بدأت بنشأة المجتمعات الزراعية المبكرة بدءاً من مرحلة التنقل والاستقرار البدوي وأخيراً إلى مرحلة القرى الزراعية المستقرة. ويشابه ذلك في إيران القرى التي وجدت في خوزستان ولورستان، وكذلك في منطقة فارس وشمال إيران وشرقها[١].

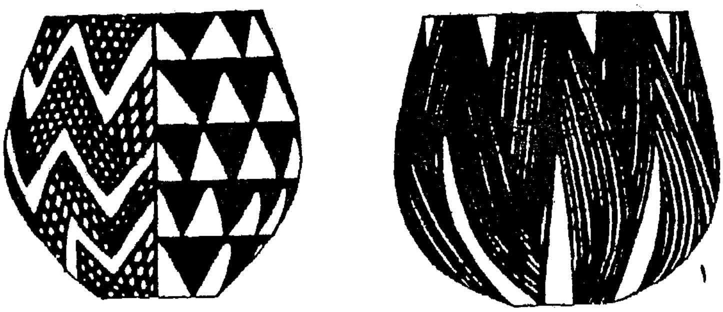
وتمكن الإنسان خلال هذه المرحلة من التوسع في الإنتاج الزراعي، وكذلك استئناس الحيوان وبخاصة الأغنام والماعز والثيران، مع استمراره في ممارسة حرفة الصيد. وفيما يتصل بالصناعات الفخارية المميزة لهذه المرحلة بشكل عام، فيلاحظ أن الفخار في بداية أمره كان ذو لون أسود، وربما يرجع ذلك إلى عدم القدرة في التحكم في النيران المعدة لحرقه في هذه المرحلة المبكرة، ثم ظهر نوع جديد من الفخار يتميز بأن حافته حمراء وعلى سطحه بقع سوداء ناتجة عن إشعال النار. وتمت الخطوة التالية من التقدم في صناعة الفخار، وهي التي تسمى بالتمهيد للفخار الملون، إذ غطيت الأواني بشرائط بيضاء في خطوط أفقية ورأسية، ويبدو أن هذه الزينة تحاكي السلال التي صنعها الإنسان في أول أمره، وقد أظهر بالألوان جدائل الأغصان[٢]. إلا أن ذلك لا

---

(١) B Dicks, The Ancient Persians, U.S.A., 1979, p. 1?

(٢) R Ghrishman, op cit., p. 29

يمنع من وجود بعض التطورات الخاصة والمميزة لبعض المناطق، والتي تختلف مع هذه التطورات أو تتفوق عليها. (شكل ٧٨).



شكل (٧٨)

بعض زينات الأواني في تبة دالما

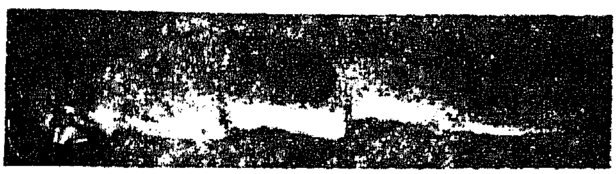
وقرب نهاية هذه المرحلة أخذت الأدوات القزمية في التطور، وبدأ الإنسان يفهم خواص المعدن، فقد تعرف على طرق النحاس، ولكنه ظل جاهلاً بفن صبه. ويتضح مما كشف عنه من أعداد كبيرة من قطع الصلصال التي لها شكل المسند، وكذلك فلكات المغازل الحجرية المستدقة، أن صناعة النسيج الأولية البدائية قد عرفت بالفعل(١).

ويظهر الإنجاز الفني لهذا العصر في أتم صورة في النحت على العظم، فكان يشكل أيدي أدواته على هيئة قرون الغزلان أو الحيوانات البرية، ومن

(٢) Ibid., p. 29.

أجمل القطع التي عثر عليها، يد سكين تمثل رجل من هذا العصر يرتدي غطاء للرأس وثوب أسد ثبت بواسطة حزام[١]. (شكل ٧٩). وأحب الرجال والنساء الزينة الشخصية، فصنعوا عقوداً من الأصداف، ونحتوا خواتم وأساور من الأصداف الكبيرة أو الأحجار، وكانوا يطحنون طلاء الوجه في هواوين صغيرة بواسطة مدقات صغيرة الحجم[٢].

ومن أهم المظاهر الحضارية التي تميز هذه المرحلة الأولى من مراحل الاستقرار في الهضبة الإيرانية بناء المنازل، وكانت المنازل في أول أمرها عبارة عن أكواخ بسيطة شيدت من أغصان الأشجار وكسيت بالكتل الطينية حتى تساعد على تماسكها، وبالتالي تكون بمثابة حيطان لهذا المنزل الأول، ثم استخدمت كتل الطين في تشييد هذه الجدران، وفي بعض المواقع الإيرانية كان لهذه الجدران أساس حجري، وقد اتخذت هذه المنازل الشكل المستطيل في تخطيطها.



شكل (٧٩)

يد سكين مصنعة من العظم

وفيما يتصل بدفن الموتى، فقد دفن الموتى أسفل أرضية المنازل في وضع مقرفص، ووضع على عظام المتوفي التراب الأحمر، وهي الممارسة التي

(١) R. Ghirshman, Fouilles De Sialk, vol, I, Paris, 1938, p. 17, Pl. VII, LIV.

(٢) انظر على سبيل المثال:

E.F. Schmidth, Excavations at Tepe Hissar Damghan, Philadelphia, 1937, p. 61.

عرفت في أماكن أخرى، ويبدو أن ذلك راجعاً إلى تغطية جسد الإنسان باللون الأحمر، أو يحتمل أن ذرات أوكسيد الحديد كانت تنثر فوق جسد الميت قبل دفنه، ومن ثم فإنه عندما يبلى الجسد تكون العظام قد صبغت باللون الأحمر(١). ويتجه بعض المؤرخين في تفسير وجود اللون الأحمر إلى احتمال فائدته في إعطاء الحياة لصاحب تلك الجثة، وذلك على اعتبار أن هذا اللون الأحمر يرمز إلى الدم الذي يعتبر جريانه في جسد الإنسان دليل على أن هذا الإنسان يتمتع بالحياة، ويمكن الاستدلال من ذلك على إيمان أصحاب تلك الحضارة بالحياة الأخرى(٢). ومما قد يشير إلى هذا الأمر كذلك ـ وهو الإيمان بالحياة الأخرى ـ وأن الحياة في العالم الآخر ستكون مطابقة للحياة الدنيا، ما عثر عليه في المقبرة رقم (T.5) في التل الشمالي في تبة سيالك، فقد وضعت فأس حجرية مصقولة بجوار الهيكل العظمي، وقد وضعت الفأس بطريقة تشير إلى أنها في متناول يد المتوفي، بينما يوجد إلى القرب من رأسه زوج من فكي الماعز(٣). وزودت المقابر بتجهيزات جنزية كانت توضع في أغلب الأمر بالقرب من رأس المتوفي، وأحياناً فوق جسده، وتكونت هذه التجهيزات من الأواني الفخارية والدبابيس النحاسية والسكاكين والخناجز وأدوات الزينة(٤).

ومن المواقع التي ترجع إلى هذه المرحلة في إيران حسب ترتيبها الزمني هي: تبة جوران، تبة ساراب، موقع علي كوش، تبة سابز، تبة موسيان، تبة جودين، كهف بلت، كهف هوتو، تبة حاج فيروز، تبه سالك، تبه جيان(٥).

---

(١) C Childe, New Light on The Most Ancient East, London, 1964, P 192

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) R. Ghirshman, op cit., P. 11, Pl, X, 4.

(٤) E.F. Schmidt, op. cit., p 302

(٥) انظر عن هذه المواقع بالتفصيل:
أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ ايران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث ق. م، بيروت، ١٩٨٨، ص ١١٥ ـ ١٧١.

رابعاً: المرحلة الحضارية الثانية

تؤرخ المرحلة الحضارية الثانية بحوالي نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع قبل الميلاد، وهي تعاصر المرحلة المعروفة باسم «عصر استخدام النحاس والحجر» Chalcolithic، وهو عصر حضارة البداري[١] في مصر وعصر حلف[٢] في العراق القديم.

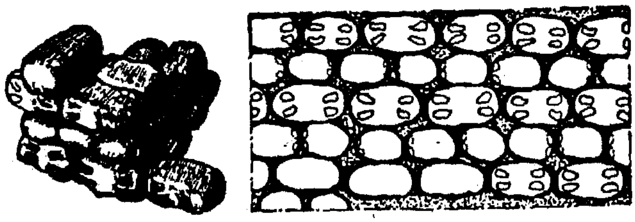
وتعتبر المرحلة الثانية من التطور الحضاري لعصور ما قبل التاريخ في إيران استمراراً للمرحلة الحضارية السابقة، تقدمت فيها مناحي المظاهر الحضارية التي تتبعناها في المرحلة الحضارية الأولى وتوجد البقايا الأثرية لهذه المرحلة فوق المخلفات الأثرية للإنسان في المرحلة الحضارية الأولى مما أدى إلى وجود اشتراك في بعض طبقات التلال بين المرحلتين الحضاريتين الأولى والثانية.

ويستدل من الأدلة الأثرية المتخلفة من المرحلة الحضارية الثانية على استخدام الطوب اللبن في البناء مما أدى إلى ازدياد مساحة المنازل (شكل ٨٠) ٣ وطليت جدران الحجرات بطلاء أحمر اللون مستخرج من أوكسيد الحديد المنتشر بكميات كبيرة على الهضبة الإيرانية. ويشير ذلك إلى تفاعل الإنسان وإمكانات البيئة المحيطة به، ومحاولته استغلالها وما يتفق ومطالب حياته،

---

(١) تقع البداري ـ وهي إحدى مراكز محافظة اسيوط ـ على الضفة الشرقية للنيل ـ فيما بين أبوتيج وطما، عبر النهر.

(٢) يقع تل حلف في أعلى نهر الخابور على مبعدة ١٤٠ ميلاً إلى شمال غرب نينوى.



شكل (٨٠) الشكل المبكر لقوالب الطوب اللبن

ومما لا شك فيه أنه لم يتوصل إلى ذلك إلا بعد فترات طويلة من الملاحظة والتجارب.

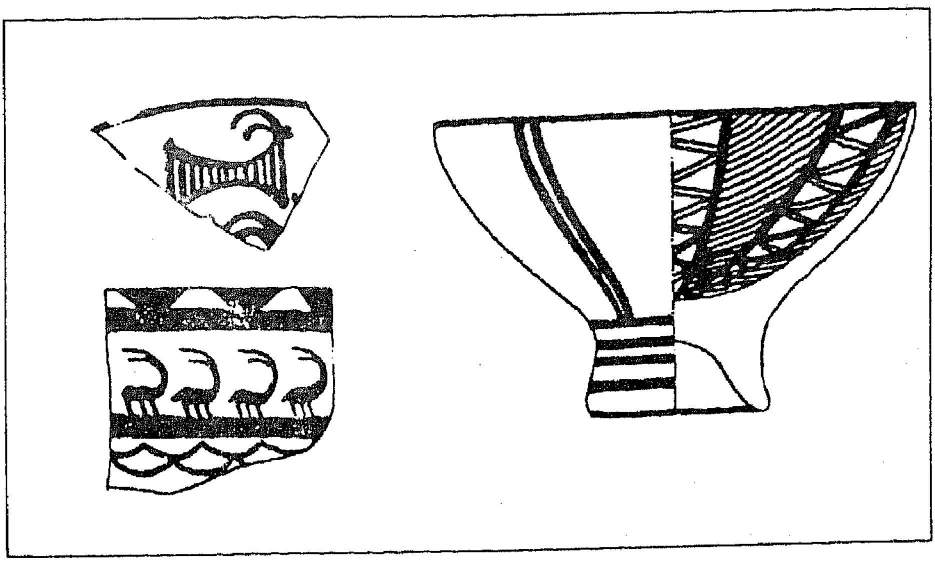
ولقد نمت القرى بسرعة واتسعت تجارب الإنسان في مجال الزراعة، فتمكن من التوصل إلى استخدام المحراث، وتمكن الإنسان من استئناس بعض الحيوانات ـ وذلك بالإضافة إلى الحيوانات التي استأنسها في المرحلة الحضارية الأولى ـ ومن هذه الحيوانات نوع من الكلاب السلوقية، وحصان من نوع Przewalski وكان هذا الحصان صغير الحجم قوي الجسم له عرف فرس منتصب سميك، ولقد استخدم هذا الحيوان في السفر والنقل، وفي نفس الوقت فأنه كان يستخدم في العمل في الحقول[١].

واستمرت الأواني الفخارية تصنع بواسطة الأيدي، ومن المظاهر المميزة للمرحلة الحضارية الثانية ظهور نوع جديد من الفخار ـ وذلك بالإضافة إلى

---

(١) R Ghirshman, op. cit., p. 34.

وجود الأنواع السابقة ـ ويمتاز هذا الفخار الجديد بكونه أصغر حجماً، وأنه مصنوع بعناية كبيرة، ومحروق بشكل أفضل بكثير من الأنواع السابقة، والشيء الجديد في هذا الفخار والجدير بالانتباه يتركز في زينته التي نفذت بطلاء أسود على أرضية حمراء داكنة، وهي تتكون من صفوف من الحيوانات والطيور المليئة بالحركة، ولقد تمكن من رسمها بواسطة خطوط بسيطة، وبواقعية شديدة. (شكل ٧٧).



شكل (٨١) بعض نماذج الأوان وزيناتها من المرحلة الحضارية الثانية

واستمر خام النحاس يطرق ولا يصب، وصنع منه في هذه المرحلة العديد من الأدوات كالمخارز والدبابيس، وأصبحت الحلي أكثر وفرة وثراء، إذ أضيفت إليها بعض المواد الجديدة مثل الفيروز والعقيق الأحمر.

وظل الموتى يدفنون في وضع مقرفص أسفل المساكن، وتجدر الإشارة إلى أن مصر في هذه المرحلة أي أثناء عصر حضارة البداري قد تمكنت من الوصول إلى مرحلة متفوقة فيما يتعلق بإيمان الإنسان بحياته في العالم الآخر،

فقد تمكن البداريون من بناء منازل خاصة للموتى في مكان خاص بهم، أي جبانة، واعتنى البداري بالمحافظة على جثة المتوفي بصورة ملحوظة، فقام بتغطية المتوفي بالحصير والجلد والقماش للمساعدة في الحفاظ على جثته[١]، وقد أعطت هذه الحقيقة لمصر في تلك المرحلة تفوقاً حضارياً ملحوظاً في منطقة الشرق الأدنى القديم، لأن الاهتمام بحقيقة الموت ومصير الإنسان بعد الموت يعتبر تقدماً فكرياً يصل إليه الإنسان بعد تطوره المادي الدنيوي بصورة ملحوظة.

واعتمد الإنسان في سد بعض حاجياته الغذائية على القمح والشعير الذي كان ينمو برياً، ويحتمل كذلك أنه قد تمت زراعته بالفعل على بعض المسطحات الغرينية، ويتجه الأستاذ جيرشمان إلى القول بأن إيران قد أدخلت زراعة القمح إلى الأقطار المجاورة ومنها مصر[٢]، ولكن هذا الرأي يصعب تقبله، حيث تثبت الأدلة الأثرية التي كشف عنها أن مصر قد توصلت إلى إنتاج القمح - أي إلى زراعته - توصلاً محلياً صرفاً في عصر حضارة الفيوم أ[٣]. ومن ناحية أخرى فإنه يلاحظ أن الأبحاث الحديثة يتجه بعضها حالياً إلى إثبات أن مصر قد توصلت إلى زراعة القمح منذ الألف الثامن ق. م.

ونتيجة للتطور الحضاري المادي الذي حققه الإنسان في هذه المرحلة، فقد وجدت دوافع كبيرة للتجارة والتوسع، وكانت كل المنتجات التي ينتجها الإنسان تستخدم كعملة في التبادل التجاري في هذا المجتمع البدائي. وفي هذا العصر، وعندما كان الإنسان ما يزال في بداية استخدامه للمعادن، فإنه من المتفق عليه بشكل عام أن نشاطه التجاري كان يتضمن ما في بيئته من نباتات وأشجار وحيوان ومواد طبيعية، كبعض أنواع الأحجار الجيدة والأصداف وغيرها.

---

(١) E.J Baumgartel, «Predynastic Egypt», In C A H, vol I, Cambridge, 1970, p. 469

(٢) R. Chirshman, op. cit., p. 35.

(٣) G Caton- Thompson, and E.W. Gardiner, The Desert Fayum, vol I, London, 1943, pp. 41-48

ولقد ظهر الإنتاج الحضاري لهذا العصر في العديد من المواقع على الهضبة الإيرانية، مثل: تبة سيالك (خلال المرحلة الحضارية الثانية) وتبة كارا وتبة جيان (مرحلة جيان الخامسة) وموقع كشمة علي، وتل باكون «ب».

وأدى التطور الحضاري الذي حدث على الهضبة الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثانية إلى الانتقال إلى مرحلة حضارية أكثر تطوراً وهي ما تعرف باسم «المرحلة الحضارية الثالثة».

خامساً: المرحلة الحضارية الثالثة

يتمثل التطور الحضاري التالي لعصور ما قبل التاريخ في إيران في المرحلة الحضارية الثالثة، وهي تتضمن الجزء الأكبر من الألف الرابع قبل الميلاد. وتعاصر هذه المرحلة حضارة العبيد والجزء المبكر من حضارة الوركاء في العراق القديم، وفي مصر تعاصر حضارة جرزة الأولى وحضارة العمرة وعصر حضارة نقادة الأولى.

وتوضح الأدلة الأثرية التي كشف عنها في العديد من المواقع الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثالثة وجود تقدم ملحوظ في مجالات النشاط الإنساني أثناء هذه الفترة على الهضبة الإيرانية. ففي مجال العمارة يلاحظ اختفاء الجواليص الطينية التي كانت تستخدم في بناء المساكن، وحل مكانها قوالب مصنوعة من الطمى ذات شكل مستطيل، ويلاحظ مما تبقى من هذه المباني أن أبواب المنازل كانت ضيقة ومنخفضة فكان ارتفاعها عادة أقل من ثلاثة أقدام، وكانت النوافذ تقع على الشارع، ووضعت في الجدران أواني فخارية لتحمي المنازل من الرطوبة، وظلت الجدران الداخلية للمنازل تزين باللون الأحمر، ولكن يلاحظ أنه قد استخدم إلى جواره اللون الأبيض كذلك، وقسمت أحياء القرية بواسطة شوارع ضيقة وملتوية.

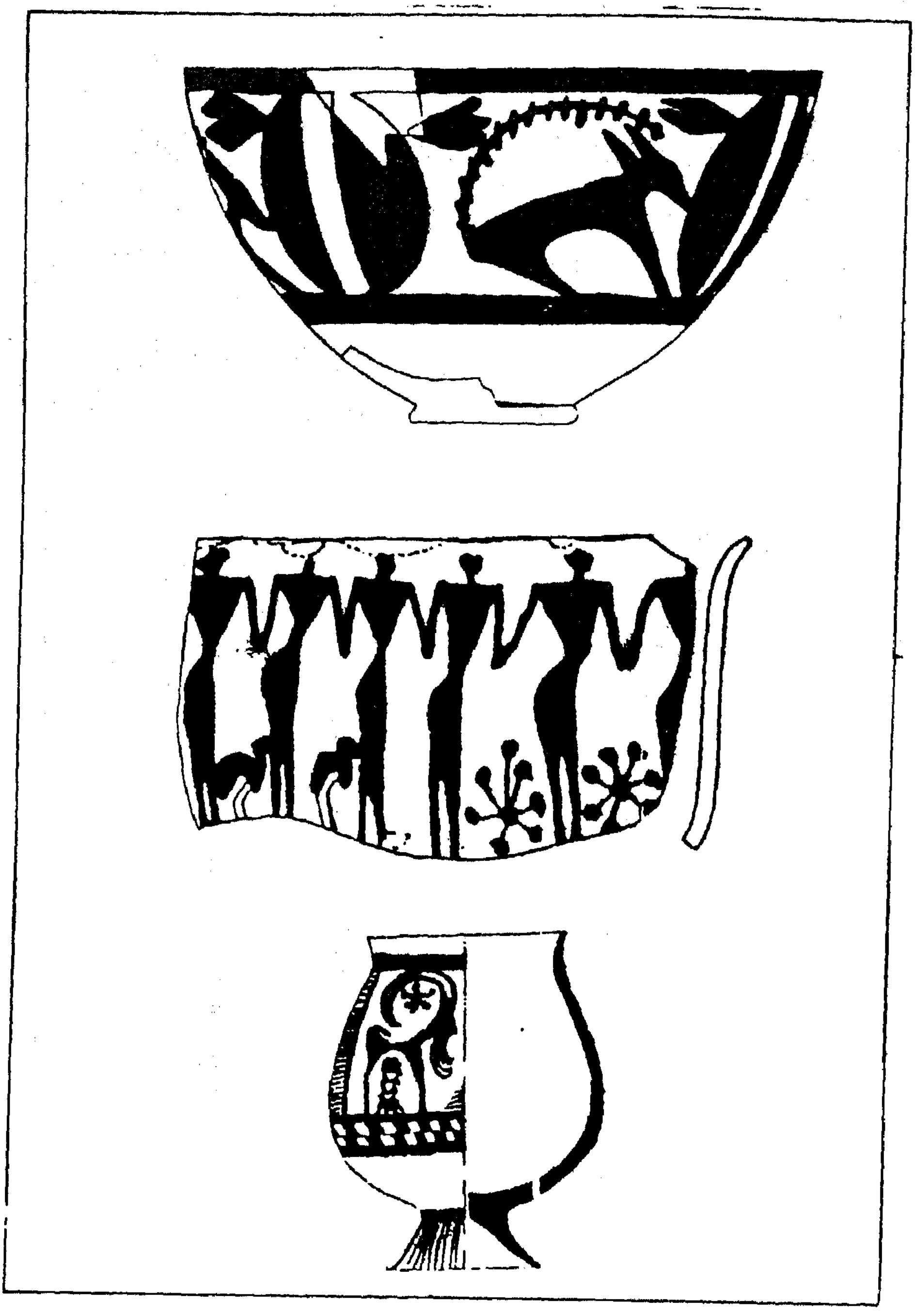
ومن نتائج هذا التقدم الحاسمة في مجال صناعة الأواني الفخارية، اختراع عجلة الفخار وحرق الأواني في أفران معدة لذلك. وكان من نتائج التوصل إلى اختراع عجلة الفخار ظهور العديد من الأواني الفخارية ذات الأشكال المختلفة،

مثل الكؤوس الكبيرة والأقداح ذات القواعد المرتفعة والأواني التي تستخدم كأدوات زينة وغيرها. وأدى إعداد أفران خاصة بحرق الأواني إلى التمكن من التحكم في ضبط قوة النيران، وتنوعت ألوان الأواني ما بين الرمادي والوردي الأحمر والأخضر.

وفيما يتصل بزينة الأواني خلال المرحلة الحضارية الثالثة، فيلاحظ أن الفنان قد اتجه في أول الأمر نحو الواقعية في زخرفة أوانيه، فقام برسم الحيوانات الموجودة في بيئته مثل الأفاعي والنمور والوعول والنعام، وأدى هذا العمل بمهارة كبيرة، فلم يعد يعبر عن أجساد الحيوانات بواسطة الخطوط المستقيمة، بل أخذ في إعطاء اعتبار لحجم الحيوان الذي يقوم برسمه، وبعد ذلك أخذ الفنان في رسم ذيول الحيوانات ورقابها وقرونها وقد استطالت بشكل سيء، ثم أصبح يرسم قرون الحيوانات ملتفة حول نفسها في عدة دوائر وقد اتصلت بالجسد، وفيما بعد، وجدت رغبة في العودة للواقعية مرة أخرى. وتعددت موضوعات هذه المناظر فكان منها مناظر الصيد التي تتعاقب مع المناظر الخلوية التي تمتلىء بمناظر الصراع مع الحيوانات، ومنها ما يظهر فلاحاً وهو يقود ثوره بواسطة حلقة موضوعة في أنفه، ومن هذه المناظر ما يمثل مواكب الراقصين وهم يقومون برقصة مقدسة[١]. (شكل ٨٢) آ.

وكان صانع الفخار فناناً تشكيلياً كذلك، فلقد شكل نماذج للحيوانات وصنع لعباً للأطفال وقرابين نذرية للآلهة المسؤولة عن حماية قطعان ماشيته وقد وضعت أمامها تماثيل للحيوانات التي يرغب في حمايتها. ولقد عثر على أعداد كبيرة من التماثيل تمثل إلهة الإخصاب، ولقد عثر عليها غالباً بدون رأس، وهذا البتر كان يتم عمداً، ويتجه الأستاذ جيرشمان إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك منع أي شخص آخر من استخدام هذه التماثيل الصغيرة بعد موت

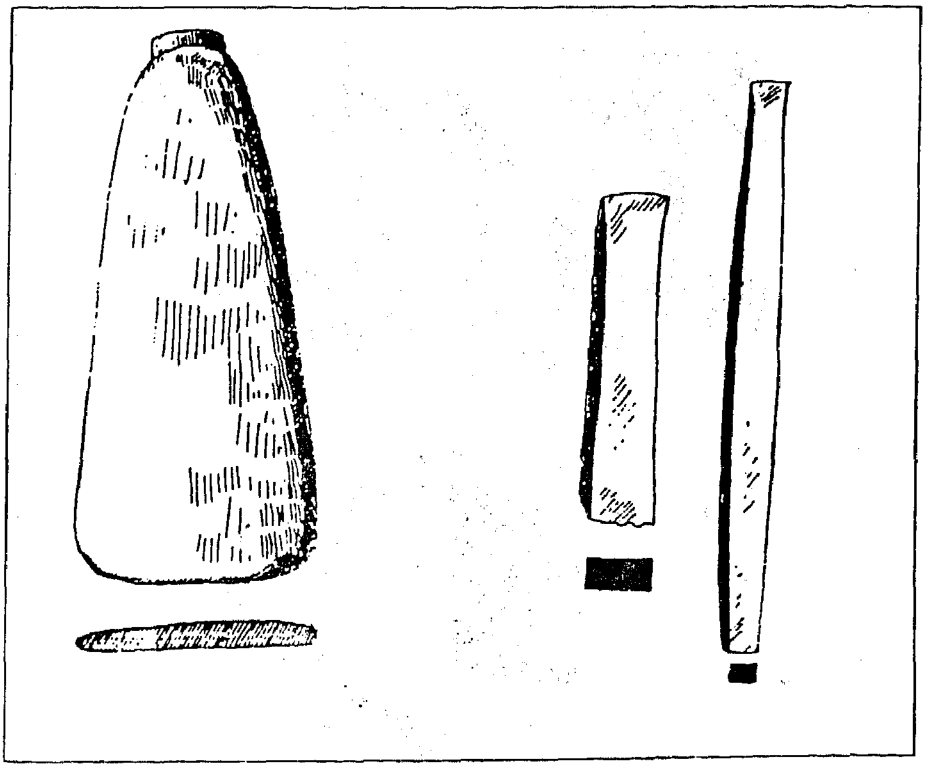
(١) R. Ghirshman, Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest, p. 36.



*شكل (٨٢) بعض زينات الأواني من المرحلة الحضارية الثالثة في إيران

صاحبها[1].

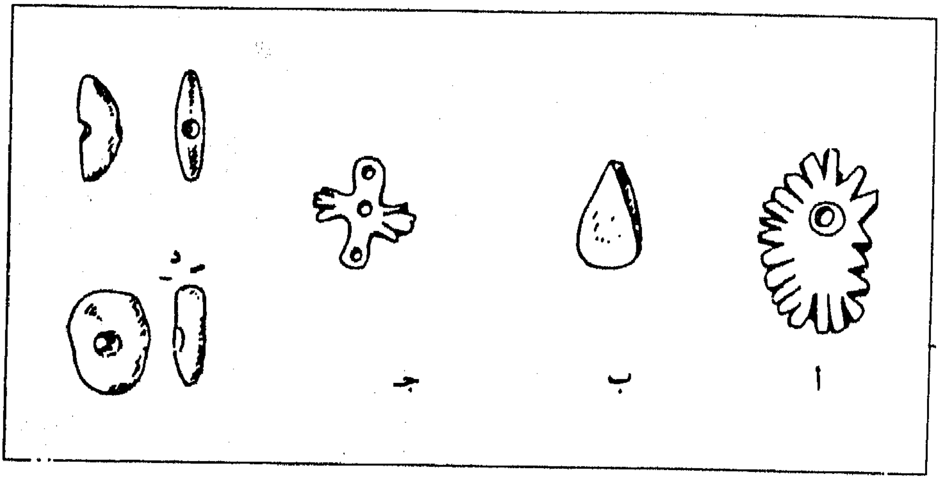
وواكب هذا التقدم الذي شهدته الهضبة الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثالثة، تقدم صناعة المعادن، فتوصل الإنسان خلال هذه المرحلة إلى عملية صهر النحاس وصبه، وأدى ذلك إلى زيادة المصنوعات النحاسية وتنوعها بشكل كبير، وأخذت تحل تدريجياً محل الأدوات الحجرية، فاستبدلت الفأس الحجرية بأخرى مصنوعة من النحاس، كما عثر في المنازل التي ترجع إلى هذه المرحلة على سكاكين مصنوعة من النحاس كذلك. (شكل ٨٣).



شكل (٧) نموذج للأزاميل والفؤوس النحاسية من الطبقة الأثرية الخامسة في سيالك

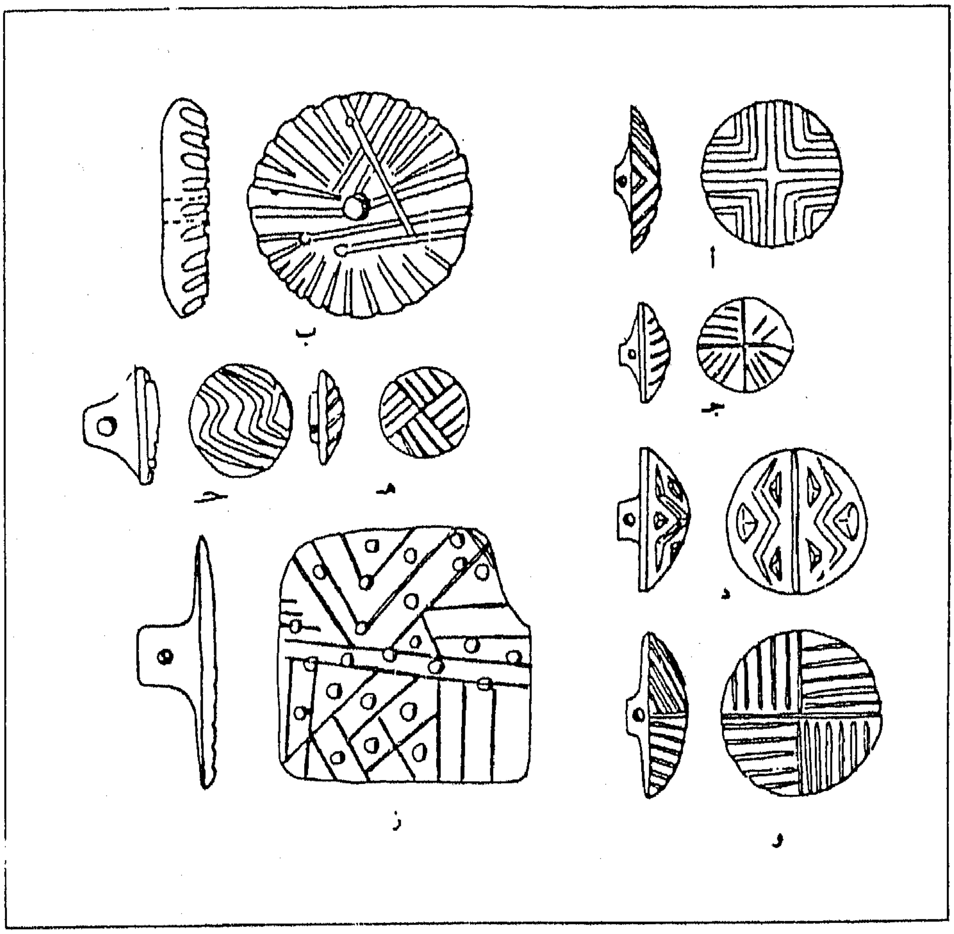
(١) Ibid., p. 40.

وأصبحت الحلى أكثر تنوعاً وثراء، فبالإضافة إلى الأصداف والعقيق الأحمر والفيروز، وجدت كذلك القلادات والخرز المصنوع من أحجار الكريستال واللازورد، كما بدأ الصناع في صناعة بعض الأدوات الخاصة بالزينة مثل اسطوانات مسطحة للمرايا ذات حواف مرتفعة قليلاً، ودبابيس كبيرة برؤوس نصف كروية. (شكل ٨٤).



شكل (٨٤) نماذج لبعض أدوات الزينة

ونظراً لازدياد النشاط التجاري فقد ظهرت الحاجة لتأمين كميات الأواني وضمان سيانة البضائع، وحتى يستطيعوا تمييز ملكية هذه الأشياء، فقد بدأوا في استخدام الأختام التي أصبحوا يختمون بها السدادة التي تغلق فتحة الآنية، وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بختم قطعة من الطين تتصل بالآنية بواسطة حبل (شكل ٨٥) . وهذه الحقيقة لها أهميتها من الناحية الاجتماعية، فهي تدل على شعور الفرد بشخصيته الذاتية وملكيته الفردية في المجتمع. وكان شكل الأختام المبكرة، التي ظلت بدون تغيير لفترة طويلة، عبارة عن قطعة حجرية ذات شكل كمثري مزودة بشريط، وكانت النقوش التي عليها في أول الأمر عبارة عن زينات هندسية، ولكن سرعان ما حل مكانها أشكال إنسانية ونباتية ثم رموز، ويمكن



شكل (٨٥) نماذج لبعض الأختام الحجرية

القول أن هذه الرموز قد استلهمت من الزينة الملونة التي ظهرت على الأواني الفخارية[١].

وفيما يتصل بالاعتقاد في الحياة في العالم الآخر، فلم يحدث تقدم فكري ملموس على الهضبة الإيرانية خلال هذه المرحلة، حيث ظل الموتى يدفنون

(١) Ibid., p. 41-42.

أسفل أرضية المنازل، واستمرت الممارسة التي اتبعت من قبل وهي نثر التراب الأحمر فوق أجساد الموتى.

ولقد ظهر الانتاج الحضاري للمرحلة الثالثة في العديد من المواقع على الهضبة الإيرانية، مثل موقع تبة سيالك وذلك، خلال المرحلة الحضارية الثالثة بطبقاتها الأثرية السبع، وتبة حسار خلال المرحلة الحضارية الأولى بطبقاتها الأثرية الثلاث، وموقع تل باكون أ من الطبقة الأولى وحتى الرابعة، وموقع بسيدلي وتبة جوي Geoy وتبة يانيك Yanik وموقع تبة جيان خلال المرحلة الخامسة، وأخيراً فمن أهم المواقع التي ترجع إلى هذه المرحلة موقع سوسة في جنوب غرب إيران.

الفصل الخامس
عصور ماقبل التاريخ
فى
سوريـــــة

مقـــدمة تمهيـــدية

تطلق تسمية سورية على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس شمالا وسيناء جنوبا ، وبين البحر المتوسط غربا وبلاد النهرين شرقا ، وأطلق العرب على هذه المنطقة إسم «الشام» وتعنى اليسار او الشمال بالمقابلة مع الميمن (اليمين أو الجنوب) وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز .

وأطلق سكان وادى الرافدين القدامى على سورية اسم «أمورو» وهي تقابل كلمة مارتو السومرية التى تفيد معنى الغرب . وفى نصوص رأس الشمـرة التى ترجـع الى القـرن الرابع عشر ق.م وردت كلمة «شرين» Shryn ، واستعملت كلمة «سريون» فى المصادر العبرانية عند الاشارة الى اقليم لبنان الداخلى ؛ وقد سمى البابليون اقليمان فى الفرات بأسم «سو ـ رى» و «سر ـ رى» ، ومنذ العهد اليونانى استخدم اصطلاح «سـورية» وكان يعنى بلاد الشام جميعـا ، وظل استعماله مستخـدما حتى العصور الحديثة(١) .

ونادرا ما انضمت هذه المنطقة تحت لواء واحد فى العصور القديمة ؛ ويبدو انه سكنتها خلال الالف الثالث ق.م شعوب تختلف فى طرق معيشتها وفى صلاتها العرقية ولغاتها ، ومع ذلك ، فانه رغم الاختلاف بين شعوبها خلال العصور التاريخية ،فانه يمكن القول بأن المنطقة التى تعرف الآن بأسم سوريا ولبنان تكون وحدة جغرافية بحدود طبيعية ،فيحيط بها من الشمال والشمال الغربى جبال الامانوس وجبال طوروس فى الاناضول وثنية الفرات العليا ، ويحدها من الغرب البحر المتوسط ،ومن الشرق الصحراء السورية

---

(١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، جـ ٣ ، سورية ؛ القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧ .

والامتداد الشمالى لصحراء النفوذ ، ومن ناحية الجنوب فانهـا تندمج مع فلسطين التى تمتد حتى حدودها مع مصر(١) ٠

ولم تكن سورية تعنى فى التاريخ دولة معينة لها كيان الدول المعروف ومقوماتها ، وأثر فى هذا الموضع الخصائص الجغرافية للمنطقة الساحلية السورية الفلسطينية ، فتركز طرق المواصلات الاساسية بين ثلاث قارات فى هذا القطاع الضيق من الارض كان يعنى انه قدر لهذا القطاع أن يكـون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات ، دون اية فرصة جائمة لانشاء نظم سياسية قوية ،فقد كانت هذه المنطقة بمثابة ارض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى التى كانت تقع بينها ، وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليه مرة بعد أخرى وذلك لانها كانت منطقة جذب فى حد ذاتها لخصوبة أرضها ، كما انه يمكن دخولها من كل جانب والانتقال منها فى كل اتجاه ، ويضاف الى ذلك انهـا كانت مفتوحـة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط ، فضلا عن الصحراء التى جـاء منها البدو الساميون(٢) ٠

وكان لموقع سورية المتوسط بين حضارتى مصر والعراق اثره فى تطور الحياة فيها بصورة غير تلك التى ظهرت فى مصر أو العراق(٣) فبحكم موقع سورية واتصالها المباشر بجيرانها فقد تاثرت بهم ، ومن ثم جاءت حضارتها على صورة مخالفة لجيرانها ، ومن ناحية اخرى فقد كان لهذا الموقع بين هاتين القـوتين الكبيرتين فى العالم القـديم بالاضافة الى طبيعـة سورية الجغرافية أثره فى عدم وجود قوة سياسية كبرى فى هذه المنطقة من العالم

---

(1) Fisher, W. B., The Middle East, London, 1948, p. 34.

(٢) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر ، وراجعه محمد القصاص ، القـاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٢ ٠

(3) Gadd, C. J., and Legrain, L., Royal Inscriptions, London, 1928, p. 78.

تنظم الاقليم السورى كله • ويلاحظ كذلك أن المرات القليلة التى اتحـدت فيها وحداته كان ذلك بارادة سلطة خارجية •

ونتيجة لذلك لم تظهر وحدة سياسية واحدة تجمع بلاد الشام جميعها فى دولة واحدة ، وانما كان بعضها عبارة عن وحدات صغيرة تقوم فى مدن حصينة مبنية فوق أرض مرتفعة ، بينما ظل اغلبها ممن عاشوا خارج المدن بدوا يتنقلون من مكان الى مكان ويضغطون باستمرار على المراكز المستقرة•

ويعتمد المؤرخ فى دراسته لتاريخ سورية القديم على العديد من المصادر ويأتى فى مقدمتها المصادر الاثرية والنصية ، ولقد كشف عن العـديد من هذه المصادر فى العديد من المناطق فى بلاد الشام ، وسنلقى الضوء فيما يلى على بعض هذه المصادر •

ومن أهم هذه المصادر الكشف عن مدينة مارى (تل الحريرى حاليـا على مبعدة ميل غربى الفرات قرب بلدة ابو كمال) وهو العمل الذى قام به الآثارى Andre Parrot (١) • وقد تم الكشف فى اطلال مدينة ماوى على اكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح مسمارى(٢) ، واللغة التى كتبت بها الألواح فى معظم الأحيان اكادية غير ان المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لاتترك مجالا للشك بأن الذين كتبوا تلك الالواح تكلموا الأمورية أو اللغة السامية الغربية المختلفة عن الأكادية أو السامية الشرقية ، وتمثل هذه الألواح محفوظات الملك زمرى ليم (١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ ق•م تقريبا) وهو آخر ملوك مارى الذى قضى على دولته الملك حمورابى •

---

(1) Parrot, A., "Les Peinture. du Palais de Mari", in Syria, Vol. XVIII (1937), pp. 324-354.

Parrot, A., "Les Fouilles de Mari", in Syria, Vol. XIX (1938), pp 1-29., Vol. XX (1938), pp 1-22.

(2) Dossin, G., "Les Archives epistolaires du Palais de Mari", in Syria, Vol. XIX (1938), pp. 105-126.

Dossin, G., "Les Archives economiques du Palais de Mari", in Syria, Vol XX, (1939), pp 97-113

وتتضمن هذه الألواح وثائق سياسية سجلها الملوك والموظفون ووثائق ادارية واقتصادية ، واستطاع الباحثون استخلاص الكثير من المعلومات التاريخية من دراسة هذه الوثائق ، اذ يتضح منها ان مدينة حلبو (حلب) كانت عاصمة يمخاضة ، وان جبله (جبيل بيبلوس) كانت مركزا لنسيج القماش والملابس ، وان قطنة (شمال شرقى حمص) كانت مركزا هاما ، وان حران كانت امارة أمورية . وتظهر الوثائق أن جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات أمورية أو تحت حكم أمراء أموريين(١) .

ويعتمد الباحث فى دراسته للكنعانيين على العديد من المصادر التى كشف عنها فى سورية وفلسطين ، ومن اقدم النقوش التى كشف عنها «النقوش السينائية» والتى يمكن نسبتها الى النصف الأول من الالف الثانى ق.م ، وهى الكتابة التى اقتبسها الفينيقيون من المصريين فى سيناء ، وكانت هذه الابجدية بدون حروف صوتية بسبب تاثير الكتابة الهيروغليفية المصرية .

واقدم النصوص التى ترجمت منها ترجمة يمكن التعويل عليها تنتمى الى بداية النصف الثانى من الالف الثانى ق.م ، ومن هذه النقوش ، كتابات اثرية كنعانية قصيرة كتبت بالابجدية الخطية فى لاكيش (تل الدوير فى جنوب فلسطين) وبيت شمش (تل الرميلة غربى القدس) وترجع الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م .

وكلما تقدم الزمن تزداد النقوش وفرة ، فقد وصلت الينا نقوش من المؤابيين والأدوميين والعمونيين ، ثم من الفينيقيين ، وهم الذين أدى توسعهم الاقتصادى والتجارى الى انتشار نقوشهم فيما وراء حدود وطنهم الأصلي ، حيث كشف عن نص فينيقى طويل يبلغ حجمه واحد وتسعون سطراً ، وذلك فى موقع قرة تبى Kara Teppe شمال شرقى ادنة فى آسيا الصغرى(٢) .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جـ ١ ، ترجمه جورج حداد وعبد الكريم رافق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٧٤ .

(2) Obermann, J., New Discoveries at Kara Teppe, New-Haven, 1949.

وكشف الآثارى البريطانى «وولى» فيما بين عامى ١٩٣٧ - ١٩٣٩ [illegible] ثلاثمائة لوح مسمارى مكتوب بالأكادية فى تل العطشانة التى تقع على العاصى الأسفل ويتراوح زمن كتابتها فى الفترة من ١٩٠٠ و ١٢٠٠ ق٠م ٠

ومن أهم الاكتشافات ماكشف عنه فى مدينة أوجاريت ، ففى عام ١٩٢٨م بينماكان احد الفلاحين يحرث حقله بالقرب من الميناء الأبيض شمال اللاذقية بنحو عشرة اميال ، اصطدم المحراث بشىء صلب فى باطن الأرض تبين أنه جزء من قبر خرب فابلغ مصلحة الآثار فى بيروت ، وفى العام التالى ١٩٢٩م قامت بعثة فرنسية بالحفر فى الموقع الذى كان يغطى مدينة قديمة ويسمى هذا التل حاليا راس الشمرة وهو يغطى خرائب مدينة أوجاريت ٠

وكشف فى موقع اوجاريت على مقابر واوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية والواح عليها نقوش مسمارية ،وكتبت النصوص التى كشف عنها بلغات عدة منها الاكدية والمصرية والحيثية والحورية ٠

وتتناول هذه الوثائق موضوعات عدة ، منها مايتصل بادب الملاحم والأساطير ، ومنها مايختص بامور ادارية او دبلوماسية أو سياسية أو قضائية ٠

وبجانب هذه المصادر يعتمدالمؤرخ على المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر وبلاد الرافدين وهما الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا لهما صلة مستمرة بمنطقة آسيا وفلسطين التى تقع بينهما والتى اكتسحتها جيوشهما مرات عدة ، وتتمثل المصادر المصرية فى رسائل تل العمارنة وكذلك نصوص فراعنة مصر عن حملاتهم فى آسيا ٠

وبالاضافة الى هذه المصادر الأثرية والنصية،هناك العديد من الكتابات المتاخرة مثل كتابات يوسيفوس فلافيوس ، وماكتبه فيلون الجبيلى Philo of Byblos عن تاريخ فينيقيا وكان ذلك حوالى عام ١٠٠ ق٠م ، الا أن كتابه لم يصل الينا بل وصلت الينا فقرات منه فى كتابات كل من يوسيبيوس اسقف قيسارية والفيلسوف فرفريوس ٠

وفيما يتصل بالمصادر الخاصة بالآراميين ، فيلاحظ قلة المصادر المتخلفة عنهم ، ولقد كشف عنها فى عدد من المدن مثل جوزانا Guzana التى تقع على نهر الخابور ، وقد ورد ذكرها فى سفر الملوك الثانى واشعيا واخبار الايام الاول ، وهى اليوم تل حلاف ، ومدينة سمال ،وهى قرية فى الشمال الغربى من سورية على الطريق من انطاكية الى مرعش ، ومدينة ارفد التى تقع شمال حلب ، ولايزال اسمها ارفد حتى الآن ،ومدينة حماة .

وهناك كذلك المصادر المعاصرة فى العراق القديم ،فلقد سجلت النصوص المسمارية حركات الآراميين وضغطهم على حدود دول الرافدين ، ويسجل العهد القديم صلات الآراميين بالشعب العبرى فى مراحل تاريخه المختلفة(١) .

وسنتناول فيما يلى المعالم الرئيسية لتاريخ سورية القديم ونبدأ الدراسة بجغرافية سورية وسكانها .

---

(١) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

الموضوع الأول

جغرافية ســـوريا وســـكانها

تقع سورية بين خطى عرض ٣١° ، ٣٧° شمالا وخطى طول ٣٢° ، ٤٠° شرقا ، ويلاحظ أن الصفة البارزة لسطح الاقليم السورى تناوب الأراضى المنخفضة والأراضى المرتفعة بحيث تحذى بعضها بعضا ، وتتجه من الشمال الى الجنوب ،ويمكن تمييز خمس مناطق طولية بها تقع بين البحر والبادية وذلك على النحو الآتى :

١ ـ السهل الساحلى:

يمتد على ساحل البحر المتوسط من مصر حتى خليج اسكندرونة (ايسوس القديمة) وينحصر هذا الاقليم بين البحر والجبل ، ويلاحظ أن القسم الشمالى من هذه المنطقة والذى يمتد من مونت كليموس الى الكرمل توجد فيه فينيقيا ومدرجات الليفانت ، اما القسم الجنوبى منه فهو يضم العديد من المدن والثغور مثل أرواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا(١) .

ويقتصر السهل الساحلى على مجرد شريط ضيق عند سفح جبل لبنان لاتزيد سعته فى بعض المواضع عن أربعة أميال وتقل احيانا حتى لاتكاد تبلغ الميل الواحد احيانا ، وان بلغت فى القليل النادر كما هو الحال عند عسقلون عشرين ميلا . ولاترتفع الجبال ارتفاعا تدريجيا فى معظم الأحوال بل تكاد تكون عمودية ، وتكاد تلامس البحر أحيانا أو تدخل فيه كما هى الحال عند مصب نهر الكلب الى الجنوب من بيروت .

ويتميز هذا السهل بخصوبته الشديدة فى جميع اجزائه ، وتجرى فيه العديد من الأنهار القصيرة السريعة الجريان مثل نهر ابراهيم (نهر أدونيس)

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

الى الجنوب من جبيل ، ونهر الكلب ، ونهر بيروت ، ونهر الليطانى بين صور وصيدا .

والساحل بكامله من أكثر السواحل استقامة فى العالم ، فلا يوجد فيه خليج نهرى عميق أو أى خليج آخر مهم الا فى الشمال حيث خليج اسكندرونة ، ومن هذه المنطقة وحتى حدود مصر يكاد لايوجد على مسافة ٤٤٠ ميلا أى ميناء يستحق الذكر .

ويتغير المظهر الجغرافى فيما بين الكرمل ووادى العريش والصحراء الرملية فيقل ظهور الثغور على الشاطىء الرملى حتى لانجد سوى يافا وعسقلون وغزة من ورائها سهول خصبة مثل سهل شارون وسهل شفيلة(١).

٢ ــ سلسلة الجبال الغربية :

أما المنطقة الثانية ، فهى سلسلة الجبال الغربية ، وهى تشرف على الساحل السورى وتبدأ بالأمانوس شمالا ، وتمتد جنوبا الى سيناء ، وأهم أجزائها جبال لبنان الغربية ، وتشكل هذه المنطقة أول حاجز للمواصلات بين البحر ومايقع ورائه من الشرق ولايمكن اختراق هذا الحاجز بصورة حقيقية الا فى الطرفين الشمالى والجنوبى فى الشمال عند خليج اسكندرونة حيث الطريق بين أمانوس وسهول مابين النهرين ، وفى الجنوب عند خليج السويس ، الذى يتم الاتصال بواسطته مع البحر الأحمر وبلاد العرب ، وماعدا ذلك ، فانه لايمكن اختراق هذا الحاجز الجبلى الا فى شمال طرابلس ، وشرق عكا وحيفا .

واذا تتبعنا هذه السلسلة الجبلية من الشمال ، فنجدها تبدأ بمرتفعات الأمانوس وهى عبارة عن التواء فرعى يمتد بين جبال طوروس ، التى تفصل سورية عن آسيا الصغرى باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية ، وتحيط مرتفعات الأمانوس بخليج اسكندرونة فتشكل حاجزا بين

---

(١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ، ص ١١ .

ـرية وكليكية ، وبارتفاع يصل الى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر وفى الطرف الجنوبى من مرتفعات الامانوس يشق نهر العاصى هذه المرتفعات ويخترقها نحو البحر . وتعبر هذه المرتفعات عدة طرق تمتد الى انطاكية وحلب وتمر بالممر الرئيسى وهـو مضيق بيـلان المعروف باسـم «ابواب سـورية» .

وتتصل بمرتفعات امانوس ، جنوب مصب العـاصى ، مرتفعات اخرى تمتد حتى تصل الى قرب اللاذقية ، وتعرف باسم جبل الاقرع الذى يرتفع نحو ٤٥٠٠ قدم من سطح البحر ومن هناك تمتد الى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية (Bargylus) (١) ، ثم تتابع سيرها الى النهر الكبير الجنوبى ، ويشكل هذا النهر الذى ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان ، كما انه يكون الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسورية .

وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعا شبيها بالارتفاعات الالبية فى جبال لبنان التى تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالى صور على مسافة ١٠٥ ميل ، وتصل اعلى قمته فى جبال لبنان حوالى ١١٠٢٤ قدما (٣٣٦٠ مترا) عن سطح البحر وهى مسماة بالقرنة السوداء ، وتقع الى جوارها قمة نهر القضيب فهى اقـل ارتفاعا بحـوالى مائة قـدم ، وتوجد فى هـذه القمة غابة الارز القديمة ، ويلى قمة نهر القضيب فى الارتفاع جبـل صنين الذى يقل عنها هو الآخر بحوالى مائة قدم ، ويشرف جبل صنين على بيروت وخليج مارجرجس .

وتستمر السلسلة الغربية بعد القاسمين ، فى هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى وتصل ذروتها فى الجرمق ، شمال صفر ، حيث تبلغ ٣٩٥٣ قـدما (١٣٠٠ مترا تقريبا) وهى اعلى قمة فى فلسطين ، وتلى ذلك مرتفعات الجليل السفلى ، ويبلغ ارتفاعها عند جبل طابور قرب الناصرة حـوالى

---

(1) Pliny, Natural History, Bk V, ch. 17-20.

١٨٤٣ قدما (٥٧٥ مترا) ، ثم تنتهى المنطقة الجبلية بسهل يعرف باسم مرج بن عامر الذى يفصل بين الجليل شمالا والسامرة ويهودا جنوبا .

وتتمثل تلال السامرة التى تتخللها الأودية بجبل عيبال فى الشمال، وبجبل جرزيم وهو جبل السامريين المقدس ، وتنقل من هذه التلال بصورة تدريجية الى هضبة اليهودية الكلسية الوعرة ، ثم تنحدر هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر سبع . وأطلق العبرانيون على هذه المنطقة الجنوبية القاحلة اسم «النقب» وتعنى الأرض الملفوحة(١) .

وعلى ذلك فان فلسطين تعتبر امتدادا من الناحية الجغرافية للبنان، فالسهل الساحلى يمتد حتى يتصل بسهل شارون الذى يقع مابين الكرمل وجنوب يافا حتى يتصل بساحل فلسطين ، واما المنطقة الجبلية فتستمر مرتفعاتها ، وان كانت اقل ارتفاعا بشكل عام من مرتفعات لبنان ، حتى تنحدر الى منطقة يهوذا فتتحول الى أرض متموجة تستمر الى بئر سبع حيث منطقة النقب .

٣ ـ منطقة البقاع :

اما المنطقة الثالثة فهى منطقة البقاع التى تقع بين سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية وتعرف هذه المنطقة باسم المنخفض السورى ، وهى عبارة عن منخفض كبير يتراوح عرضه بين ستة وعشرة اميال ويمتد من جنوب نهرينا الى خليج العقبة ، ويروى هذا المنخفض فى جزئه العلوى نهر العاصى،اما فى الجنوب حيث ينبع العاصى،فيوجد السهل المعروف بسورية البقاع ، وبه وديانه تقطعه الى البحر فى اتجاه صور وسهل الجليل متبعة نهر الليطانى . ويستمر الوادى جنوبا حتى وادى الأردن ، الذى يبلغ طوله نحو خمسة وستين ميلا ،ويتراوح عرضه بين ثلاثة وأربعة عشرة ميلا.

ويعتبر نهر الأردن والعاصى اكبر مجريين مائيين فى سورية ، وذلك

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

باستثناء نهر الفرات الذى لايعتبر نهرا سوريا من حيث منبعه أو من حيث مجراه الكامل،فهو يمر فى سورية الشمالية فقط • ويعد نهر الليطانى متمما لمجرى نهر العاصى ، وهو ينعطف غربا فى مجراه السفلى ويمر خلال طبقة من الحجر الجيرى ويعرف باسم القاسمية حيث يصب فى البحر مابين صور وصيدا • ونظرا لجريان نهرى العاصى والليطانى فى سهل البقاع فان الأراضى الواقعة حولهما تعتبر من أوسع أراضى الرى وأحسنها فى سورية، كما تشكل تربتها أنسب تربة صالحة للانتاج الزراعى ، وان استلزم ذلك من الانسان بذل الكثير من الجهد نظرا لانخفاض مجرى نهر العاصى بدرجة جعلت استخدام مياهه بسهولة أمرا متعذرا •

وقد تعرضت المنطقة الواقعة بين جبال لبنان الشرقية والغربية على مر العصور للزلازل والبراكين بسبب التفاوت الضخم بين انخفاض بعض أجزائها تحت مستوى سطح البحر ووجود الجبال الشديدة الارتفاع على جانبيها ، ومن هذه الزلازل التى تعرضت لها سورية،زلازل أنطاكية خلال القرون الستة الأولى الميلادية(١) •

٤ ـ سلسلة الجبال الشرقية :

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة فى تضاريس سورية ، وتبدا من جنوب حمص وتسير موازية للجبال الغربية على طول واحد وارتفاع واحد تقريبا ، ثم تنحدر من حرمون «جبل الشيخ» نحو هضبة حوران ومنطقة التلال فى الجولان • حيث تستمر فى شرق الأردن فى تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة،وتنتهى فى جبل سعير «أووم» جنوبى البحر الميت•

ويقسم مجرى بردى وواديه سلسلة جبال لبنان الشرقية الى قسمين منحدرين ، قسم شمالى مقفر من الحياة ، وجنوبى حيث يوجد جبل حرمون وهو من اعلى قمم سورية اذ يصل ارتفاعه ٩٣٨٣ قدما تقريبا (حوالى ٢٨٦٠ مترا) وتكثر فى منحدره الغربى القرى •

---

(1) Semple, E. C., The Geograpny of the Mediterranan Region, London, 1932, p. 42.

وينبع نهر بردى فى مرتفعات وادى الزبدانى ويتجه نحو الشرق حيث يروى جزءا كبيرا من الاراضى السورية ، ويتفرع بعد الغوطة الى خمسة جداول تروى شوارع دمشق ومنازلها ويمتاز سطح هضبة حوران(١)، شرقى الجولان وغربى اللجا وجبل الدروز ، بانه بركانى فى قسمه الاعظم وفيه صخور بازلتية ، وتربته غنية خصبة ، وتمتد اراضى حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقى فى صحراء الحماء الى تلك الحقول الحجرية فى الحجاز المعروفة باسم «حرات» .

٥ ـ الصحراء السورية :

اما المنطقة الخامسة ، فهى الصحراء السورية ، وهى تمتد بين وادي الفرات والمنخفض السورى الكبير وهى تفصل بلاد الشام عن العراق كما تفصل بين طرفى الهلال الخصيب ، ويعرف القسم المجاور للعراق «بادية الجزيرة» او «بادية مابين النهرين» . أما القسم الجنوبى فكان يدعى باسم «بادية العراق» أو «السمادة» وأما القسم الجنوبى الغربى من بادية الشام فيعرف باسم الحماد ، وسطحه حجرى فى بعض أجزائه ورملى فى أجزائه الأخرى ويكسوه العشب فى الربيع .

وتؤلف البادية السورية العراقية مثلثا كبيرا ترتكز قاعدته على خليج العقبة فى الغرب والكويت فى الشرق ، بينما تصل قمته منطقة حلب فى الشمال . ويبلغ عرض هذه البادية فى أوسع مناطقها ٨٠٠ ميل . وعاش الرعاة الرحل على المراعى التى تغطى هذه المنطقة فى الربيع ، وكانت تطرقها منذ أقدم العصور آلاف القوافل التى تتخذ طريقها من حلب ودمشق وبترا الى بابل والخليج العربى لتبادل المحاصيل ونقل المتاجر . كما شيدو بعض المدن مثل تدمر الواقعة على الطريق عبر البادية بين الشرق والغرب.

---

(١) اطلق عليها فى العصر الكلاسيكى Auranitis واطلق عليها فى التوراة باشان، وجورانو عند الآشوريين التى تفيد معنى «الاراضى المجرفة» وتقتصر حوران فى المعنى المحدود للكلمة على السهل الواقع شرقى الجولان وغرب اللجا وجبل الدروز ، وفى المعنى الواسع فانها كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالاضافة الى عجلون .

انظر فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٤٥ حاشية (١) .

المنـــــــاخ :

تكاد تظهر فى مناخ الاقليم السورى مميزات مناخ اقليم البحر المتوسط، والصفة السائدة فيه تناوب فصل ممطر يبدأ من نوفمبر (تشرين الثانى) وحتى نهاية مارس (آذار) مع فصل جاف يشمل بقية السنة ٠ وعند هبوب الرياح الغربية الســائدة على البحر المتوسـط تمتلئ بالرطوبة ، وعندما تتقابل مع جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى فى فلسطين ترتفع،وبارتفاع الهواء فانه ينحدر وتسقط بعض محتوياته فى شكل امطار ، وكان لذلك اثره فى ان المنطقة الساحلية على السفح الغربى لجبال سورية تتلقى اكبر كمية من الامطار ، وتتناقص كمية الامطار وفقا لدرجة الابتعاد من الغرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب ٠

الثروات الطبيعية :

توجد ثلاث مناطق متباينة للنبات تقع جنبــا الى جنب فى الأراضى السورية ، فالسهل الساحلى والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية تنمــو فيها النباتات المعتادة فى سواحل البحر المتوسط مثل القمح والشعير والدخن (نوع من الذرة) وبعض أنواع الخضر كالخس والبصـل والثوم والحمص والفول والتوابل ، والفواكه مثل التين والزيتون والتمر والعنب ٠ وأهم الاشجار التى تنمو فى هذه المنطقة هى الســنديان وصنوبر بلاد البحـــر المتوسط ٠

وتنمو فى المنطقة الثانية التى توجد فى اعالى لبنان الغربى والشرقى الاشجار القوية مثل الشوح والارز ، اما المنطقة النبــاتية الثــالثة والتى يمثلها حوض التصدع وهضاب سورية الشرقية ، فانه نظرا لقلة الامطــار فانه لايعيش فيها سوى الشجيرات الخشنة(١) ٠

ولقد حظيت شجرة الزيتون بانتشار كبيرا نظرا لانها لاتتطلب الا القليل

---

(1) Swingle, W. T., "Trees and Plants We Owe to Asia", in Asia, Vol. LIII (1943), p 634

من العناية وهى تمثل احد مصادر الغذاء للطبقات الدنيا ، وكان يستخدم زيت الزيتون فى الغذاء وفى الاضاءة وفى صناعة الروائح والأغراض الطبية ، واستخدم لب الزيتون بعد عصره فى اطعام الحيوانات .

اما اشجار الارز ، فهى من اشهر اشجار لبنان ان لم تكن اشهرها على الاطلاق ، وقد ورد فى العديد من اسفار التوراة الاشادة به وبصفاته(١) وقد استخدمت أخشاب اشجار الأرز على نطاق واسع فى منطقة الشرق الأدنى القديم فى مصر وبلاد الرافدين ، حيث استخدم فى بناء السفن وكذلك فى التشييدات المعمارية .

وفيما يتصل بالثروة الحيوانية ، فمن اهم الحيوانات التى ظهرت فى الاقليم السورى الأغنام والماعز والخيل والابل والحمير والبغال والبقر والكلاب والقطط والخنازير . ويوضح شكل رقم (١٨) احد الساميين مع حماره .

خطوط المواصلات :

ونختتم حديثنا عن المظاهر الجغرافية والثروات الطبيعية فى الاقليم السورى بالحديث عن خطوط المواصلات فى هذا الاقليم سواء البحرية أو البرية .

وكان الطريق البحرى بصفة خاصة من انسب الطرق واكثرها استعمالا من سوريا الى مصر منذ أقدم الازمنة ، فقد كانت مزايا الموانىء الفينيقية أعظم فى نظر كثير من التجار والرحالة من أن يتخطوها عنها ويجازفوا بمجابهة الأخطار فى صحراء سيناء التى تعترض الطريق البرى الى أفريقيا ونظرا لفقر فلسطين فى الموانىء فقد اتجه معظم التجارة البحرية الى استخدام الموانىء الفينيقية (٢) .

---

(١) انظر : أرميا ٢٢ : ١٤ ، سفر الملوك الثانى ١٤ : ٩ ، اشعيا ٤٤ : ١٤ - ١٥ .

(٢) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .

وفيما يتصل بالطرق البرية التى ربطت الاقليم السورى بعضه ببعض وكذلك بمنطقة الشرق الأدنى القديم فلقد ساعد على اتصال سورية بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجى الطريق الدولى العظيم ، الذى ساعد كذلك على تعرض سوريا لتاثيرات عالمية ، ويمكن تتبع هذا الطريق الدولى من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز فى سيناء ، كما يتفرع الى اراضى البخور فى جنوب الجزيرة العربية . ومن سيناء يتجه الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر وهنا يتفرع الى طريقين ، يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانىء السورية ويسير الآخر الى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن فى واديه الشمالى ثم يتجه راسا الى دمشق فى الشمال الشرقى . ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ، وبربط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذى تمثله بالتوالى بابل والمدائن وبغداد . أما الطريق الرئيسى ، فانه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقى بواسطة ممر الزبدانى ويصعد عبر سورية المجوفة متبعا نهر العاصى وقادش الى شمال سورية . ويتفرع فى سيره عند قادش باتجاه الغرب ليصل الى البحر المتوسط بواسطة النهر الكبير . وبعد أن يتفرع فى شمال سورية الى البحر بطريق الأبواب السورية فى جبل امانوس ، ويتفرع ايضا الى الشمال الغربى بطريق الابواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السورى نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوبا الى الخليج العربى .

وسلكت بعض اجزاء هذا الطريق الدولى العظيم القوافل التجارية والجيوش المحاربة والأفكار المتباينة ، والتى اسهمت فى انتاج تلك الحضارة المركبة المعروفة بالحضارة السورية ، والتى كانت مزيجا من عناصر وطنية واخرى من حضارات البلاد المجاورة ، وكان العنصر الوطنى نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها(١) .

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .

وخلال تاريخ سورية القديم ، لم تكد تشهد فترة واحدة كانت فيها كلها دولة مستقلة بمفردها تحت حكم جماعة من حكامهــا الوطنيين ، وكانت وحدتها تفرض عليها دائما بارادة سلطة خارجية ، وفيما عدا ذلك فانها كانت عادة اما جزء من دولة اكبر أو مجزأة بين دول وطنية او اجنبية ، ولم تكن سورية نفسها المركز السياسى الا فى عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق·م ، فالواقع أن وضع سورية الطبيعى كان يميل الى احداث التنوع اكثر من الوحدة(١) ·

وكانت سورية خلال تاريخها مسرح نزاع متواصل بين البدو والحضر المستقرين ، والجزء الأكبر من تاريخ سورية يمثل تلك الموجات المتتــالية التى يطغى بها سكان البادية على سكان الحضر اما بطريق التغلغل السلمى أو بالقوة لاحتلال الاراضى الزراعية ، وتمتع سكان البادية بمــيزة قـلة ممتلكاتهم وسرعة حركتهم وشدة احتمالهم ·

وتعددت الهجرات التى قام بها البدو الساميون الى سورية ، ويمكن تمييز العديد من الهجرات لكثافتها وما احدثته من تغيرات ، بينمــا كانت هناك هجرات اخرى كثيرة لم تغير شيئا من الأحوال السياسية أو الاجتماعية الســائدة ·

وليس لدينا وثائق يمكن الاعتماد عليها فى معرفة كيفية دخول الساميين العرب الى سورية أو تاريخ دخولهم بالضبط ، ومع ذلك فهناك من الادلة مايشير الى أن الساميين كانوا موجودين فى المنطقة قبل الألف الثالث ق·م، ومما قد يؤيد هذا الفرض أن جبال وأنهار المنطقة لها اسماء سامية مثـل لبنان وشريان والكرمل والأردن واليرموك ويبوق وارنون واريحــا وبيت شان ومجدو(٢) ·

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦١ ·

(٢) محمد عبد القادر محمد : الساميون فى العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٩٠ – ١٩١ ·

ويذهب بعض العلماء الى ان الفترة بين الموجة والتى تليها تبلغ زهاء الف عام ، وفى نهاية الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق٠م ، اخذت الهجرات من الجزيرة العربية تتدفق بصورة منتظمة على الشرق الأدنى وتؤثر فيه ،وكانت سوريا محطا لهذه الهجرات ، وكان نصيبها من الموجات السسمية أكثر من غيرها حيث تعرضت للعديد من هذه الهجرات ، وكانت الموجة الأولى هى موجة الأموريين ، ومع الأموريين أو فى أعقابهم تقدمت موجة أخرى تحمل اسم الكنعانيين أو الفينيقيين ، وجاء بعدهم الآراميين ثم العبرانيين ، وفى حوالى القرن الخامس ق٠م هاجر الأنباط وبعدهم اللخميين والمنازرة فى العراق والغساسنة فى الشام ٠

وكانت آخر هذه الهجرات السامية وأعظمها ، هجرة القبائل العربية فى القرن السادس الميلادى الى الهلال الخصيب والعراق ومصر وشمال افريقيا ،وهى هجرة لم يكن لها دوافع الهجرات السابقة ،فهى لم تكن بدافع اقتصادى ،وانما بدافع ايمان عميق بدينهم الحنيف والعمل على نشر الدين الاسلامى ، حيث تمكنت بتوفيق من الله عز وجل ان تنشر راية الاسلام فى ربوع المشرق العربى وغربه ٠

وسنتناول فيما يلى بشىء من التفصيل تعريف الساميين والموطن الأصلى الذى جاءوا منه الى سورية ٠

الموضوع الثانى

عصـور ماقبل التـاريخ

عثر فى الاقليم السورى على العديد من الأدلة الأثرية التى تنتمى الى عصور ماقبل التـاريخ بدءا من العصر الحجـرى القديم باقسامه الثـلاث (الأسفل ، والأوسط ، والأعـلى) ثم العصر الحجرى المتوسط ، فالعصر الحجرى الحديث ، ثم عصر النحاس والحجر ، فعصور ما قبل وقبيـل الأسرات .

١ ـ العصر الحجرى القديم :

وفيما يتصل بالأدلة المتصلة بالعصر الحجرى القديم ، فيلاحظ انه قد عثر على آثار ترجع الى العصر الحجرى القديم الأسفل ، فى كهوف عدلون التى تقع بين صيدا وصور ،وفى الكرمل وام قطفة شمال غرب البحر الميت، والزطية شمال غرب بحيرة طبرية ،ورأس الشمرا ، وهى عبارة عن أدوات واسلحة من قطع الصوان نحتت بشكل خشن او رققت بصورة غير منتظمة ، وكانت تستخدم كفؤوس يدوية أو مكاشط أو سواطير . (شكل ١٩) .

ويلاحظ ان أقدم ادوات حجرية عثر عليها فى سورية توجـد فى موقع جسر بنات يعقوب فى الجليل الأعلى وذلك فى مجرى نهر الأردن ، حيث اجريت الحفائر بهذا الموقع فى الفترة من ١٩٣٣ ـ ١٩٥٠م(١)،ويتكون هذا الموقع من خمس طبقات،عثر فى اقدمها وهى الطبقة الخامسة على إعداد ضخمة من الفؤوس اليدوية المصنوعة من البازلت ، وعثر معها على عظام لفيل ، وكان لذلك أهميته الكبرى .

ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا العصر ، وان كان فيليب حتى يميل الى ان سكان سورية فى هذا العصر كانوا نوعا بدائيا غير متميز

---

(1) Stekelis, M., The Implementi ferous Beds of The Jordon Valley, 4th International Congress of pre histroic and Protohistoric Studies, Madrid, 1954, p 391 FF, Zaragoza, 1956.

من الانسان الأبيض ، ولاتزال حضارته مجهولة ، ويذكر أنهم كانوا يعيشون في بعض الأحيان على الأقل في الكهوف لوقاية أنفسهم من المطر والحيوانات المفترسة ، ومن الأعداء(١) .

ولقد عثر على الآثار المتعلقة بالعصر الحجرى القديم في كهوف في جبل الكرمل ، وفي جنوب الناصرة ، وفي شمال غرب طبرية ، وقد تمكنت احدى الباحثات وهى الآنسة جارود(٢) من الكشف عن بعض الهياكل العظمية في كهفين من الكهوف بجبل الكرمل ، وكذلك في كهف يقع جنوب الناصرة وآخر في شمال غربى طبرية(٣) .

ودفنت الجثث دون اتجاه محدد ، فقد دفن بعضها على الظهر أو الجانب أو الوجه ولكن كانت دائما الأرجل منثنية ، وقد عثر على أحد هذه الأجساد وقد امسك المتوفى بخطاف في ذراعه بعظام فك خنزير برى ، ويتجه الباحثين الى الاعتقاد بانها تمثل قرابين .

ويتضح من دراسة هذه الهياكل أن انسان هذا العصر كان خليطا من السلالات التى تمثل انسان نياندرثال وانواع أخرى أرقى منه تكاد تشبه الانسان الحديث ، وعلى ذلك فانها تشكل على مايظهر حلقة هامة في تطور الانسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الأدنى مسرحا لتكوين نوع متوسط بين الانسان البدائى والحديث ، ومن المحتمل أن انسان هذه الحضارة كان ياكل اللحوم البشرية اذ تشير العظام البشرية المكسرة بمهارة لاستخراج المادة النخاعية التى طمع فيها الانسان،الى وجود عادات تتصل

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٩ .

(2) Garrod, D. A. E., and Bate, D. M. A., The Stone Age of Mount Carmel, Vol I Oxford, 1937, ch 8.

(٣) انظر : Turville-Petre, F., and Keith, A., Researches in Prehistoric Galilee, 1925-1926, and a Report on the Galilee Skull, London, 1927., Howell, F. C., "Upper Pleistócene Men of the Southwest Asian Mousterian" in Hundert Jahre Neandertaler, ed G. R. von Koenigswald (Utrecht, 1958), p. 185 FF.

بأكل اللحوم البشرية ويرجح فيليب حتى أن يكون الضحايا من الاعـداء الذين يقعون فى الأسر ، أو من الاقارب الذين أصبح وجودهم غير مرغوب فيه وقد يكون بعضهم من الأشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية(١) .

وفى خلال الدور الأخير للعصر الحجرى القديم ، وهو العصر الحجرى القديم الأعلى ، الذى دام فى سورية فترة طويلة ، فقد عثر على آثاره فى كهوف انطلياس ونهر الكلب ، وفى كهف بالقرب من بحيرة طبرية . وعثر فى بعض هذه الكهوف على بقـايا هياكل عظميـة لحيوانات مثل الضبع والكركدن والثعلب والماعز والغزلان ،كما عثر فيها كذلك على بقايا بشرية. وأصبحت الأدوات الحجرية التى استخدمها الانسان فى هذا العصر أقـل حجما من سابقتها ، ويشير ذلك الى أن الانسـان قـد بدأ فى تركيب أدواته وأسلحته فى مقابض خشبية أو عظمية حتى أصبحت قسما من آلة مركبة ، الا أنه لم يتبق لنا أية بقايا خشبية ، وذلك نظرا لسرعة تلفها بينما اكتشف العظام التى يرجح أنها كانت تستعمل لهذا الغرض (شـكل ٢٠) . ومن المحتمل أن الانسان فى هذه المرحلة قد توصل الى معرفة النار واستخدامها فى الطهى .

العصر الحجرى المتوسط :

يعتبر هذا العصر مرحلة انتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث واستمرت هذه الفترة نحو ستة آلاف سنة ، اعتبارا من حوالى عام ١٢٫٠٠٠ ق.م. ولم يقتصر الانسان فى هذا العصر على صقل الصوان والبازلت وسائر المعدات والأسلحة الحجـرية بحيث جعلها أكـثر فعالية بالنسبة لأغراضه ، ولكنه زيادة فى ذلك استغل للمرة الأولى مواد بيئته لدرجة تستحق الذكر.وتمثل هذا العصر حضارة تعرف باسم الحضارة الناطوفية فى فلسطين ، والذى سمى كذلك باسم وادى النطوف فى شمـال غربى القدس حيث نقبت الآنسة جارود فى عام ١٩٢٨ فى كهف الشـقبة ،

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١١ .

واكتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعد فى مغارة الوادى وغيرها من المواقع(١) ٠

ولقد بدأت الحضارة النطوفية فى أول العصر الحجرى المتوسط ودامت حتى الألف السادس قبل الميلاد ٠ وكان القوم الذين عاشوا فى عهدها من عرق أقصر قامة من العرق الذى عاش فى عهد الحضارة السابقة ، كما أنهم نحاف الجسم مستديرى الرؤوس يشبهون انسان عصر الحجر والنحاس الذى وجدت آثاره فى جبيل (بيبلوس) والمصريين الذين عاشوا فى عصر ماقبل الأسرات ٠ وبالرغم من أن الحياة الحيوانية فى العصر النطوفى كانت من النوع الحديث بصورة عامة ، فان هناك فروقا هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم ٠ فقد كانت بقايا الغزلان كثيرة ولكنها من نوع الايل وهو نادر اليوم ويدل على وجود أحوال الحر والجفاف٠والضبع كان مرقطا حينذاك من النوع الذى نجده فقط فى جنوبى الصحراء الكبرى اليوم ٠ والقنفذ كان يختلف تمام الاختلاف عن النوع القصير الأذنين الموجود حاليا، وقد تكون الأحوال الاقليمية سببا فى اختفاء بعض الحيوانات مثل الحصان والوعل الأحمر فيما بعد(٢) ٠

وقد عثر فى هذا الموقع على آثار غاية فى الأهمية تمثل النقلة من الجمع والالتقاط الى انتاج الطعام ، فهى تشمل مرحلة جمع الطعام من ناحية، أى آثار الصيد ، وآثار بداية الانتقال نحو الاستقرار من ناحية أخرى ، فهناك الأدوات الحجرية ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجرى القديم الأعلى ، وبالاضافة الى المناجل والأجران التى تمثل عنصرا حضاريا

---

(١) انظر :

Garrod, D. A. E., "The Natufian Culture : the Life and Economy of a Mesolithic People in the Near East" In Proc. Brit. Acad, Vol. 43 (1957), P. 211 FF.

Neuville, Rene, Le Paleolithique et Le Mesolithique du Desert de Judee, Mem 24, Paris, 1951.

(٢) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ١٥ ٠

جديدا يقترب بالانسان الى انتاج الطعام والاستقرار اكثر من انتمائه الى مرحلة الجمع والالتقاط فالمنجل وظيفته قطع النباتات البرية أو المزروعة، ومن الممكن استخدامه فى احدى الوظيفتين . الا انه لايمكن الجزم بطبيعة النباتات الموجودة وهل كانت برية أو مستانسة نظرا لعدم العثور على أدلة نباتية يمكن منها تحديد هذا الأمر الهام(١) .

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن بعض عظام الحيوانات المتخلفة عن هذه الحضارة قد دلت عمليات فحصها على اتفاقها مع الحياة المستانسة اكثر من الحياة البرية ،مما يدعم الاتجاه نحو الانتقال الى بداية الاستقرار، مع استمرار بعض أفراد مجتمع تلك المرحلة فى حياة الجمع والصيد بما يتضمنه من صيد الأسماك والحيوانات والطيور . ولكن هناك اتجاه آخر يميل الى الاعتقاد بعدم توصل الحضارة النطوفية الى استئناس الحيوان.

ولقد كان النطوفيون يعيشون فى الكهوف وكذلك فى الأماكن المكشوفة، وكانوا صيادين مهرة وبخاصة فى صيد الغزال،وتوضح مصنوعاتهم العظمية تقدما ملموسا ، ومن هذه الصناعات راس رمح مدببة وصنانير لصيد الأسماك (شكل ٢١)(٢) .

ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريبا لكلب كبير فى طبقات كهف مغارة الوادى بجبل الكرمل اول دليل على استئناس الحيوان ، ويعتبر هذا الحادث له أهميته البالغة فى سير الانسان نحو الحياة المتمدنة.وقد استئنس الكلب ، حين كان الانسان لايزال يعمل بالصيد . الا أن هناك اختلاف فى الرأى كذلك بالنسبة الى هذا الكلب النطوفى،حيث يتجه البعض الى اعتباره ذئبا . وعندما تستكمل دراسة المادة الاثرية فى المواقع المكتشفة أخيرا يزداد اتضاح وحسم هذا الموضوع(٣) .

---

(1) Clark, J. G. D, "Primitive Man in Mesolithique Times", in C.A.H. Vol. I. Part I, Cambridge, 1970, p. 121.

(2) Ibid., p. 121, Fig. 16 No. 1-3, 5.

(٣) رشيد الناضورى : المدخل فى التحليل الموضوعى المقارن للتاريخ الحضارى والسياسى فى جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، الكتاب الأول، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١١٣ ــ ١١٤ .

وقد جمعت الحضارة النطوفية فى مواقعها الاثرية بين الكهوف والساحات الممتدة امامها وبصفة خاصة فى نواحى جبل الكرمل ، وبين مواقع القرى فى وادى نهر الأردن حيث يلاحظ اتضاح التطور الحضارى . وقد تضمنت الحضارة النطوفية ثلاثة مراحل حضارية مبكرة ومتوسطة ومتاخرة . وقد اختلف العلماء فى تاريخها .فبينما هناك من يرجعها الى الألف الثانى عشر قبل الميلاد كما سبقت الاشارة ،فان استخدام طريقة الكربون المشع حددت بداية هذه المرحلة بحوالى ١٠,٠٠٠ ق.م،ولكن يتجه البعض الى تاخير هذا التاريخ عن ذلك . ومن الناحية البشرية ينتمى اصحاب تلك الحضارة الى عنصر البحر الأبيض المتوسط المختلط بنسبة زنجية محدودة .ولاتقتصر آثار تلك الحضارة على الأدوات الظرانية الميكروليثية ، بل لقد تميزت بصناعتها العظمية خاصة أيادى المناجل وكذلك السنانير والدبابيس .

ومن اهم المواقع الأثرية المنتمية الى هذه المرحلة فى منطقة وادى نهر الأردن ، موقع عين ملاحة (Eynan) (١) شمال غرب بحيرة الحولة حيث عثر على عدد من القرى التى تتميز بمنازلها الدائرية والمبنية من الحجر فى مساحة تبلغ ١٠٠٠م ، ولكن يلاحظ أن ارضياتها دون مستوى سطح الأرض واعتمد الانسان فى هذا الموقع فى سد حاجياته الغذائية على صيد الأسماك والصيد البرى والجمع ،حيث لايوجد دليل على استئناسه للحيوان والنباتات(٢) .

وقد ترك انسان هذه الحضارة فى تلك المنازل مختلف آثاره الحجرية والعظمية ،هذا بالاضافة الى بعض الآثار المعبرة عن قدراته الفنية كالتماثيل الصغيرة التى يمكن اعتبارها من اقدم امثلة النحت فى الشرق الأدنى القديم،

---

(1) Perrot, J., "Excavations at (Ein Mallaha)" in, I. E. J., Vol. 10 (1960) p. 14 FF.,
Perrot, J., "Eynan (Ain Mallaha), in Rev. bi bl., Vol. 69 (1962), p. 384 FF.

(2) De Vaux, R., "Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods", in C. A. C., Vol. I, Part, p. 499.

وكذلك الآثار المصنوعة من الخرز والأصداف ، والقطع المحفورة فى العظم أو الحجر من العصر النطوفى كثيرة ، وأحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم.وكشف عن مقبرة ذات شكل تذكارى فى هذا الموقع،ويرجح من كل ذلك أن الانسان خلال هذه المرحلة قد تمكن من تحقيق نوع من الاستقرار(١) .

وفى المجال الفكرى ، فقد اعتقد الانسان فى هذا العصر بوجود آلهة، وكان لتربية المواشى وممارسة الزراعة أثره فى جعل الديانة أكثر تعقيدا ، وصاروا يفضلون الآلهة التى تهتم بالحقول والمواشى ، على الأرواح التى يعتمد عليها الصيادون،ويذكر «فيليب حتى» أنه يظن أنه فى مرحلة الرعى كان الناس يعبدون اله القمر الذى كان أكثر نفعا وتلطفا من الشمس . وكان القمر يبدد رهبة الظلام ويأتى بالبرودة التى يمكن للقطعان أن ترعى فيها براحة . ولذلك فانه كان صديق الراعى اكثر من الشمس . ويرجح أن يكون المعبد الذى وجد فى اريحا يرجع الى أواخر الألف السادس قبل الميلاد قد كرس للاله القمر(٢) (شكل ٢٢) .

وتحاول الأستاذة كينون الربط بين هذا المعبد النطوفى وبين موضوع تقديس الماء.ونظرا لوجود حريق فى هذا المعبد فقد استخدمت بعض الآثار المتفحمة المتخلفة عن الحريق فى التاريخ بواسطة الكربون المشع ونتج عنها التقويم الزمنى حوالى ٧٨٠٠ ق.م(٣) ولكن ينبغى التريث نسبيا فى الاعتماد بصورة حاسمة فى هذا التقويم الزمنى(٤) .

واثناء نشوء الحياة الزراعية اوجد الانسان فى فكره ارتباطا بين النمو وبين الشمس التى أخذت حينذاك تتقدم على القمر ، وبدأت فى ذلك العهد

---

(1) Clark, J. G. D., Op. Cit., p. 121.

(٢) فيلبب حتى : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(3) Kenyon, K. "Earliest Jericho" in Antiq., vol. 33, (1959), p. 55. FF.

(٤) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١١٧ ــ ١١٨ .

عبادة الاله الشمس ، وكذلك عبادة الأرض الأم بشخص الهة للخصب تتعهد شئون الزراعة ، واتخذت الذيانة شكلا مؤنثا واضحا لسبب آخر هـو ان المرأة يمكنها أن تمارس الزراعة بسهولة أكثر من ممارسة الصيد . والرموز المتعلقة بطقوس العبادة وكذلك الميثولوجيا المتصلة بآلهـة الخصب كانت أصولها فى هذه المرحلة .

وفى مجال الاعتقاد فى العالم الآخر ، فقد عثر على عدد من المقـابر الفردية والجماعية التى تؤكد اعتقاد الانسـان فى هذه المرحـلة فى الحياة الأخرى ، فقد لوحظ تغطية الهيكل العظمى للمتوفى بالكتل الحجرية ،وهذه الظاهرة تمثل مرحـلة مبكرة للغاية من مراحـل المحافظة على المتوفى ، وتطورت فيما بعد الى تخصيص بناء علوى للمقبرة . ومن الأهمية الاشارة الى تواجد ظاهرة ذر التراب الأحمر فى المقابر ، تلك الظاهرة التى يلمسها المؤرخ فى بعض الحضارات الأخرى وخاصة فى الهضبة الايرانية(١) ، ربمـا لارتباط ذلك التراب الأحمر بموضوع الخلود واستمرار الحيـاة فى العالم الآخر ، وبالاضافة الى ذلك فقد وضعت أوانى الطعام والتقدمات فى أماكن الدفن ، وقد ترك انسان تلك الحضارة النطوفية بعض أدوات الزينـة مع المتوفى كالعقود وغيرها ، كما زينت جمجمته احيانا بالأصداف .

كل ذلك يبين اهمية الحضارة النطوفية فى مرحلة الانتقال نحو الاستقرار فهى تمثل خطوات رئيسية فى هذا المجال .

العصر الحجرى الحديث :

يتمثل العصر الحجرى فى عدة مواقع فى سورية وفلسطين،وقد اصطلح كثير من الآثاريين على اتخاذ منطقة العمق فى سورية نموذجا للحضـارات التى شاعت فى هذا العصر وماتلاه،نظرا لأن تلالها الغنية بطبقاتها المختلفة تحوى آثارا لكل من هذه الحضارات ويقابل هذه المنطقة فى فلسطين منطقتى جريكو وتل الفول .

---

(١) احمد امين سليم ، ايران منذ اقدم العصور وحتى أواسط الألف الثالث ق.م ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

وحدث فى هذا العصر الذى دام نحو الفى سنة اعتبارا من عام ٦٠٠٠ ق٠م ، تقدم ملموس فى الزراعة ، وتربيـة الحيوان واستعمـال الأدوات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة وشاهد هذا العصر ايضا اختراع الخزف واكتشاف المعدن ٠

وفيما يتصل بالعصر الحجرى الحديث فى فلسطين فيتجه بعض العلماء فى الوقت الحـاضر الى اعطاء اهمية خاصـة الى بعض المواقـع الاثرية الفلسطينية المنتمية الى تلك المرحلة وذلك على أساس أن تاريخ هذه المواقع يتقدم بعض الشىء من الناحية الزمنية على المواقع الأثرية المنتمية الى نفس العصر فى بعض المواقع الأخرى فى منطقة الشرق الأدنى القـديم ٠ ويمكن تقسيم ذلك العصر الى قسمين أساسيين ، ويتمثل ذلك بصفة خاصة فى موقع جريكو (أريحا ــ بيسان) وتل السلطان ٠ وهذين القسمين هما : مرحـلة العصر الحجرى الحديث ، غير المتضمن للصناعة الفخـارية ، ثم مرحلة العصر الحجرى الحديث الصميم ٠

وبالنسبة للقسم الأول،فتضم آثار تلك المرحلة طرازا خاصا فى كل من العمارة والنحت ، فقد عثر على منازل دائرية مبنية من الحجر وحيطانها مائلة الى الداخل ، ويغلب ان ذلك يرجع الى كون سقوفها كانت محدبة : اما أرضية تلك المنازل فكانت من الطين المدكوك وهى تؤرخ من النـاحية الزمنية بحوالى عام ٦٨٠٠ ق٠م ٠ وهناك منازل اخـرى مستطيلة تتميز بكون حيطانها وأرضياتها مطلية بالجص الملون بالأحمـر ٠ وهى تتكون بشكل رئيسى من حجرة كبيرة رئيسية ، وحجـرة او حجرتين داخليتين ، وتصطف الحجرات حول الفناء(١) ٠

وتتميز تلك القرية ــ فيما يذكر أستاذنا الدكتور رشيد الناضورى(٢) ــ

---

(1) Mellaart, J "The Earliest Settlements in Western Asia From the Ninth to the end of the Fifth Millennium B. C.", in C. A. H., vol. I, Pa.. ', p -65.

(٢) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ ٠

بوجود خمسة حيطان متتالية أثناء تلك المرحلة مبنية من الأحجار المنتظمة، ويمتاز الحائط الثالث فيها باستناده على برج حجرى له سلم خاص وذلك كنوع من التحصين الدفاعى . وقد عثر فى حجرات المساكن والمعابد على مجموعات هامة من التماثيل البشرية والحيوانية وتتميز التماثيل الانسانية بكونها مؤلفة من مجموعات ثلاثية ، كل مجموعة منها تتكون من رجل وامرأة وطفل . هذا بالاضافة الى تماثيل أخرى تصور عضو التذكير كمظهر للخصوبة والانتاج والتى عمل الانسان القديم على تقديس صفتها منذ العصر الحجرى الحديث . وهذه التماثيل الثلاثية فريدة فى نوعها فى ذلك العصر المبكر .

ومن ناحية أخرى توصل لنسان تلك المرحلة الى الاعتقاد فى العالم الآخر لدرجة معينة،فلم يخصص مكانا للمتوفى خارج القرية،بل دفن موتاه تحت أرضية المساكن،ويلاحظ ايضا ظاهرة فريدة أخرى ، وهى فصل رأس المتوفى عن جسده ، ووضع نموذج من الجص لصورة المتوفى فوق عظام الجمجمة كما كان فى حياته (شكل ٢٣) . كما يلاحظ ايضا وجود بعض الخطوط ذات لون أسود فوق راس المتوفى يغلب أنها تمثل رداء للرأس(١) . ويتجه البعض الى اعتبار فصل راس المتوفى عن الجسم ودفنها بصورة مستقلة ربما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة .

وبالاضافة الى آثار العمارة الطينية هناك أيضا آثار حجرية ضخمة تتكون من كتل حجرية هائلة تشكل حوائط حجرات وممرات وتمثل منازل ومعابد من نوع آخر غير القرى السالفة الذكر وتنتشر تلك الآثار الحجرية المنتمية لتلك المرحلة فى كل من فلسطين والأردن ورغم وفرة الآثار الممثلة لتلك الحضارة فلم يصل انسانها الى الصناعة الفخارية بعد . ويؤرخ هذا العصر حسب طريقة الكربون المشع بحوالى ٦٢٥٠ ق٠م .

---

(1) Mellaart, J., Op. Cit., p. 265.
De Vaux, R., Op. Cit., pp. 505-506.

• وهناك فجوة حضارية بين المرحلة السابقة والمرحلة التالية التى تمكن فيها الانسان من صناعة الأوانى الفخارية ، مما مهد للمرحلة التالية وهى مرحلة العصر الحجرى الحديث الصميم وقد عثر على آثارة فى جريكو ابتداء من الطبقة التاسعة ، كما عثر عليه أيضا فى موقع وادى اليرموك ويتميز بالفخار المزين برسوم ، وصناعة التماثيل الحجرية الصغيرة • وتؤرخ تلك المرحلة بأواسط الألف الخامس قبل الميلاد ، ويعتبر فخار تلك المرحلة أقدم فخار فى فلسطين(١) • ولقد عثر على المخازن التى ضم بعضها حبوب قمح ، ولايوجد دليل على استئناس الحيوان باستثناء الماعز ، واستمر القوم فى صيد الغزال أو اعتمدوا على البدو فى احضاره لهم ، حيث لم يعثر على اعداد كبيرة من السهام •

وتوضح الأدلة الأثرية انفتاح انسان جريكو على العالم الخارجى المحيط به ومن تلك الأدلة صناعته لأدواته من حجر الأوبسيدان ، وهو المادة التى أحضرها من الأناضول لعدم توفرها فى منطقته ، ومن ناحية أخرى ففى المقابل قام انسان جريكو بتصدير بعض المواد المتوفرة فى بيئته مثل الملح والقار والكبريت(٢) •

ويختلف العلماء فى أصل تلك الحضارة هل هو محلى أو خارجى ، ويصعب البت نهائيا فى هذه المشكلة ، ولكن حقيقة أهمية الحضارة النطوفية ، ودورها فى نقل حياة الانسان نحو انتاج الطعام ، ووجود طبقة ما قبل النيوليثية بجريكو ليساعد فى امكانية التفسير المحلى لهذه الحضارة•ومن ناحية اخرى توصل الانسان فى مناطق اخرى مثل شمال العراق ، وبصفة خاصة موقع جرمو الى انتاج الطعام دون التوصل الى الصناعة الفخارية ، ومع ذلك تعتبر جرمو فى طبقاتها الأولى ممثلة لتلك المرحلة مع بعض الفوارق الرئيسية بينها وبين جريكو بصفة خاصة فى النتاج الزراعى الذى يعتبر دليلا قاطعا على الاستقرار •

---

(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٣٧ — ١٤٠ •

(2) De Vaux. R., Op. Cit., p. 502

وتنبغى الاشارة الى قرية جريكو التى تتميز بظاهرة التحصين الحجرى القوى الذى يعتبر نمطا معماريا خاصا فى تلك المرحلة . ويمكن تفسير ذلك على أساس أن التسللات السامية التى كانت تداوم على التغلغل من الصحراء العربية الى المناطق المنخفضة والاودية فى عصور ماقبل التاريخ وخلال العصر التاريخى قد دفع انسان مجتمعات العصر الحجرى الحديث ، أى المجتمعات المستقرة فى القرى الى ضرورة تحصين قراهم لوقايتها من تلك العناصر .

وعلى ذلك فآثار العصر الجحرى الحديث فى فلسطين متنوعة وهامة ولكنها غير واضحة التكامل الموضوعى ، ولذلك يصعب ربطها بنفس المقياس الحضارى المتكامل لحد كبير فى المواقع الأخرى،وذلك لانها تتضمن ظواهر معمارية وتعبيرية فريدة من نوعها وبصفة خاصة ظاهرة التحصين المعمارى والنحت والتشكيل الصورى الانسانى،وتدفع تلك الظواهر الخاصة الباحث الى توخى مداومة البحث المقارن لآثار تلك المرحلة حتى يمكن وضعها فى مكانها الحضارى المضبوط بقدر الامكان(١) .

وتوجد مناطق الاستقرار الأولى فى سورية بالقرب من تجمعات المياه ، أو متاخمة للانهار ، ومن هذه المناطق ، منطقة العمق ، التى تقع فى شمال سورية قرب مصب نهر العاصى وقد جمعت هذه المنطقة بين السهول والأودية والمستنقعات والتلال(٢) ، وعلى الرغم من أن هذه المنطقة توجد بها بحيرة فى الوقت الحاضر تعرف باسم بحيرة العمق ، الا أنها فى العصور القديمة لم يكن لها وجود وكذا المستنقعات الحالية المحيطة بالمنطقة وكانت هذه المنطقة من أهم جهات الاستقرار الأولى فى سورية ، ويبلغ عدد التلال التى تمثل بعض مراحل الاستقرار فى هذه المنطقة بحوالى مائة تل من أهمها تل عطشانة وتل الشيخ ، وبالاضافة الى موقع العمق ، فقد كشف عن

---

(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(2) Braid Wood, R. J., Mounds in the Plain of Antioch, Chicago, 1937.

مناطق استقرار أخرى من سورية مثل مرسين ، وطرسوس ، وحماة ،ورأس الشمرة ، وقرقميش(١) ٠

ويلاحظ توفر المادة الاثرية المنتمية الى العصر الحجرى الحديث فى طبقة أو أكثر من طبقات التلال ٠ وقد كشف ضمن آثار هذا العصر على بقايا الآثار المعمارية وهى المنازل ، ويلاحظ أن أسسها قد بنيت من الحجر ، ولم يعثر على بقايا العمارة الطينية نظرا لارتفاع مستوى المياه الجوفية ولكن يلاحظ أنه فى بعض الحالات المنتمية الى تلك المرحلة والتى عثر عليها فى موقع مرسين ، أنه قد تبقت بعض المنازل المبنية من اللبن ، وقد اتخذت تلك المبانى شكلا اقرب الى المستطيل ،وقد طليت أرضية الحجرات بالجص ٠ ويلاحظ ان عملية طلاء حيطان المساكن احيانا تشترك فيها الحضارات الموجودة فى كل من مصر والعراق وفلسطين فى هذا العصر ٠

وبجانب الآثار المعمارية التى تم الكشف عنها ، فقد كشف عن آثار الصناعة الزراعية ومن أهمها الفؤوس والمناجل الحجرية والاجران والمخازن وعلى الرغم من العثور على جميع تلك الأدلة الاثرية التى تثبت توصل الانسان الى مرحلة الزراعة ، الا أنه لم يعثر فى طبقات تلك المرحلة على القمح ، ومن أهم آثار الانسان فى هذا العصر كذلك ،الصناعات الفخارية وصناعة الأدوات والأوانى الحجرية والعظمية ، كما أنه تمكن أيضا من التعبير الفنى عن مفاهيمه الدينية الأولى ،حيث عبر عن الخصوبة والانتاج فى شكل تمثال صغير لآلهة الأمومة ، كما بدأ يميز بين الأفراد والملكيات عن طريق بعض الأختام الحجرية التى تحمل بداية ادراكه للشخصية الذاتية ٠

ومما هو جدير بالذكر ، أنه على الرغم من وجود دلائل الاستقرار وانشاء القرى الأولى فى تلك المرحلة ، الا أنها ليست بالدرجة المتكاملة التى وصلت اليها كل من مصر والعراق القديم حيث لم يعثر على أية آثار فى

---

(1) Mallowan, M., "The Development of Citires From AL-Ubaid to the End of Uruk 5", in C. A. H. vol. I, Part I, p. 414

مقابر هذه المنطقة ، باستثناء العثور على مقبرة طفل فى طبقة العمق (ب) . وهناك اتجاه بين بعض المؤرخين الى الاعتقاد فى بداية وجود نوع من التاثير الحضارى العراقى فى عصر حضارة تل حسونة فى نهاية تلك المرحلة الحضارية ، وايضا اثناء المرحلة الحضارية الثانية العمق (ب) . وتعتبر تلك المرحلة الاخيرة مكملة للتطور الحضارى فى المرحلة السابقة .

وعلى الرغم من توفر العامل المحلى فى الحضارة السورية الا أن عامل التاثيرات الحضارية الاجنبية يستمر فيها مثل تاثير حضارة حلف فى المرحلة الحضارية الثالثة ، وتاثير حضارة العبيد الشمالية فى المرحلة الحضارية الخامسة (العمق هـ) وهكذا . وليس معنى ذلك عدم أصالة تلك الحضارة ، بل اعتمادها على عدد من المؤثرات الاجنبية فى مراحل تكوينها بالاضافة الى العناصر المحلية الصرفة . وتلى تلك المرحلة الحضارية الثانية المراحل الحضارية التالية لها وهى العمق جـ ، د ، هـ ، و . وفى تلك المراحل جميعها سار الانسان فى سورية فى مستوى التطورات الحضارية التى ظهرت فى كل من مصر والعراق القديم بصفة خاصة ، وذلك فيما يتعلق بالصناعات الفخارية والصناعات الحجرية وعمليات بناء المنازل والمخازن وغيرها من أدلة الاستقرار[١] .

وفيما يتصل بالادلة الاثرية الخاصة بالعصر الحجرى الحديث فى لبنان ، فقد عثر على الادلة المتصلة بالاستقرار الانسانى فى هذه المنطقة فى عدد من المواقع الاثرية مثل جبيل (بيبلوس) ، وحراجل ، وبركة راما ، وعين ابل ، ونهر الكلب ، ونزر الزهرانى ، وغيرها .

وتعتبر جبيل[٢] من اهم هذه المواقع ، نظرا لوفرة آثارها المنتمية الى

---

(١) انظر : رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .
Braidwood, R. J., Excavations in the Plain of Antioch, Chicago, 1960.
(٢) انظر :

Dunand, M., Fouilles de Byb Los. I, 1926-32, Paris, 1939.
Dunand, M., "Chronologie des Plus anciennes installations de Byblos", In Rev. bibl., vol. 57 (1950), p. 583 FF.

تلك المرحلة ، وربما كان موقعها على الساحل من الاسباب التى ساعدت على توفير الحماية الطبيعية للقرى التى استقرت فى هذه المنطقة ·ومن أهم الآثار التى عثر عليها فى هذه المنطقة وتنتمى لهذه المرحلة الحضارية ،بقايا القرى ، التى تتمثل فى آثار المنازل المستطيلة الشكل ذات الأسس الحجرية والتى طليت ارضياتها بالملاط · ويشبه ذلك ، كما سبقت الاشارة ، منازل موقع العمق فى سورية · وقد عثر على آثار المواقد ، وكافة الأدلة المتصلة بالاستقرار والانتاج الزراعى ، كالأدوات الحجرية وبصفة خاصة المناجل والأدوات العظمية والأوانى الفخارية والمنازل وغيرها هذا بالاضافة الى الآثار التى تشير الى بعض القدرات الفنية التى تظهر فى بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر الجيرى ،والتى يغلب اتصالها بعقيدة الخصوبة والانتاج ·

وفى نهاية حديثنا عن العصر الحجرى الحديث فى سورية · فاننا سنتحدث بايجاز عن الفخار الذى عثر عليه فيها ·فقد ظهر الفخار فى احدى الطبقات الدنيا فى اريحا ، ويعتقد بعض الباحثين أنه قد اخترع هناك ، وقد اتخذ الفخار فى اول الأمر شكل احواض مجوفة فى الأرض ، ومبطنة بطبقة من الكلس ، ثم اشكال جرار ذات أطراف بسيطة وقعر مسطح ،وله ايدى كروية الشكل ، ويرجح فيما يذكر فيليب حتى(١) أن فخار سورية الشمالية ذو اللون الواحد يرجع الى حوالى ٥٠٠٠ ق·م ، ثم ظهر بعد ذلك فخار ملون فى موقع تل الجديدة الواقعة فى شمال شرق انطاكية ، ويعود الى حوالى منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، وهو مزين برسوم بدائية جدا وعثر على بعض القطع الفخارية المزينة فى شمال سورية فى مناطق بعيدة الى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة · ويرجح أن تكون عجلة الفخار قد تم اختراعها فى سورية قبل عام ٤٠٠٠ ق·م ، ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة فى جنوبى فلسطين حتى حوالى عام ٢٠٠٠ ق·م ، وكان الفخار قبل ذلك يصنع بواسطة اليد ·

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣١ ــ ٣٣ ·

عصر الحجر والنحاس :

استخدم الانسان فى هذا العصر معدن النحاس بالاضافة الى الصناعات الحجرية السابقة وقد اختلف العلماء فى كيفية توصل الانسان الى هذا المعدن، وهل كان ذلك بمحض المصادفة اثناء عملية صنع الفخار، حيث انه من الجائز تواجد بعض ذرات نحاسية مختلطة بالطين تظهر اثناء الحرق، أم أن ذلك قد تم بعد البحث والتنقيب والتوصل الى اكتشاف هذا المعدن وهناك مشكلة أخرى ، وهى أن كمية الآثار النحاسية قليلة فى مواقع تلك المرحلة ، مما ادى الى احتمالية الاعتقاد بانها مستوردة وغير مصنوعة محليا فى كل من مصر والعراق. ولكن قلة الآثار النحاسية لاينبغى اعتبارها عاملا رئيسيا فى تفسير عدم توصل الانسان الى اكتشافها محليا وتصنيعها فى هاتين المنطقتين ، فلاشك أن هذه المادة كانت جديدة فى استخدامها، وعلى ذلك كانت آثارها محدودة نسبيا هذا بالاضافة الى الجهود المضنية فى عملية تصنيعها وتشكيلها .

ويتجه فيليب حتى الى الاعتقاد بأن معرفة النحاس قد انتشرت من سورية الى جميع الجهات(١) . وتدل آثار الانسان فى هذه المنطقة انه استخدم النحاس أولا ثم مزجه بالبرونز لأجل صناعة الأسلحة الحربية قبل أن يستخدمه لأدوات السلم ، وقد تمتعت القبائل والجماعات التى جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للطرق والالتواء بتفوق عظيم على تلك التى استعملت الحجارة ، واستخدم المعدن أيضا فى الأغراض السلمية، فتحسن فن العمارة بشكل كبير .

ويمكن تقسيم عصر الحجر والنحاس فى فلسطين الى ثلاث مراحل حضارية متصلة ، تتمثل أولها فى كل من الطبقة الثامنة من تل جريكو ،

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤ – ٢٥ .
ولكن يلاحظ فى هذا المجال أن الانسان الايرانى القديم قد توصل الى معرفة النحاس فى فترة سابقة لمعرفة الانسان فى سورية . أنظر :
أحمد أمين سليم : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

وايضا فى حضارة وادى غزة،وتتمثل الحضارة الثانية فى الحضارة الغسولية التى تقع فى سهل الأردن شمال شرق البحر الميت والمرحلةالأخيرة تتمثل فى حضارة بئر سبع،وتمتد تلك الحضارات زمنيا من نهاية العصر الحجرى الحديث حتى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى ذلك فهى تتداخل مع عصور ماقبل الأسرات فى كل من مصر والعراق . وقد تطورت الحياة بكافة مظاهرها فى ذلك العصر فى فلسطين وذلك بعد التوصل الى استخدام معدن النحاس .

وفيما يتصل بالحضارة الغسولية(١) ، فقد عثر الآثاريون على آثار الحياة الزراعية ، فقد ازداد فى هذه الأثناء الاهتمام بالزراعة وتربية المواشى ، واتسع استخدام الثور والغنم والماعز التى بدأ استئناسها منذ العصر الحجرى الحديث ، كما يتضح من ظهورها المتكرر على التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين ، كما عثر كذلك على اشكال حيوانية اخرى كانت شائعة مثل الخنازير ، وهناك أشكال اخرى تمثل الحمام ، وكانت تقع المراكز السكانية فى هذا العصر فى أودية الأنهار ، أو السهول التى تعتمد على الرى ، وهكذا فان العمل البارز فى هذه الفترة فى ميدان الزراعة كانت الزراعة المعتمدة على الرى .

ورغم ان الحضارة الغسولية كانت تعتمد بشكل رئيسى على الزراعة الا انه عثر على كميات ضئيلة من السهام مما يرجح أن بعض السكان قد مارسوا الصيد بجوار الزراعة . ولقد كشف عن مواقع تحوى غلالا وكذلك على أوانى بها زيوت(٢) .

---

(١) انظر :
Koeppel, R,, Teleilet Ghassul, II (1932-1936), Rome, 1940.
Mallon, A., Koeppel, R., and Neuville, R., Teleilet Ghassul, I. Rome. 1934.
North, R., Ghassul 1960 Excavation Report, Rome, 1961.,
Perrot, J., "A Propos du Ghassoulien" in Syria, 29, (1952), p. 403, FF.
(2) De Vaux, R. Op Cit. p. 523.

وفيما يتصل بفن العمارة،فيلاحظ ان عمارة المنازل تتعدد فى تخطيطها كما أن احجامها كانت متوسطة . وكان احد الجوانب الكبرى للبيوت المستطيلة كثيرا مايقابل صالة فسيحة وشيدت الجدران من اللبن فوق أساسات من الحجر الغشيم ، وصنعت الأسقف من القصب المغطى بالطين، وزخرفت الجدران الطينية برسوم ملونة ، مثل نجمة ذات ثمانية أضلاع تحيط بها رسوم ورموز غير عادية (شكل ٢٤)٠ولم تحدد القرية بتحصينات فى شكل أسوار حولها ، كما يلاحظ فى مرحلة العصر الحجرى الحديث فى جريكو . وقد توفرت لدى القرى مستلزمات الحياة المستقرة كمخازن الغلال والأجران والمواقد والأوانى الحجرية والأدوات النحاسية .

وتنفرد الحضارة الغسولية،بظاهرة استخدام بعض الأوانى الفخارية التى تتخذ شكل منازل لها أسقفها الدائرية وذلك لحفظ عظام الموتى.وقد دفن الأطفال فى أوانى فخارية تحت ارضية المنازل ، ولم يقتصر على ذلك،بل كانت هناك ايضا المقابر المغطاة بالكتل الحجرية .

ومن اهم الآثار الدينية فى هذه الحضارة ، العثور على معبد كبير ينتمى اليها ، وهو يتكون من ساحة تحيط بها المبانى الرئيسية الخاصة به ، ففى الجهة الشمالية يوجد المبنى الرئيسى وفى الجهة الجنوبية يوجد المدخل فى مواجهة البئر ، هذا بالاضافة الى مدخل آخر فى الجهة الشرقية، ويوجد حائط حجرى يربط بين تلك المبانى . ويبلغ طول هذا المعبد عشرين مترا ، ويلاحظ وجود مذبح فى مواجهة المدخل ، حيث عثر على بقايا عظام حيوانية وشقف فخارية ومما هو جدير بالذكر انه توجد بعض أوجه الشبه بين التخطيط المعمارى لهذا المعبد الذى عثر عليه فى تل الغسول وبين معبد مجدو(١) .

أما عن حضارة بئر سبع(٢) فقد جمعت بين الرعى والزراعة، وقد عثر على

---

(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) انظر: Josient, T., "La Faune Chalcolithique des gisements

=

كانت الأدلة الأثرية المتصلة بالحياة الزراعية كالأجران والمناجل والمخازن فلقد كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية للسكان ، وتوضح الأدلة الأثرية أنهم قد زرعوا القمح والشعير ، كما استأنسوا الأغنام والماعز والماشية ، ووجدت الكلاب لتقوم بحراسة قطعان مواشيهم .

ولقد ازدهرت العديد من الصناعات فى المواقع المنتمية الى حضارة بئر سبع ، ويلاحظ وجود نوع من التخصص فى صناعات كل موقع ، فلقد اهتم موقع صفادى Safadi بالصناعات المتصلة بالعاج والعظام،بينما اهتم موقع أبو مطر Abu Matar بالصناعات المعدنية . وبرع انسان حضارة بئر سبع كذلك فى الصناعات الحجرية ، ولقد استخدم العديد من الأحجار مثل البازلت والتركواز .

أما بالنسبة للمنازل فقد كانت اشبه بالكهوف ، فهى عبارة عن حجرات سفلية مستديرة أو بيضاوية يصل اليها السكان بواسطة درج يؤدى اليها أو أنفاق أو آبار راسية . وتؤدى تلك المداخل الى ممرات أفقية تتفرع بدورها الى حجرات ، وقد اتجه بعض العلماء الى محاولة ايجاد ترابط حضارى بين الحضارة الغسولية وحضارة بئر سبع ، وهناك من الأدلة الأثرية مايؤيد هذا الاتجاه .

وقد تقدم الفن ، وبخاصة الفن التشكيلى تقدما ملموسا بعد ظهور المعدن . فكثرت الأختام والحلى والأوانى النحاسية ، وتحسنت التقنية الفنية لهذه المنتجات . واهتم الناس بفن النحت ، الذى كان أول ظهوره فى العصر الحجرى الوسيط،كما سبقت الاشارة الى ذلك وقد اكتشفت رسوم

=

Palestiniens de Bires - Safadi et Bir Abu Matar", In I. E. J., Vol. 5 (1955), p. 246 FF.,
Negbi, M., '(The Botanical Finds at Tell Abu-Matar, near Beer Shebe", In I. E. J., Vol. 5 (1955), p. 257 FF.,
De Vaux, R., Op. Cit., p. 523-526.

بشرية وحيوانية مصقولة في طبقات العصر الحجرى النحاسى الأخيرة في مجـــدو .

وتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تليلات الغسول الموجـودة على الجدران الداخلية أشكالا بشرية بألوان متعددة . وكانت تلك أول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلى من المنزل ، غير أن الرسوم على الفخار ظلت تتيح للفنان أحسن الفرص لممارسة فنه. وفي نهاية الألف الرابع توصل الى فن الطلاء بالمينا . وامتدت حضارة بئر سبع من كل منطقـة شمال النقب .

وقد أدى نمو صنع المعادن والفخار الذى يتصف به هذا العصر ، الى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن ، ونتج عن ذلك اختصاص اكثر في العمل ، وازدهرت مدن في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة بالسكان حتى ذلك الوقت . وبدأت التجـارة تتخذ شكلا دوليا . وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين منطقة سورية من جهة ومصر وبلاد بابل من جهة أخرى عاملا أساسيا في حياة هذه البلاد في العصور التالية وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الأدنى نشاطا عظيما ، كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية .

عصور ماقبل الاسرات :

تعتبر تلك المرحلة من اهم مراحل تاريخ الانسان ، لأنها خلاصة تجاربه الطويلة في عصور ماقبل التاريخ ، وهى المرحلة التى حدثت قرب نهايتها الدفعة الانتقالية الهامة نحو بداية العصر التاريخى . هذا بالاضافة الى انه تكونت أثناء تلك الفترة المبادىء والتقاليد السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت بمثابة الأسس الرئيســية لتاريخ وحضـارة الشرق الأدنى اثناء العصر التاريخى .

وفيما يتصل بالأدلة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة في منطقة سورية ، فقد

تابعت حضارة العمق تطورها الحضارى وبصفة خاصة فى طبقات العمق (هـ) و (س) وتمثل هذا العصر فى فلسطين فى المرحلة الأولى لبداية استخدام البرونز .

وخضعت المناطق الشمالية للمؤثرات الحضارية الآتية من جنوب العراق فى عصر حضارة العبيد ، وعثر على الآثار الدالة على ذلك التاثر ، وعلى رأسها الصناعة الفخارية(١) ، ويمكن تفسير اتجاه انسان حضارة العبيد الى شمال سورية على أساس احتياجاته الخشبية ، حيث تتوفر الغابات فى تلك المنطقة اللازمة لكافة الأغراض المدنية والدينية ويمثل استخدام نهر الفرات كوسيلة مواصلات لنقل تلك الكتل الخشبية من شمال سورية الى جنوب العراق ، ولا يعنى تاثر حضارة العمق بحضارة العبيد ، زوال خصائصه الأولى ، بل ظلت مميزاته الحضارية المحلية موجودة مع التاثر بالمؤثرات الخارجية .

وتنبغى الاشارة فى هذا المجال الى أن حضارة جبيل قد انفردت فى الاحتفاظ بخصائصها المحلية دون التاثر بحضارة العبيد فى تلك المرحلة، وقد عثر على كميات كبيرة من آثار جبيل (ب) وبصفة خاصة الآثار النحاسية والفضية التى يرجح منها صلتهم بمنطقة الاناضول . وعاصرت هذهالمرحلة الوركاء ٤ ـ ٥ وكذلك مرحلة جمدة نصر.وشيد السكان منازلهم على شكل بيضاوى وكانت مساحتها تقريبا من ٣ ـ ٤ أمتار . وقد استخدم انسان هذه الحضارة طريقة دفن موتاه داخل الاوانى الفخارية الضخمة التى توضع فى باطن الأرض(٢) ، كما استخدمت تلك الطريقة ايضا فى حماة(٣) .

---

(1) Mallowan, L., Op. Cit., p. 416.

(2) Dunand, M., Chronologie des plus anciennes installations de Byblos", In Rev., bibi, Vol. 51 (1950), p. 583, FF.,
Mallowan, M., Op. Cit., pp. 420-421.

(3) Ibid., pp. 416-417.

أما فى فلسطين فقد تميزت تلك المرحلة بتعدد العناصر البشرية التى وفدت اليها ويمكن الاستدلال على ذلك من تنوع الأوانى الفخارية المنتمية الى أنماط حضارية مختلفة والتى خلفتها تلك العناصر فى المقابر والمنازل. ولم تنعزل تلك الجماعات الوافدة كلية ، بل امتزجت مع اصحاب الحضارة الغسولية مما مهد الى النقلة الى بداية العصر التاريخى بعد ذلك .

ومن أهم الآثار الفريدة المنتمية الى تلك الجماعات الجديدة ، بقايا مقابرهم الجماعية حيث استخدمت تلك العناصر المقابر المحفورة فى الصخر أو فى الكهوف الطبيعية ، والتى كانت تتسع لحوالى ثلاثمائة شخص ، وقد عثر فى وسط كل مقبرة على كوم من الحطب الخاص بحرق جثث الموتى، ولوحظ وجود الجماجم منفصلة حول ذلك الكوم،ويغلب أن أجسام الموتى دون جماجمها كانت تحرق وتوضع بجوارها الأوانى الفخارية . ولا توجد هذه الظاهرة الخاصة بهذه الصورة فى المناطق الأخرى،مما يجعل أصحابها جددا على فلسطين(١) .

واخذت المجتمعات السورية ، وبصفة خاصة فى العمق وجبيل وجريكو، فى التطور وذلك أثناء عصر ماقبل الأسرات الأوسط ، ولكنها لم تصل الى المستوى الحضارى المماثل فى كل من مصر والعراق القديم فى ذلك الوقت .

وفيما يتصل بعصر ماقبل الأسرات الأخير فى منطقة سورية ، فلقد كشف عن العديد من الأدلة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة ، ففى المواقع الفلسطينية عثر على الأوانى الفخارية المتميزة بالخطوط المتموجة والمتقاطعة ، هذا بالاضافة الى عمارة المنازل والمعابد والمقابر ، وذلك بصفة خاصة فى كل من مجدو ، وجريكو ، وخربة كرك . وقد حملت المقابر الصفة الجماعية التى سبقت الاشارة اليها ، وبينما استمر استخدام ظاهرة الحيطان السميكة المصنوعة من اللبن فى بعض المواقع مثل خربة كرك ، والتى تحيط بالقرى كمظهر دفاعى مثلما سبق أن اتجه انسان العصر الحجرى الحديث الى

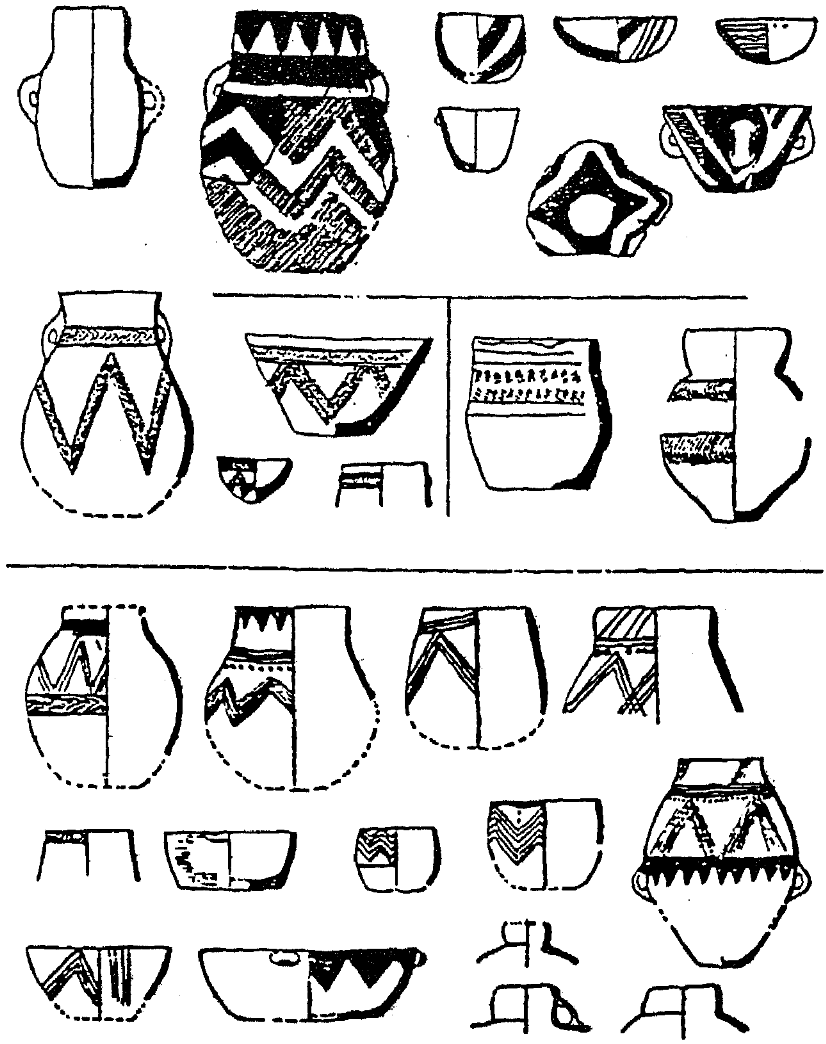
---

(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

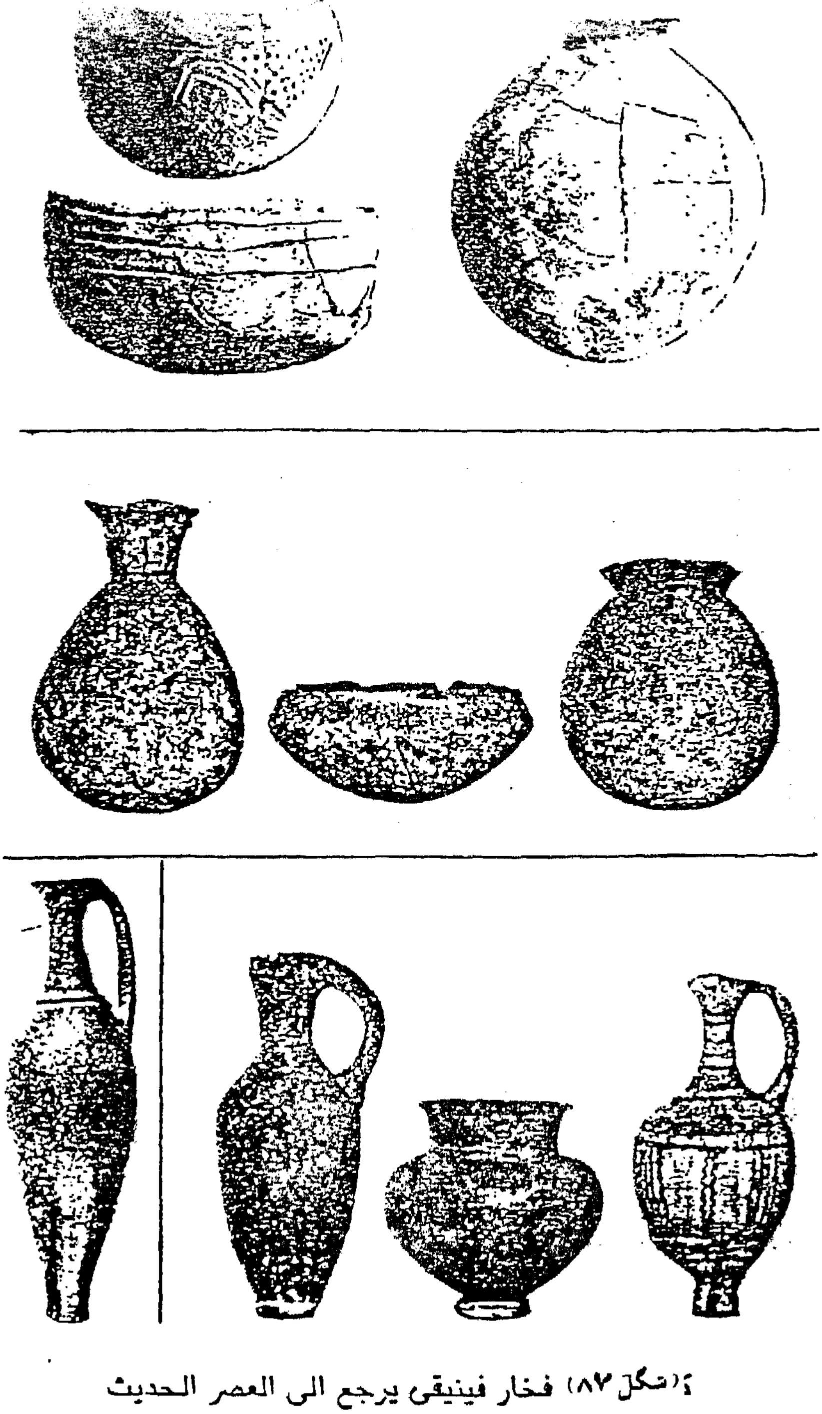
استخدامها ويلاحظ أن ذلك لم يكن سائدا فى كافة المواقع . والحقيقة أن حضارة تلك المرحلة قد تميزت بظاهرة التعدد والمزيج الحضارى ، ويغلب أن ذلك يرجع الى وفود جماعات بشرية جديدة تحمل أنماطا حضارية مختلفة .

واستمر الانسان فى المواقع الشمالية من منطقة سورية فى انتاجه الحضارى كما يتضح فى طبقات تلال العمق،وكذلك فى موقع جبيل ٤ . ويمكن تلمس اتصال حضارة العمق وجبيل بالمؤثرات الحضارية العراقية وبصفة خاصة حضارة جمدة نصر ، هذا بالاضافة الى اتصالها بحضارات فلسطين ومصر ، ويلاحظ ذلك فى الصناعات الفخارية برسومها الهندسية والحيوانية والانسانية الموجودة فى انطباعات الأختام العظمية والحجرية(١).

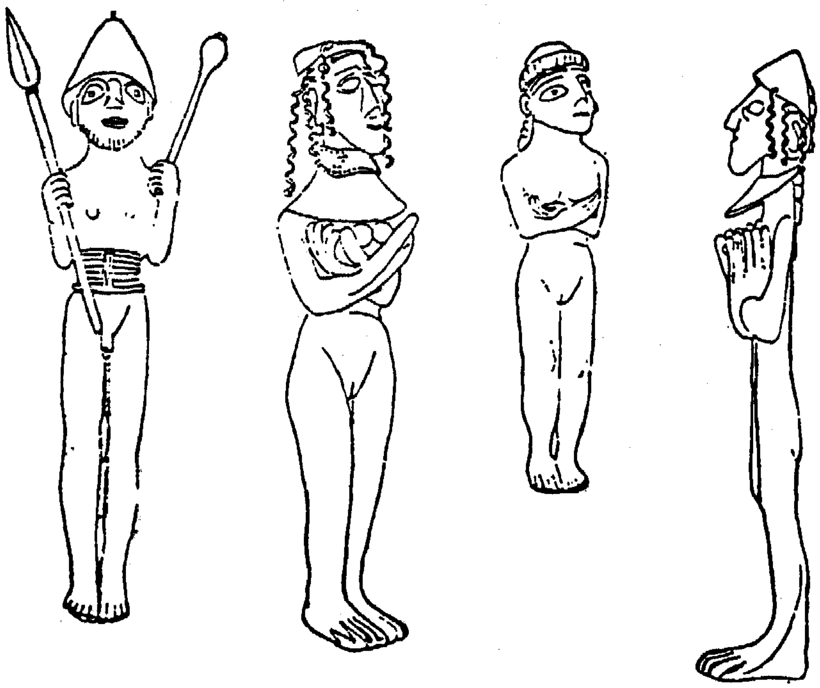
(١) رشيد الناضورى : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .



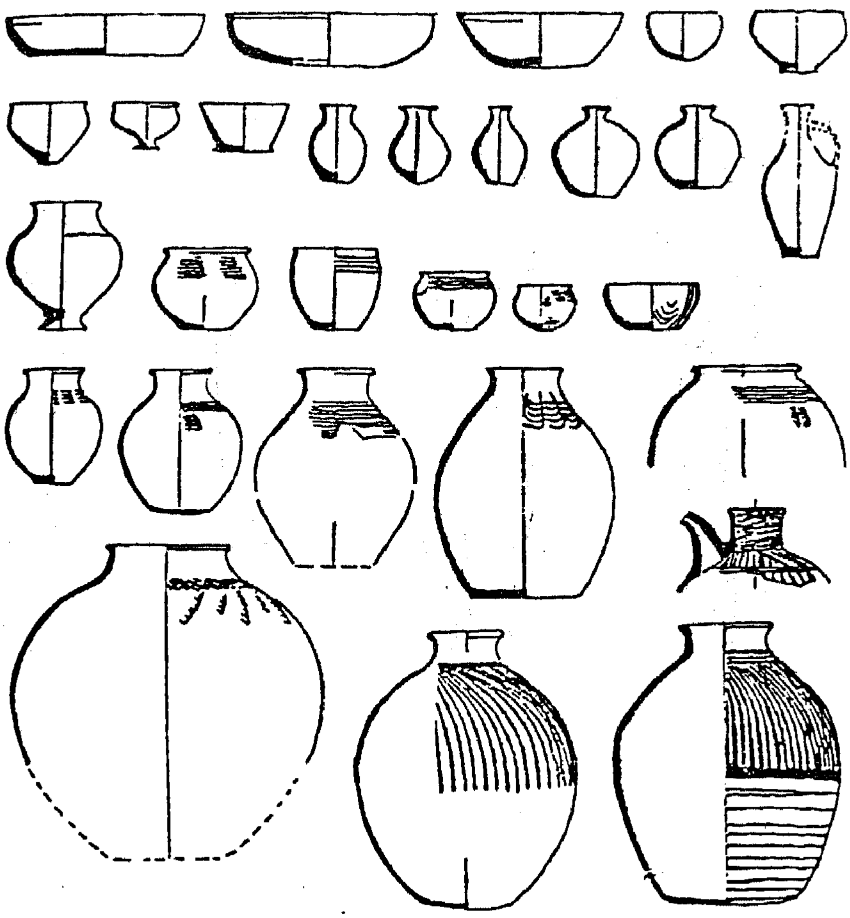
(شكل ٨٦) فخار يرجع الى العصر الحجرى الحديث فى موقع اريجا



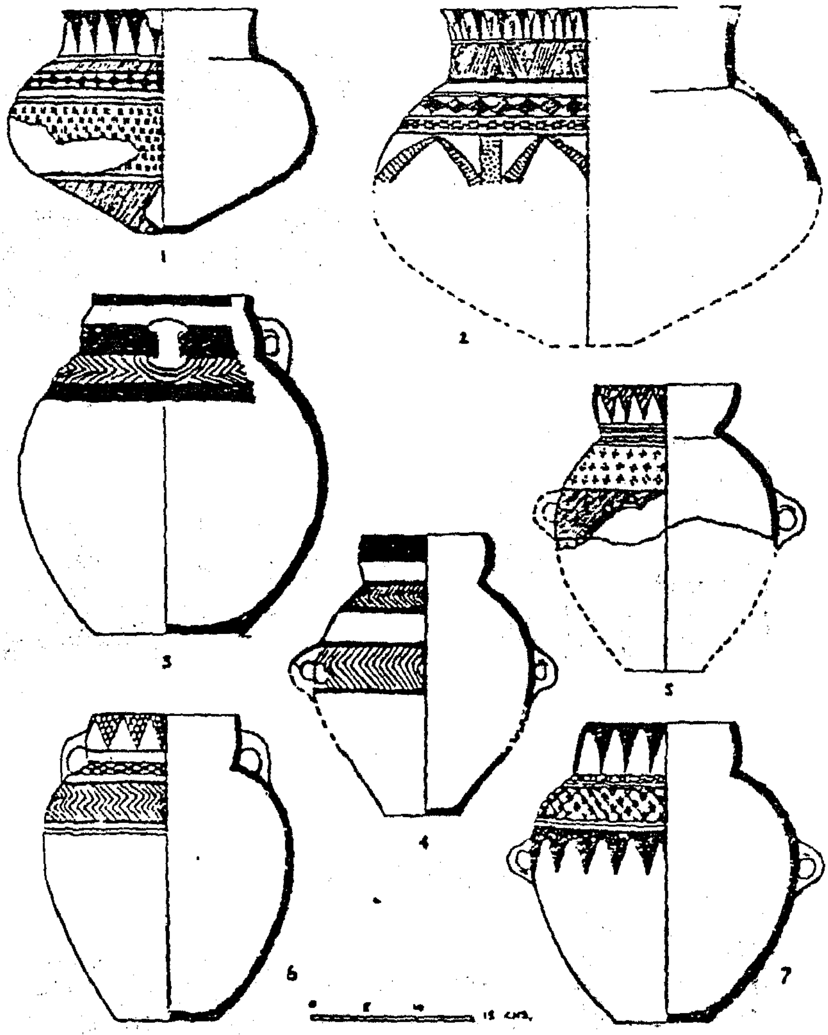
(شكل ٨٢) فخار فينيقى يرجع الى العصر الحديث



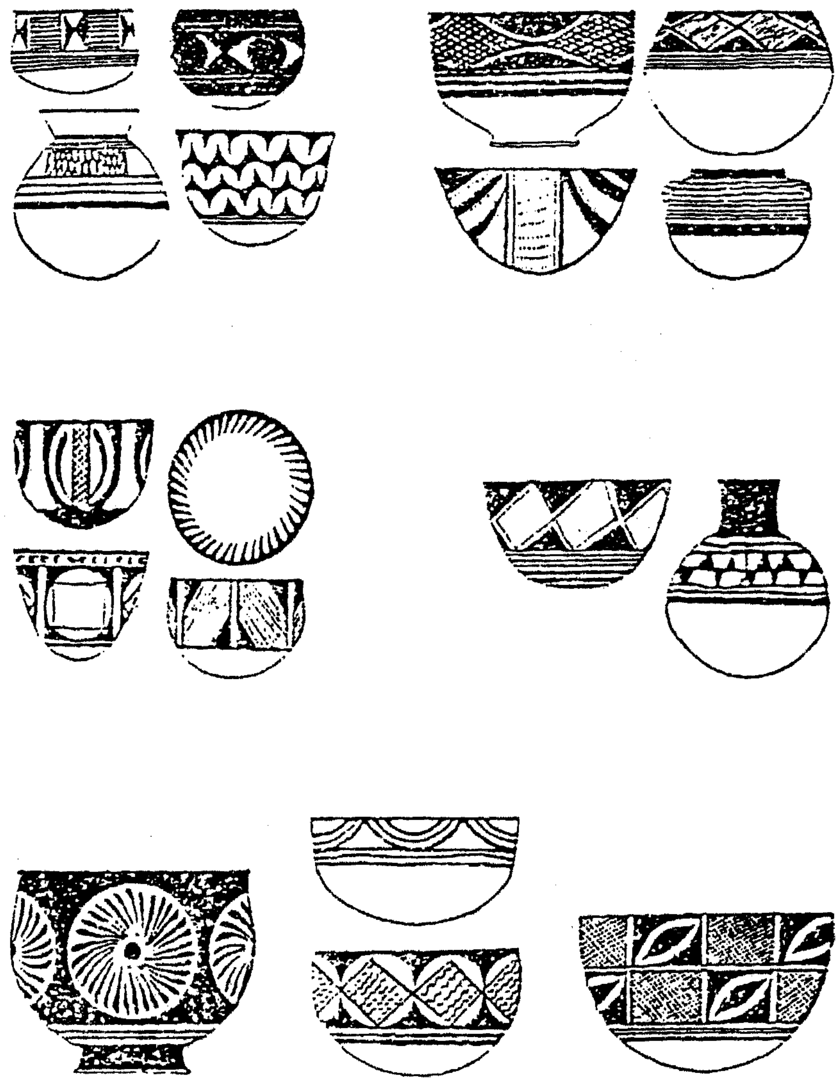
(شكل ٨٩) تماثيل ترجع الى مرحلة العمق «ج»



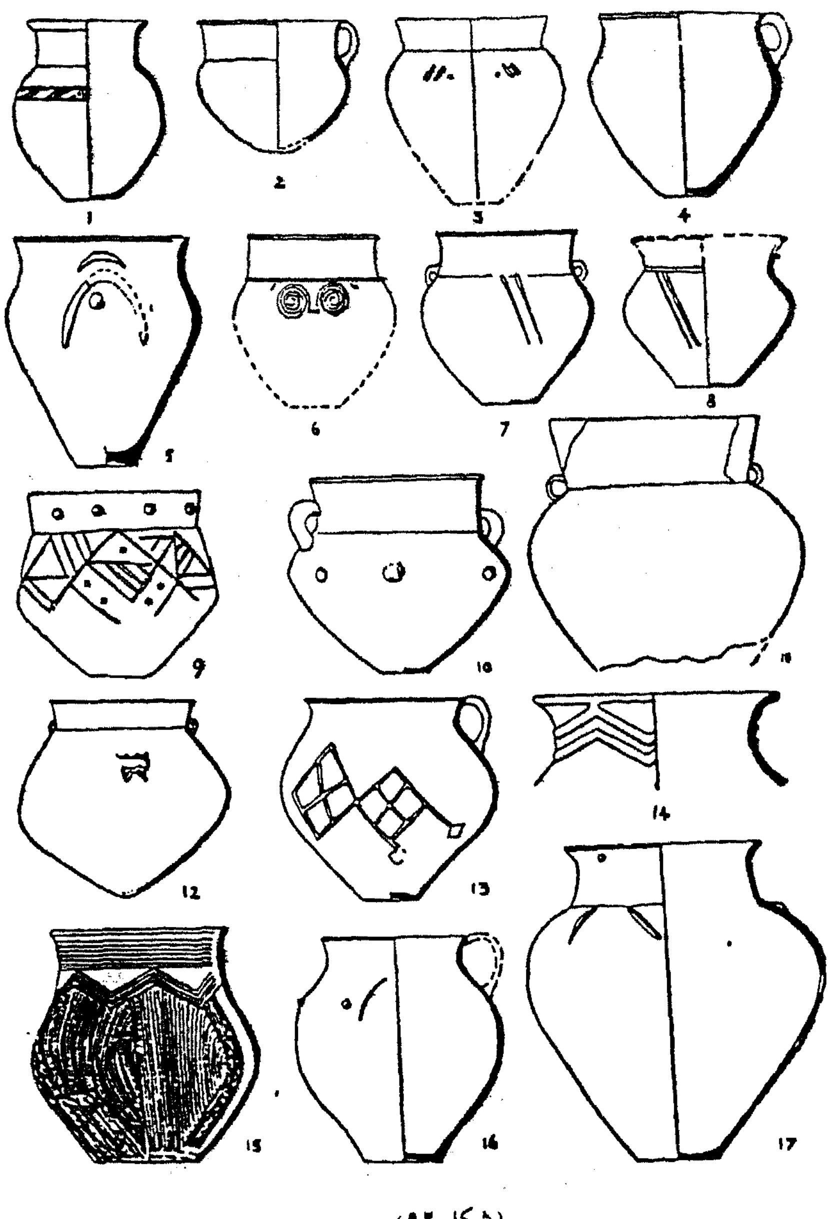
(شكل ٨٨) أوانى فخارية ترجع الى مرحلة العمق «ج» فى شمال سورية



(شكل ٩٠) فخار ملون يرجع الى مرحلة العمق «د»

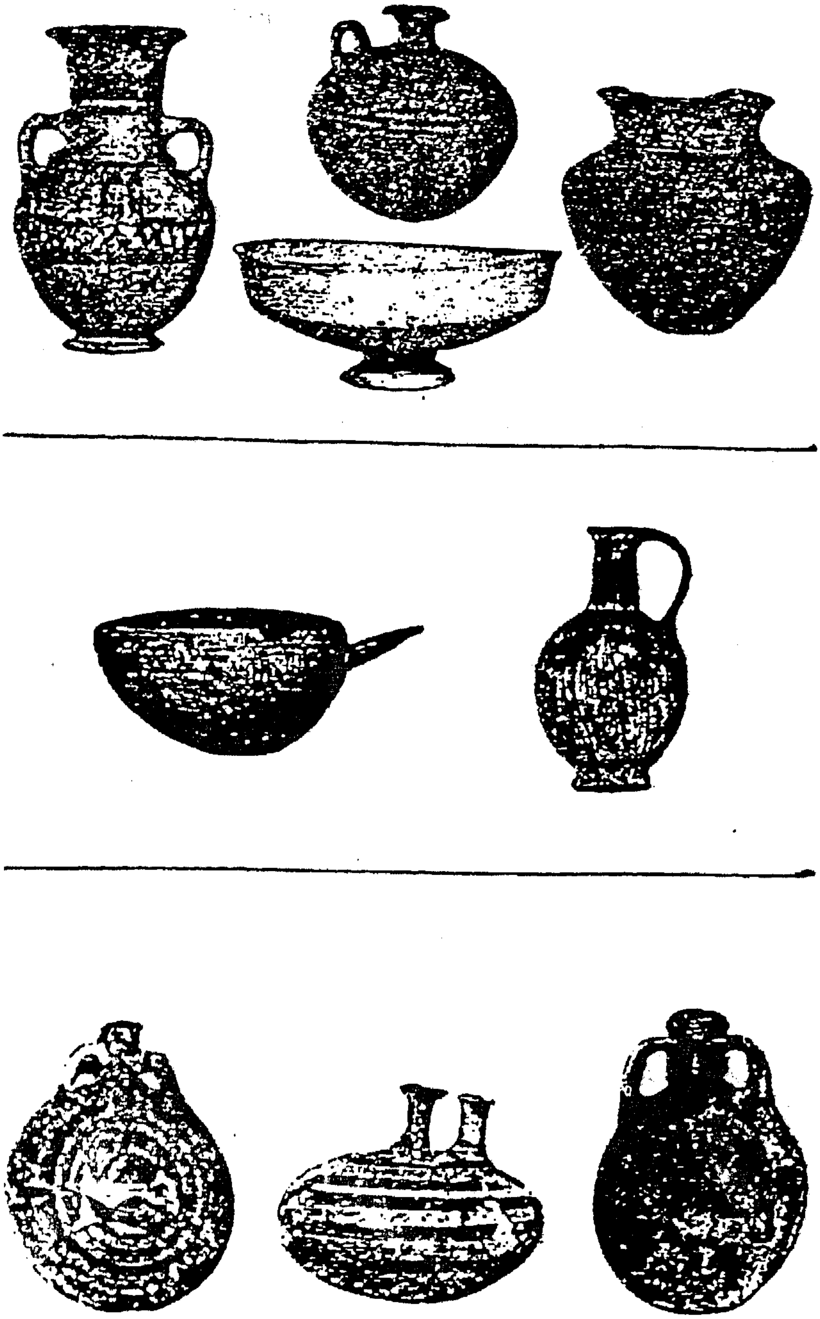


(شكل ٩١) أواني فخارية عثر عليها في تل الشيخ من سهل العمق
أ



(شكل ٩٢)

اوانى فخارية عثر عليها فى شمال سورية «عصر الحجر والنحاس»



(شكل ٩٣) فخار فينيقى يرجع الى عصر البرونز المتأخر

الفصل السادس
العصور الحجرية وماقبل الأسرات
فى
آسيـــا الصغـــرى

مقدمة تمهيدية

كان الحثيون من الشعوب الهندو - أوربية التي قامت بدور كبير في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ومع ذلك، فإن الكثير من مراحل تاريخهم ما زال يكتنفه الغموض، ولعل مرجع ذلك إلى قلة ما كتب عنهم بالقياس بما كتب عن مناطق الشرق الأدنى القديم الأخرى مثل مصر والعراق وسورية وإيران وسنتناول في هذا الحيز المراحل التاريخية المتعددة للحثيين، ونبدأها بتقديم عن الظروف الجغرافية لمنطقة آسيا الصغرى، واللغات السائدة فيها، والمصادر الرئيسية الخاصة بدراستها.

إن المظهر العام لآسيا الصغرى (الأناضول) موطن الحثيين عبارة عن هضبة مرتفعة تأخذ في الارتفاع من ساحل بحر ايجة في الغرب حتى جبال ارمينية في الشرق، ويبلغ ارتفاع أحد قممها وهي إيزيل داغ Eizil Dagh حوالي ٩٦٠٠ قدم.

ويمكن تقسيم سطح الأناضول إلى أربعة أقسام رئيسية وذلك على النحو الآتي:

١ - القسم الشمالي الشرقي:

ويتميز هذا القسم بأنه موطن الحثيون الأصلي ويجري فيه نهر الهاليس Halys والذي اصطلح على نطقه بالعربية فيصل يرموق أو قزل أرمق Ezıl

Irmak، وسماه الحثيون ماراسنتيا، ويبلغ طوله حوالي ٥٠٠ ميل، وتعددت منابعه من الجبال الشرقية وبخاصة حول منحدرات قمة إيزيل داغ الواقعة عند خط تقسيم المياه الشمالي لنهر الفرات، وينحدر بسرعة من منبعه متجهاً نحو الجنوب الغربي بسبب سلسلة ثانوية عند اقترابه من البحيرة المالحة (طوزجول)، وهكذا ينحني النهر في نصف دائرة كبيرة حتى ينعكس اتجاهه تماماً، ثم يخترق التلال الشمالية في اتجاه شمالي شرقي ويصب في البحر الأسود إلى الغرب من ميناء سمسون، ويجري في هذا القسم الجزء العلوي من نهر إيريس[١] Iris.

ومن أهم المدن التي تقع في هذا القسم مدينة خاتوساس Khattusas العاصمة الحيثية، وهي تقع على السطح الشمالي لأحد المرتفعات حيث تبدأ الهضبة في الانخفاض نحو البحر الأسود، ويجري من هذه السلسلة شمالاً في مجرى صخري شديد الانحدار تياران يتحدان عند نهاية المنحدرُ بالقرب من قرية بوغاز كوي الحديثة، (يطلق عليها حالياً بوغاز كالي) تاركين بينهما نتوءاً مرتفعاً أقيمت عليه أقدم مستعمرة في خاتوساس، ويتميز موقع هذه المدينة بأنه محصن من الناحية الطبيعية فهي عبارة عن قلعة جبلية إذ يحدها سلسلة جبال نبطس التي تقع إلى الشمال منها بحوالي خمسة عشر ميلاً تقريباً، كما أنه تقع على مقربة من نقطة اتصال أقدم طريقين للتجارة، وهما الطريق الذي يأتي من الساحل الإيجي عبر الهاليس السفلي متجهاً إلى سيباس Siyas، والطريق الآخر الذي يتجه جنوباً من ميناء أميسوس (سمسون) على البحر الأسود حتى مداخل قيلقية[٢].

٢ ـ القسم الشمالي الغربي:

ويشمل هذا القسم فريجيا Phrygia، ويحده شرقاً كل من نهري

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٣٧.

(٢) أ. ر. جرني: الحيثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد ومراجعة فيصل الوائلي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٦ ـ ٣٧.

سانجاريوس Sangarius وهاليس، ويحده جنوباً البحيرات الوسطى والجنوبية الغربية، ويجري في هذا القسم نهر سانجاريوس وروافده، ومن أهم المدن التي تقع في هذا القسم مدينة أنقرة.

٣ ـ المنطقة الواقعة بين السهول الوسطى وبحيرات بسيديان:

يلاحظ أن هذه المنطقة يتخللها مرتفعات لا تصلح منحدراتها غالباً للزراعة، بينما تجود الزراعة في المناطق المجاورة للأنهار، وتجود في هذه المناطق الفواكه، ومن أهم المدن في هذه المنطقة مدينة جابالا أو خابالا.

٤ ـ المنطقة الواقعة أسفل مرتفعات طوروس الشمالية:

ويحدها من ناحية الغرب مرتفعات كارداج Karadag، وتتجمع المياه في داخل هذا القسم في بحيرة آك جيل Ak Geul، وتتميز هذه المنطقة بخصوبتها، ومن أهم المدن الموجودة فيها مدينة تيانا Tyana[1].

وأطلق على اللغة الرسمية لبلاد حاثي اسم «اللغة الحثية» كما عرفت البلاد باسم «حاثي»، ولم تكن اللغة الحثية إحدى لغات آسيا الصغرى المحلية، وأطلق اسم حاثي على هذه المنطقة السكان الأوائل الذين أطلق عليهم حاثيين، وقد فرض الغزاة اللغة الحثية ـ الهندية ـ الأوروبية على الحاتيين الذين لم يكونوا من الهنود الأوروبيين[2].

وبجانب اللغة الحثية الهندو أوربية كانت هناك لغتان تنتميان إلى نفس العائلة في آسيا الصغرى، وهاتان اللغتان هما اللغة اللوية Luwian والباليه Palaic.

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) O R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1981, pp. 17 - 18.

وفيما يتصل باللغة اللوية فهي تنسب إلى اللويون، الذين يرجح أنهم قد جاءوا إلى الأناضول من الغرب وذلك عند بداية عهد البرونز، وانتشروا على الهضبة في نهاية هذا العهد، وقد تمكنوا من السيطرة على جنوب الأناضول في أواسط الألف الثالث ق. م. وربما قبل ذلك(١).

وتعني كلمة «لويا Luwiya» في الوثائق الحيثية ولاية أرازوا Arazawa التي قامت بدور كبير أثناء الألف الثاني قبل الميلاد كمنافس للمملكة الحيثية، وقد ظهرت الكثير من الأسماء اللوية في النصوص الحيثية، وقد كتبت اللهجة اللوية بالحروف الهيروغليفية التي كانت تعرف باسم «الهيروغليفية الحثية»(٢).

وكانت اللغة البالية Pala هي اللغة الهندو ـ أوربية الثالثة المنتشرة في الهضبة الإيرانية، ولم يمكن حتى الآن التعرف على الموطن الذي استقر فيه الباليون في آسيا الصغرى. فترى المصادر الكلاسيكية أنه في منطقة Paphla-Gonia (كاستا مونو Kastamonu حالياً) حيث كانت توجد مقاطعة تسمى Blaene بينما يرى البعض أنها كانت بجوار Sebasteia (سيفاس حالياً)، أو أنها كانت تقع في الشمال الشرقي من أرمينية الصغرى وذلك بالقرب من بايبورت Bayburt الحالية.

ودخلت اللغة الحورية فيما بعد إلى آسيا الصغرى، وكان الحوريون أمة غير معروفة فيما وراء المرتفعات الشرقية في السنوات الأولى لظهور مملكة خاتوشا Khattusha ولم يتمكنوا من التأثير على الحيثيين حتى بعد عام ١٥٥٠ ق. م، ويبدو أنهم بدأوا يتسللون إلى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة

(١) C.W. Blegen, «The Geographical Distribution of Prehistoric Remains in Greece» In A.J.A., Vol, 32 (1928), p. 146 FF.

(٢) انظر:

W.F. Albirght, and T.O Lambdin, «The Indo - Hittite Family», in C.A.H, vol II, part I, p. 138. FF.

التي كانت آهلة باللويين من قبل(١).

ويعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ الحثيين على العديد من المصادر، ويأتي في مقدمتها المصادر الأثرية.

ولقد بدأ الاهتمام بدراسة الأثار الحيثية منذ بداية القرن التاسع عشر حينما لاحظ أحد الرحالة ويدعى بورخارت Borchardt أحد الأحجار في مدينة حماه عام ١٨١٢م وأشار في كتابه Travels in Syria أن على هذا الحجر عدداً من النقوش والعلامات التي يبدو أنها نوع من كتابة هيروغليفية على الرغم من أنها لا تشابه الهيروغليفية المصرية.

وفيما بين عامي ١٨٣٣، ١٨٣٥ م كان شارل تكسيه Charles Texeir في مهمة من قبل الحكومة الفرنسية في آسيا الصغرى، وشاهد قرب بوغاز كوي بعض الخرائب التي قام بعمل رسم تخطيطي لها.

وحتى عام ١٨٨٠ م كان الاهتمام بآثار الحيثيين اهتماماً فردياً، إذ أخذ علماء الآثار والهيئات الأثرية منذ ذلك الوقت تهتم بهذه المنطقة، حيث تم الكشف عن العديد من النقوش في منطقة جبال طوروس وفي قرقميس، وكانت منطقة بوغاز كوي من أهم هذه المناطق، إذ تمكنت البعثة الألمانية للآثار من الكشف عام ١٩٠٦ م عن حوالي عشرة آلاف لوح مسماري. وكان من بين الألواح التي كشف عنها نسخة من المعاهدة التي عقدت ما بين الفرعون رعمسيس الثاني وملك حاتي. وتبين أن هذه اللوحات كانت تمثل السجلات الملكية في الفترة من النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر ق. م.

وتوقفت أعمال الحفائر في آسيا الصغرى نظراً لقيام الحرب العالمية الأولى، ولم تستؤنف إلا قبيل عام ١٩٣٠ م حيث قام المعهد الشرقي للآثار في

---

(١) O.R. Gurney, «Anatolia C. 1750- 1600 B.C.», in C.A.H , vol, II. Part I, pp. 231 - 232.

شيكاغو بعمل بعض الكشوف الأثرية في منطقة «علي شار» على مبعدة ٧٠ كم جنوب شرق بوغاز كوي، ومنذ عام ١٩٣١ م، واصل الفرنسيون حفائرهم حيث تم الكشف عن العديد من الآثار منذ العصر الحجري الحديث، ومنذ عام ١٩٣٥ م أخذت البعثات الأمريكية وكذلك التركية في العمل في مجال البحث الأثري في آسيا الصغرى[١].

ويعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ الحيثيين على المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر والعراق، فلقد ألقت ألواح العمارنة الكثير من الضوء على الحيثيين خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، كما أوضحت النصوص العراقية بعض المعلومات عنهم وبخاصة في الفترة الواقعة ما بين عهد تجلات بلاسر الأول (حوالي عام ١١٠٠ ق. م) وسرجون في نهاية القرن الثامن ق. م. حين تمكن من القضاء على الولايات الحيثية في سورية الشمالية وشيد في مكانها مستعمرات يديرها حكام أشوريون.

ولقد أشارت التوراة في العديد من أسفارها إلى الحيثيين، فلقد وردت كلمة «حثي» و «حثيون» (مفرد وجمع) ٤٧ مرة في العهد القديم، بينما وردت كلمة «حث» ١٤ مرة أخرى، وكثيراً ما يذكر الحثيون في قائمة الأمم الساكنة كنعان قبل دخول العبرانيين (التكوين ١٥ : ٢٠، خروج ٣ :٨، تثنية ٧ :١، ٢٠ :١٧، يشوع ٣ :١٠، ١١ :٣، ٢٤ :١١) وتشير التوراة إلى أن الحيثيين من ذرية حث ثاني أبناء كنعان، وأن إبراهيم عليه السلام قد اشترى مغارة المكفيلة من عفرون الحثي (تكوين ٢٣ : ١٠ ـ ١٨) كما اتخذ عيسى امرأتين حيثيتين (تكوين ٢٦ : ٣٤) وتزاوج العبرانيون فيما بعد مع الحيثيين (قضاة ٣ : ٥ ـ ٦)، وكان لداود عليه السلام أصدقاء حيثيون (صموئيل أول ٢٦ : ٦) وكان لسليمان عليه السلام زوجات حيثيات (ملوك أول ١١ : ١)، كما اشترك الحيثيون في مشاريع سليمان عليه السلام (ملوك أول ٩ : ٢٠ ـ ٢٢).

---

(١) O.R. Gurney, The Hittites, p. 1 FF.

وقد اعتبر العبرانيون الحيثيين شعباً قوياً معروفاً، فقد اعترفوا بأرض الحيثيين (يشوع ١ : ٤)، ويذكر ملوك الحيثيين في جملة واحدة مع ملوك آرام (ملوك أول ١٠ : ٢٩، أخبار ثاني ١ : ١٧) ويوضعون في مرتبة واحدة مع المصريين كدليل على عظمتهم (ملوك ثاني ٧ : ٦)[1].

(١) انظر : قاموس الكتاب المقدس، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨١، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

الموضوع الثانى

عصور ماقبل التدوين والكتابة

١ ـ العصر الحجري القديم

يستدل من الحفائر التي أجريت في الأناضول حتى الآن على وجود أدلة أثرية تؤكد وجود الأدوات الحجرية الخاصة بالإنسان في مرحلتي العصر الحجري القديم الأوسط والعصر الحجري القديم الأعلى، وهي تشبه تلك التي عثر عليها في كل من سورية ولبنان وفلسطين[١].

وتجدر الإشارة إلى أن البحث عن آثار هذا الدور قد ظل لفترة طويلة بطريقة غير منظمة وعلى أسس غير علمية، ولقد عثر على البقايا الأثرية الخاصة بالعصر الحجري القديم بشكل رئيسي على سطح الأرض[٢]، وبجانب هذه البقايا فقد عثر على بعض الأدوات بالقرب من أنقرة[٣]. وتعتبر المادة الأثرية التي كشف عنها في كهف كارين Karain بالقرب من أنطاليا من أهم الاكتشافات التي تم التوصل إليها على أساس أنها تعطي نتائج سليمة لهذه المرحلة، حيث وجدت أدوات حجرية أشولية وموستيرية وأورنياسية متتابعة في طبقات، كما عثر على آثار لبعض حفريات حيوانية فقرية أهمها دب الكهوف، وأسد

---

(١) D.A.E. Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe in Palaeolithic Times», In C A.H., vol, I, Part I, p. 86.

(٢) S.A. Kansu, «Stone- age Cultures in Turkey», in A.J.A., vol, 51 (1947), p 227 FF.

(٣) S.A. Kansu, Nouvelles decouvertes Prehistoriques dans Les environs D'Ankara, Istanbul, 1937.

الكهوف، كما عثر على سنة من أسنان طفل من جنس نياندرثال.

وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن الإنسان قد وُجد في الأناضول في العصر الحجري القديم، ومن المناطق التي لها أهمية خاصة في هذه المرحلة منطقة آدیامان Adiyaman التي تقع في حوض الفرات الأعلى بالقرب من ملاطيا Malatya، نظراً لأن الآثار التي عثر عليها فيها توضح تعاقب وجود الجماعات البشرية بها، كما أنها من ناحية أخرى تعد بمثابة حلقة الاتصال الأولى بين حضارات الإقليم السوري من جهة وبين تلك التي وجدت في كردستان والقوقاز من جهة أخرى[١].

وتجدر الإشارة إلى أن الأدلة الأثرية الخاصة بمرحلة العصر الحجري القديم تتكون في معظمها من مجموعات متفرقة من المخلفات السطحية، وأن الآثار التي اكتشفت كانت غير منتظمة في طبقات.

٢ ـ العصر الحجري الوسيط

تشبه أدوات العصر الحجري الوسيط في الأناضول الأدوات التي كشف عنها وترجع إلى الحضارة الناطوفية في فلسطين، وهي من ناحية أخرى تعتبر استمراراً وتطوراً للأدوات الحجرية التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ومن المواقع التي كشف فيها عن الأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة موقع بيلدیبي Beldubi بالقرب من أنطاليا Antalya[٢].

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) Enver, Y. Bostanci, «Researches on the Mediterranean Coast of Anatolia. A New Palaeolithic Site at Beldibi near Antalya», in Anatolia, vol. 4 (1959), p. 129 FF.

٣ ـ العصر الحجري الحديث

رغم أن عملية النقلة من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة إنتاجه لم تدرس بالشكل الكافي في الأناضول، إلا أنه يمكن القول اعتماداً على المكتشفات الحديثة أن هضبة الأناضول الجنوبية كانت من المراكز التي شهدت هذه النقلة وذلك خلال الألفين الثامن والسابع ق. م[١].

ومن أقدم مراكز الاستقرار التي كشف عنها في الأناضول موقع سبرد Suberde الذي يؤرخ بحوالي عام ٦٨٥٠ ق. م، وموقع هاكيلار Hacilar الذي يؤرخ بحوالي عام ٧٠٠٠ ق. م، ويوجد كلاهما في جنوبي غربي الأناضول. وبينما لم تكشف الطبقات السفلى من موقع سبرد عن بقايا معمارية فإنه توجد بقايا لأرضيات كهوف، وبعض الأدوات الحجرية المصنوعة من الظران والأبسيدان، وتتضمن هذه الأدوات السكاكين ورؤوس السهام، وظهرت كذلك الأدوات النحاسية المتمثلة في المخارز.

وكشفت الطبقات التالية عن مباني مصنوعة من الطوب اللبن وغطيت أرضياتها ببلاط من الطين، واستمر السكان في ممارسة حرفة الصيد، ويبدو مرجحاً أن الإنسان قد تمكن من استئناس الخنزير، ويحتمل أنه قد توصل أيضاً إلى استئناس الزراعة، ولكن ذلك غير مؤكد[٢]. وتوضح الرسوم التي كشف عنها في كهف كورتون آني Kurtun Ini المجاور لموقع سبرد وجود الماعز البري.

ويتكون موقع هاكيلار من سبع طبقات، تؤرخ الطبقات الخمس العليا منها بحوالي عام ٧٠٠٠ ق. م، وتتكون البقايا المعمارية من جدران مبنية من الطوب اللبن فوق أساسات حجرية، ويوجد في الوسط فناء مكشوف يحتوي على

(١) J. Mellaart, «Anatolia Before 4000 B.C», in C.A.H., vol, I. Part I, p. 306.

(٢) J. Bordaz, «Suberde Excavations», In A. St., 15 (1965), p. 30 ff.

العديد من المواقد والأفران وصوامع لخزن الحبوب، واتخذت الحجرات في تصميمها الشكل المستطيل، وغطيت أرضيات الحجرات الرئيسية بملاط من الطين فوق طبقة من الحصى، وطليت باللون الأحمر وكذلك قاعدة الجدران، ولم تزود المنازل بأبواب يدخل منها إلى المساكن، بل كان الدخول يتم عن طريق سقف المسكن بواسطة سلم خشبي، ورغم عدم سهولة تلك الوسيلة، فإنها من ناحية أخرى توفر الأمن والحماية وإمكانية الدفاع بالنسبة للسكان في حالة تعرضهم لخطر من الخارج.

ولم يكشف عن أية أدوات أو أواني فخارية مما يرجح أنها كانت غير معروفة في هذه المرحلة، واستخدم السكان الأدوات والأواني الحجرية، حيث كشف عن بقايا آنية مصنوعة من الرخام، وتضمنت المصنوعات الحجرية، السكاكين.

ولقد كشف عن عظام العديد من الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والماعز، وكان الكلب هو الحيوان الوحيد الذي كان من المؤكد أنه قد استؤنس في هذا الموقع، وتوضح الأدلة الأثرية كذلك التوصل إلى استئناس الزراعة حيث عثر على بقايا القمح والشعير[١].

ويمثل موقع Catal Huyuk شطل هيوك[٢] مرحلة متقدمة في العصر الحجري الحديث، وهو يوجد جنوب شرق قونية بأربعين كيلومتر على ضفة نهر «أورشمبتشاي» ومعنى اسمه التل المزدوج. ويتكون هذا الموقع من عدد من

---

(١) انظر:

J. Mellaart, «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary Report», in A.St, 11, (1961), p. 70 ff.,

J. Mellaart, Earliest Civilization of the Near East, London, 1965, Fig. 49., J Mellaart, In C.A H., pp. 309 - 315.

(٢) J Mellaart, «Excavations at Catal Huyuk», in A. St vol. 12 (1962), Vol. 13 (1963), Vol. 14 (1964), Vol 16 (1966).

القرى، وتغطي البقايا الأثرية التي كشف عنها الفترة الزمنية الممتدة من حوالي عام ٦٨٠٠ ـ ٥٨٠٠ ق. م. وذلك اعتماداً على تحليل الكربون الراديوي C 14. ولقد كشف في هذا الموقع على أربع عشرة طبقة متتالية من البقايا المعمارية.

واعتمد اقتصاد السكان في هذا الموقع بشكل رئيسي على الصيد والزراعة وتربية الماشية، ويعتمد أيضاً على التجارة. ويتضح من البقايا العظمية أن الإنسان قد تمكن في هذه المرحلة من استئناس العديد من الحيوانات مثل الأغنام والماعز والكلاب، ولكن كان اعتماده بشكل رئيسي على صيد الحيوانات البرية والتي لم يتمكن من استئناسها بعد.

وفيما يتصل بدفن الموتى، فلقد كان الموتى يدفنون في المنازل أسفل منصات حجرية، وتوضح الأدلة الأثرية التي كشف عنها اتجاه الإنسان في هذه المرحلة إلى العالم الخارجي المحيط به، حيث عثر على العديد من الأدوات المصنوعة من مواد غير متوفرة في هذه المنطقة.

ومن المظاهر الجديدة في هذا الموقع بداية استخدام الفخار، وكان ذلك على نطاق محدود في أول الأمر، وظهرت البدايات الأولى للصناعات الفخارية في الطبقة الثالثة عشرة. ثم تطورت صناعة الأواني، وكانت زيناتها متأثرة بأشكال الأسبتة والأواني الخشبية.

وفيما يتصل بالبقايا المعمارية، فيلاحظ أن كل منزل كان يتكون من حجرة مستطيلة ملحق بها مخزن ضيق، وقد شيدت الجدران من الطوب اللبن، ولم توجد أساسات حجرية. وشيد القوم مقاصير أو معابد صغيرة، وهي تتميز عن المنازل بزيناتها الدينية، وبوجود تماثيل للعبادة، وقد صنعت هذه التماثيل من الأحجار والصلصال، وتتميز كذلك بدفناتها الغنية، وقد دفن مع الموتى أسلحة رمزية، ومرايا عاكسة من حجر الأوبسيدان، وغيرها.

واتخذت زينات المعابد العديد من الأشكال، فكان منها زينات بارزة مصنوعة من البلاط، وقد ظهرت في هذه الزينات الإلهة الأم وقد مثلت في

شكل إنساني، ومثل ابنها أو زوجها في هيئة ثور، ومثل أحياناً برأس ثور أو كبش، وظهر في أحيان أخرى بقرون حيوانات مفترسة.

وأصبحت الرسوم الجدارية مألوفة منذ الطبقة العاشرة وما بعدها، وقلدت هذه الرسوم نماذج المنسوجات، وشباك صيد الأسماك وشباك صيد الحيوانات، وصفوف من أيدي آدمية، وصفوف من الثيران، وصفوف من الزهور والفراشات، وغيرها، وتوضح بعض المناظر صيد الثيران البرية، ويظهر في رسوم أخرى نسر وهو يهاجم إنسان (شكل ٩٤).

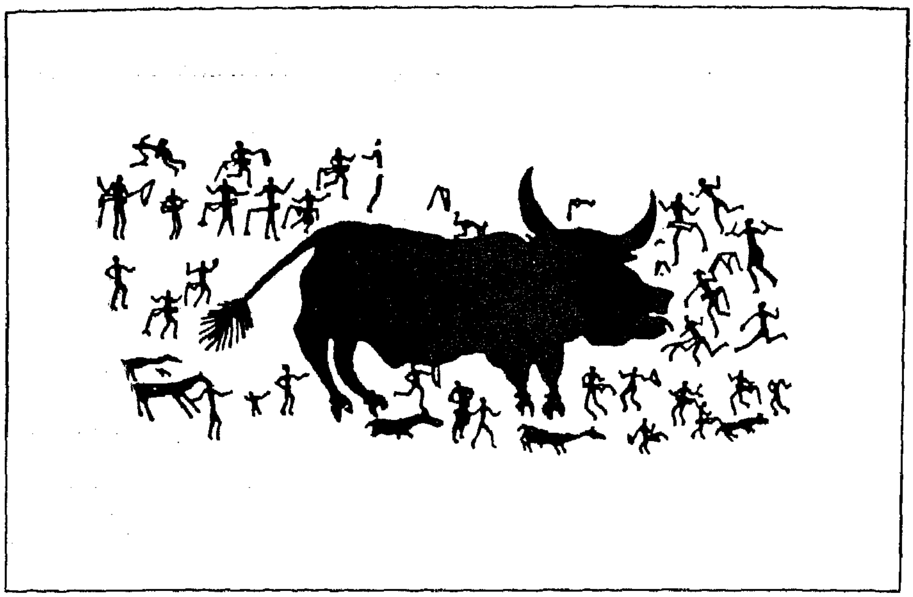
ومن المناظر التي لها دلالتها في هذا الموقع، تلك المناظر التي تمثل مبنى مشيد من البوص والحصير، وقد وضعت العديد من الهياكل الإنسانية أسفله، ومن الواضح أن هذا التعبير الفني، إنما هو انعكاس أو تصوير للعقائد الدينية الجنزية التي ظهرت في موقع شطل هيوك شكل (٩٥) .[١]

وكانت أجساد الموتى تترك مكشوفة إلى أن تتحلل الأجزاء الضعيفة منها، وبعد ذلك يتم لف الهيكل العظمي بقطع الأقمشة أو الحصير، ويوضع أسفل مصطبة بالمنازل أو المعابد، وكان يدفن معه بعض الأثاث الجنائزي، ويلاحظ في هذا المجال، أنه كانت تدفن الجواهر مع النساء، والأطفال، بينما دفنت الأسلحة مع الرجال، وكانت توضع الأواني الحجرية والأسبتة والسلال مع كل الدفنات.

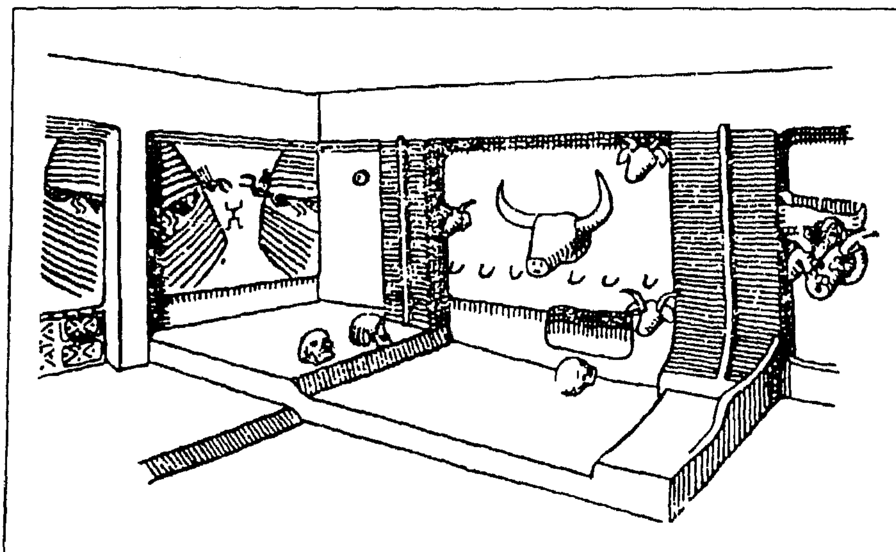
ويلاحظ أن بعض الدفنات الخاصة بالنساء، قد لونت باللون الأحمر الناتج من أكسيد الحديد، وهي الممارسة التي ظهرت في بعض المواقع الإيرانية مثل حاج فيروز وسيالك[٢]، بينما أضيفت الألوان الأخضر والأزرق إلى بعض الهياكل العظيمة الخاصة بالرجال والنساء في الطبقتين السابعة والسادسة، ولكن

(١) J. Mellaart, In C.A.H., vol. I, Part I, p. 312.

(٢) انظر: أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ إيران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، بيروت ١٩٨٨.



شكل (٩٤) لوحة مرسومة في معبد الصيد (الطبقة السابعة)



(شكل ٩٥) معبد الأسلاف (الطبقة السابعة)

يلاحظ أن هذين اللونين الأخضر والأزرق كانا يوضعان على الرقبة والجفون فقط، وفي الطبقات الأثرية التالية كانت توضع حبات الخرز الزرقاء والخضراء بدلاً من الألوان[١].

ولقد كانت التماثيل الصغيرة شائعة الاستخدام، وصنعت التماثيل التي عثر عليها في الطبقات السفلى من الرخام والحجر الجيري والمرمر، أما التماثيل التي عثر عليها في الطبقات التالية فقد صنعت بشكل رئيسي من الصلصال، وكانت أغلبها ملونة، ومثلت هذه التماثيل الإلهة الرئيسية كأم أو عذراء، وكذلك عبادة الذكر كطفل أو شاب أو في شكل ملتح يمثل الأب. وارتبطت تماثيل الثيران والكباش والنمور مع تماثيل الذكور[٢].

ولا يستطيع العلماء الجزم بأصل هذه الحضارة، وربما توضح الحفائر التي تجري في هذا الموقع الكثير مما لا يمكن تفسيره حالياً، وما زالت نهاية حضارة موقع شطل هيوك غير معروفة، حيث لم تجري حفائر في الطبقات السفلى من الموقع.

وإلى الغرب من موقع شطل هيوك بحوالي مائتي ميل، ظهر قادمون جدد تمثل حضارتهم المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث[٣]. وبالنسبة للموطن الأصلي الذي جاءوا منه فإنه غير معروف، وإن كان يرجح أنهم قد جاءوا من منطقة بسيديان.

وفيما يتصل بالمظاهر الحضارية الجديدة التي ظهرت في حضارتهم، فمن أبرزها اختفاء الصيد، وظهور الصناعات الحجرية الجيدة، وكانت الأسلحة الرئيسية تتكون من القضبان الشائكة والمقاليع. واختفت الرسوم الجدارية،

---

(١) J. Mellaart. op. cit., p. [illegible]2.

(٢) Ibid., p 313.

(٣) J. Mellaart, «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary Report» In A. St. 11 (1961), p. 42 ff.

وأصبحت الأرداف أكثر ضخامة في تماثيل النساء وكذلك الرجال الذين يمثلون قوى إلهية.

وأخذت الهياكل الملونة والمزينة طريقها إلى العبادة المنزلية، فأصبحت توجد التماثيل في جميع المنازل تقريباً.

وفي مجال العمارة، ظهرت طرز معمارية جديدة تتمثل في تصميم المنازل بحيث تكون الحجرات حول فناء، ويحيط بها زقاق ضيق، ويحميها جدار دفاعي، وكانت الحجرات تفتح مباشرة على الفناء بواسطة أبواب متسعة، وكان المطبخ وكذلك الحجرات الإضافية توجد خارج المنزل على جانبي المدخل، وشيدت هذه الحجرات من مواد خفيفة مثل الأعمدة الخشبية والأغصان وتغطى بطبقة من الطين. واتخذت غرفة المعيشة الرئيسية شكلاً مستطيلاً، ويبلغ أقصى طول لها ثلاثون قدماً، ويلاحظ أنه ظل يوجد فيها موقداً وفرناً في مواجهة الباب، ويوجد في أرضيتها بجوار الحائط خزانات صغيرة، وأحياناً كانت تبنى هذه الخزانات من الطوب اللبن بجوار الجدران. وكان وجود مخازن الحبوب المستطيلة بجوار الجدار أمراً مألوفاً[١].

واعتمد السكان في حياتهم بشكل رئيسي على الزراعة، حيث قاموا بزراعة العديد من المحاصيل، مثل الشعير والقمح والبازلاء والعدس، ويحتمل أنه قد تم استئناس الأغنام والماعز، وظهرت المواشي والخنازير، كما عرف الكلب، ومن ناحية أخرى فلم يمارس السكان حرفة الصيد.

وتقدمت الصناعات الحجرية والعظمية خلال هذه المرحلة (نهاية العصر الحجري الحديث)، ومنها رؤوس الصولجانات والأواني المصنوعة من الرخام والتي بلغ حجم بعضها قدمين، وكذلك الأطباق، وصنع من العظام المناجل والسكاكين وقد شكلت أطرافها على هيئة رؤوس الحيوانات أو على هيئة رؤوس آدمية، وصنع من العظام كذلك المخارز والمثاقيب والإبر والدبابيس والسنانير،

---

(١) J. Mellaart, In C A H., vol. I, part I, p. 314.

واستخدمت الأصداف في صناعة العقود والدلايات.

وتطورت الصناعات الفخارية[١] عن تلك التي ظهرت في شطل هيوك وكشف عن العديد من أنواع الفخار الأحمر والرمادي، وكانت بعض الأواني سوداء من الداخل وكانت الأواني ذات القوائم العمودية الدائرية المثقوبة شائعة الاستخدام، وكان للأواني مقابض تشبه مقابض السلال. وتعددت الأواني فكان منها الأواني الكبيرة والصغيرة، وتعددة أشكالها فكان منها الأسطواني أو الكروي أو الدائري أو المستطيل.

من الأواني الفخارية المميزة التي ظهرت خلال هذه المرحلة كوب ماء مصنوع على هيئة رأس امرأة، وكذلك أواني مصنوعة على هيئة رؤوس حيوانات أو رؤوس طيور.

وعثر على الأدلة الخاصة بالناحية الدينية في جميع المباني التي تم الكشف عنها، فلقد عثر على عدد كبير من التماثيل التي تعبر عن القوى الإلهية، ومنها ما يمثل الألهة الأم وهي مع طفلها تحمله أو تلعب معه.

٤ ـ عصر الحجر والنحاس المبكر

تتميز النقلة من العصر الحجري الحديث إلى بداية عصر الحجر والنحاس بوجود آثار تدمير في بعض المواقع بآسيا الصغرى مثل موقع هاكيلار Hacilar وشطل هيوك، ومع ذلك فإنه لا يوجد أي دليل على دخول عنصر حضاري جديد إلى المنطقة. بل يلاحظ أن كل الأدلة الأثرية تشير إلى استمرارية التقاليد الحضارية السابقة.

---

(١) انظر:

J. Mellaart, «Early Cultures of the South Anatolian Plateau», In A.St. 11 (1961), p. 166 ff, fig 6

ومع ذلك فقد ظهرت بعض المظاهر الحضارية الجديدة أو المختلفة عن مرحلة العصر الحجري الحديث الأخير، ومن أهم هذه المظاهر، ظهور الزينات الفخارية، وانحدار الصناعات الحجرية، وظهور معدن النحاس واستخدامه في صناعة العديد من الأدوات.

وتوجد الأدلة الأثرية الخاصة بهذه المرحلة في ثلاث مناطق جغرافية، الأولى في منطقة مرسين Mersin وذلك في سهل كيلكيا[١] وبخاصة الطبقات من الطبقة الرابعة عشرة إلى الطبقة العشرين، والثانية في شطل هيوك Catal Huyuk في الغرب في سهل كونيا[٢]، والثالثة في هاكيلار Hacilar في جنوب غرب آسيا الصغرى[٣].

وبالإضافة إلى هذه المواقع، فإنه توجد مواقع أخرى تقع في أقصى الغرب والشمال ولكن محتوياتها الأثرية سجلت بشكل رديء. ومن هذه المواقع، موقع أيو جالا Ayio Gala، في أزمير، وموقع كارادين بالقرب من أزنيك Iznik.

ويمكن تأريخ هذه المرحلة اعتماداً على النتائج المستمدة من استخدام طريقة كربون ١٤ في موقع هاكيلار على أساس أنه يمتد من حوالي عام ٥٦٠٠ ق. م وحتى الربع الأول من الألف الخامس ق. م[٤].

وتوضح الطبقة الأثرية الثانية في موقع هاكيلار مظاهر حضارية فريدة في

---

(١) A. Furness, «Some Early Pottery of Samos, Kalimnos, and Chios», in P.P S., vol. 22 (1956), p. 45 FF.

(٢) J. Mellaart, «Early Chalcolithic Pottery From Catal Huyuk» in A. St, 11 (1961), p. 177 FF.

(٣) J. Mellaart, «Preliminary Report on a Survey of Pre- Classical Remains in Southern Turkey», In A. St. 4 (1954), p 86, fig 2.

(٤) J Mellaart., In C. A. H., Vol. I, Part I, P. 317.

هذه المرحلة، وقد كان يحيط بالمنازل سور مستطيل محصن ومزود بأبراج، ويؤدي إلى المجموعة السكنية ثلاثة مداخل ضيقة، وكان يوجد غيرها في الناحيتين الشرقية والجنوبية ولكن لا يمكن تحديد عددها نظراً للتدمير الذي لحق بهذا الجزء، ومن هذه المداخل كان هناك واحد فقط هو الذي يؤدي مباشرة إلى المباني، أما المداخل الأخرى فكانت تفتح في ممر مغطى أو حجرات جانبية تؤدي إلى أفنية مكشوفة تتجمع حولها المنازل.

وفيما يتصل بتصميم المنازل خلال مرحلة عصر الحجر والنحاس المبكر، فقد كانت المنازل في مجموعها مستطيلة الشكل، وكان يوجد في أرضية المنزل موقد وكذلك حفرة كانت تستخدم كمرحاض، وحفظ الطعام في أواني كبيرة أو أواني مصنوعة من الطين توضع في حفرة بأرضية المنزل، وكان لمعظم المنازل فناء خارجي أمام المنزل، وزودت المنازل بنوافذ، وكانت أسقف المنازل مسطحة، بينما زودت المنازل المشيدة في الغابات بسقوف ذات شكل جمالوني وذلك لتجنب الأمطار، وشيدت الأسقف من الأخشاب.

ودفن الموتى في بعض المواقع في أواني كبيرة من الطين. وكانوا يوضعون في هيئة القرفصاء على الجانب الأيسر والرأس متجهة نحو الشرق، ودفن مع الموتى بعض الأدوات الخاصة بهم مثل الخناجر، وفي جبانات أخرى كان الموتى يدفنون على الجانب الأيمن والرأس متجهة نحو الغرب، وقد وضعت بعض الأواني بجوار الرأس، وقد وجدت في بعض الأحيان بجوار الأطفال رضاعات، بينما احتوت المقابر الخاصة بالأثرياء على أطباق مصنوعة من الرخام.

وعثر على العديد من الأدوات المصنوعة من النحاس وكذلك الفضة بينما لم يعثر إلا على أشياء قليلة مصنوعة من الذهب، ومن الأدوات التي صنعت من المعدن: الخناجر ورؤوس الرماح، والمدى المعقوفة، والبلط المسطحة، والدبابيس، والمخارز، والإبر، والمثاقيل، والأزاميل.

وصنع الفخار خلال هذه المرحلة أيضاً بواسطة الأيدي، ولقد تعددت أشكاله ونماذجه، وقد قسم حسب المناطق الجغرافية للأناضول، ففي المنطقة الشمالية الغربية كانت الأواني لها حافة مقلوبة وقاعها مسطح وكانت تزود أحياناً بقاعدة، وزود بعضها بمقابض أو عروات أنبوبية الشكل على الحافة أو أسفلها، ووجدت في بعض حوافي الأواني زخارف محفورة ومملوءة بالطباشير الأبيض، واتخذت بعض الأواني أشكال الطيور.

ويختلف فخار المنطقة الجنوبية الغربية عن فخار باقي المناطق، إذ يتميز بأنه قد صقل صقلاً جيداً، وتعددت ألوانه، فكان منها الأسود الحالك، أو الأصفر الرمادي، والبرتقالي، والأحمر الفاتح، والقرمزي، وزود بأطواق واسعة تستخدم كمقابض، وزينت جدران الأواني برسوم هندسية. كما تعددت نماذجه كذلك، فوجدت أباريق لها رقاب طويلة وميازيب وأواني ذات شكل كروي، وكؤوس ذات شكل مربع، وكان لبعضها قاعدة لها أربعة أرجل.

وتميز فخار المنطقة الجنوبية بألوانه الحمراء المائلة إلى الاصفرار، وزود بعضها بمقابض حفر سطحها بنقط وشرط، كما ظهرت الأواني الفخارية المصقولة ذات اللون الرمادي والأسود والأحمر الداكن.

أما فخار المنطقة الوسطى من الأناضول، فقد كان أغلبه مزين بزينات حمراء بارزة أو غائرة[١].

وتدل الشواهد الأثرية إلى أن نهاية هذه المرحلة قد تمت بشكل عنيف، إذ احترقت المواقع الأثرية في كل من هاكيلار ومرسين، أما بالنسبة لموقع تل تشاتال فإنه إذا كان لم يحترق فإنه قد دمر للأبد. وكما سبقت الإشارة، فإن نهاية هذه المرحلة تقع خلال الربع الأول من الألف الخامس قبل الميلاد[٢].

---

(١) انظر: عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٠ ـ ٢٤٢. وكذلك:
A. Furness., op. cit., p. 73 ff. fig. 34, 52, 53, 54, 56.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 323.

٥ ـ عصر الحجر والنحاس الأخير

يفترض بعض العلماء هروب أصحاب الحضارة السابقة نتيجة للغزو الذي تعرضوا له وأدى إلى تدمير مساكنهم، وفيما يتصل بالبقايا المعمارية المتصلة بعصر الحجر والنحاس الأخير فإن من أفضل النماذج المتبقية منها بقايا مدينة بوليوخني الخامسة Poliochni وحصن أهلاتلبيل Ahlatlbel ومعبدين في بيس سلطان Beyce Sultan.

وتوضح البقايا المعمارية لمدينة بوليوخني أنه كان بها شارع رئيس يبلغ طوله مائتي متر تقريباً، وقد تجمعت المنازل في مجمعات على جانبي الطريق، وتفاوتت أحجام المباني، فقد كان منها الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، ومن المظاهر المميزة في هذه المدينة وجود ما يشير إلى أماكن عامة مثل المخازن الجماعية، وعثر على مبنى كبير كذلك يرجح أنه كان يستخدم كصالة اجتماعات أو مسرح.

أما حصن أهلاتلبيل، فهو يقع على الطريق الذي يمر على حافة السهول التي تفصل سهول أنقرة وجولبازي، ولم يبق منه إلا الجزء الأسفل فقط، وقد عثر على حجرات للدفن في باطن السور، ووضع مع الموتى بعض الأدوات مثل السيوف والخناجر والبلط مما قد يشير إلى أن هذه الدفنات تخص المحاربين الذين يقومون بالدفاع عن الحصن، وأنهم قد ماتوا أثناء قيامهم بالدفاع عنه، ومن ثم فقد دفنوا في باطن السور ودفنت معهم أسلحتهم.

ولقد زود كل من المعبدين اللذين عثر عليهما في موقع بيس سلطان بمذبح يضم لوحتين ووضعت خلف المذبح أواني فخارية كبيرة كانت تستخدم لحفظ السوائل. وشيدت جدران المعبدين من الطوب اللبن، وغطيت الجدران بالملاط ولونت باللون الأزرق، وغطيت الأرضية بحصير.

وعثر بهذين المعبدين على كميات ضخمة من الأواني الفخارية، وكذلك

على بعض الحبوب مثل القمح، والشعير، والعدس، وبذور العنب. وقد عثر على بعض هذه الحبوب وهي محفوظة في أواني[١].

ويوضح موقع مرسين Mersin بعض المظاهر المعمارية خلال هذه المرحلة، فقد كشف عن بقايا بعض المنازل، ومنها يتضح أن كل منزل كان يتكون من حجرة رئيسية مزودة برحى تستخدم في طحن الحبوب، وأواني لحفظ الحبوب، وبعض الأدوات المنزلية، ويوجد في المقدمة فناء صغير.

ويوجد بناء يتضح من تصميمه أنه منزل الحاكم، وهو على شكل مستطيل ويوجد في وسطه فناء مستطيل يقع على كلا جانبيه صف من الحجرات[٢].

وفيما يتصل بدفن الموتى فقد كشف في دوراك Dorak في شمال غرب الأناضول عن قبرين ملكيين، وعلى ثلاثة عشر قبراً في آلاسا Alaca بوسط الأناضول، واختلفت عادات الدفن بين مناطق الأناضول، فبينما كانت المدافن في دوراك (التي تمثل شمال غرب الأناضول) عبارة عن لحود من الحجر يبلغ حجم الواحد منها ١٨٠ × ٢٠٠ سم، نجد مقابر آلاسا (التي تمثل وسط الأناضول) قد حفرت في الأرض وبطنت أحياناً بالحجارة، ويتراوح طول بعضها ما بين ستة وثمانية أمتار، ويبلغ عرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر. وبينما غطيت مقابر دوراك بالحجارة، فقد غطيت مقابر الأسا بكتل خشبية رصت عليها رؤوس الثيران وأظلافها.

ودفن الموتى في مقابر دوراك في هيئة القرفصاء، أو ممددين على ظهورهم وقد اتجهوا برؤوسهم ناحية الشرق، بينما دفن الموتى في آلاسا في هيئة القرفصاء في الركن الشمالي الغربي لحجرة الدفن، على الجانب الأيسر وقد اتجهت الرأس نحو الغرب.

ولم يعثر في مقابر الأسا على أي أثر لقماش أو حصير نظراً لكثرة مياه

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٣.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 325.

الرشح التي قد تكون أتلفت القماش أو الحصير، وقد دفن مع الموتى بعض الأدوات الجنزية. ومنها تماثيل لثيران، وبعض أدوات الزينة، وبعض الأواني الفخارية، وكذلك أواني مصنوعة من المعدن، وقد دفن مع الحكام صولجاناتهم كرمز للسلطان، وقد عثر في إحدى المقابر على رأس مقمعة مصنوعة من الذهب، وعلى خنجرين مصنوعين من الحديد.

ولقد عثر في موقع دوراك على مقابر ملكية، وقد وضع جسد الملك على كليم أو حصير ووضعت مع الدفنات الملكية أثاث مصنوع من الخشب، ومن الأشياء الجديرة بالاهتمام ما كشف عنه في المقبرة الملكية رقم (٢) ويتمثل في بقايا كرسي مصري مصنوع من الخشب وقد نقشت صفحته المغطاة بالذهب بالكتابة الهيروغليفية المصرية وسجلت عليه اسم ولقب الفرعون ساحورع ثاني ملوك الأسرة الخامسة المصرية (٢٤٩٤ ـ ٢٣٤٥ ق. م تقريباً)[١].

واحتوت مقابر دوراك على أدوات للزينة وأواني معدنية وفخارية، وأسلحة متعددة كالسهام والسيوف والخناجر، كما عثر على رأس مقمعة مصنوعة من الكهرمان والفيروز، وعلى سيف وخنجر مصنوعين من الحديد[٢].

وتمكن الصناع من صناعة الأدوات المعدنية بواسطة الصب في الشمع والطرق وغيرها من الوسائل، كما مارسوا التطعيم في المعادن ولحام المعادن، ووجدت العديد من الأدوات الحجرية، ويلاحظ من المواد التي استخدمها الصناع وجود مواد محلية مثل البللور الطبيعي والعقيق واليشب والأبسيديان، بينما قاموا باستيراد بعض المواد الخام من خارج الأناضول، ومن هذه المواد: الكهرمان الذي أحضروه من البلطيق، واللازورد من باراخشان في شرق أفغانستان، والفيروز من نيشابور في خوراسان شرق إيران.

---

(١) J. Mellaart, «The Royal Treasure of Dorak», in I l l. Ldn New, 28 Nov. 1959, Fig.1.

(٢) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٤.

ولقد عثر في الأسا على تماثيل ترتدي أحذية ارتفعت مقدمتها[١]، كما عثر على أحزمة، وتزينت النساء بالأساور والعقود التي صنعت من أحجار مختلفة الألوان كما تزينوا كذلك بالخواتم والأقراط والأمشاط.

وفيما يتصل بالصناعات الفخارية، فقد توصلت منطقة كليكيا إلى عجلة الفخار، بينما استمرت المناطق الأخرى في صناعته بواسطة الأيدي، وقد تعددت أشكاله وزيناته، وقد ظهرت زينات جديدة في موقع مرسين بالطبقة الأثرية السابعة عشرة، وقد غطيت الأواني بطبقة رقيقة من الخزف الجيد ذو اللون السمني ولونت باللون الأحمر والبني أو الأسود، وكان لبعض الأواني مقابض كبيرة بشكل مبالغ فيه، وزينت بعض الأواني السوداء بزينات بيضاء. ويرجح أن هذه الزينات مرتبطة بظهور هذا الفخار الجديد الذي لم يعرف من قبل في كليكيا[٢].

---

(١) H. Z Kozay, Les Fouilles D'Alaca Huyuk, Ankara, 1951.

(٢) J. Mellaart, in C A.H., vol. I, part I, p. 423

الفهـارس

١ ـ قائمة الاختصارات

- **AJA:** American Journal of Archaeology.
- **AJSL:** American Journal of Semitic languages and literatures.
- **ANET:** Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.
- **Ann. A.S.O.R:** Annual of the American Scholls of Oriental Research.
- **Arch. F.Or:** Archiv fur Orient Forschung.
- **A. St:** Anatolian Studies.
- **Bull. ASOR:** Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
- **Bull. A.S.P.R:** Bulletin of the American School of Prehistoric Reserach.
- **CAH:** The Cambridge Ancient History.
- **CHI:** The Cambridge History of Iran.
- **HUC:** Herbew Union College Annual.
- **JCS:** Journal of Cuneiform Studies.
- **JEA:** Journal of Egyptian Archaeology.
- **JNES:** Journal of Near Eastern Studies.
- **JSS:** Journal of Semitic Studies.
- **JWH:** Journal of World History.
- **PAPS:** Proceedings of the American Philosophical Society.
- **RHA:** Revue Hittite et Asiatique.

٢ ـ قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:
ثانياً: المراجع المترجمة:
ثالثاً: المراجع الأجنبية:

أولاً: المراجع العربية

ـ أبو القاسم الفردوسي: الشاهنامة، ترجمها من الفارسية نثراً الفتح بن علي البنداري، وقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها في مواضع وصححها وعلق عليها وقدم لها عبد الوهاب عزام، جـ ١، طهران، ١٩٧٠ م

ـ دكتور أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ إيران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث ق. م، بيروت، ١٩٨٨.

ـ دكتور أحمد بدوي: هِرُدوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦.

ـ دكتور أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٣.

ـ دكتور حسان حلاق: مقدمة في مناهج البحث التاريخي، بيروت، ١٩٨٦.

ـ دكتور رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا، الكتاب الأول، بيروت، ١٩٦٨.

ـ دكتور رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، ١٩٦٩.

ـ دكتور سامي سعيد الأحمد: «العصر البابلي القديم» كتاب العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣.

ـ دكتور سوزان عباس عبد اللطيف: الجند المرتزقة ودورهم السياسي والحضاري في مصر الفرعونية خلال العصر المتأخر (رسالة ماجستير)، الاسكندرية، ١٩٨٣.

ـ دكتور سوزان عباس عبد اللطيف: «بعض التأثيرات المصرية في الحضارة الهخامنشية» مجلة كلية الآداب ـ جامعة المنوفية، ١٩٩٢.

ـ دكتور سيد أحمد الناصري: الإغريق، تاريخهم وحضارتهم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨١.

ـ الدكتور طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٥٦.
ـ دكتور عامر سليمان: «العصر الآشوري» كتاب العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣.
ـ دكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق. م، القاهرة، ١٩٦٦.
ـ دكتور عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، في الاتجاهات الحضارية العامة حتى أواخر الألف الثالث ق. م، القاهرة، ١٩٨٠.
ـ دكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، جـ١، مصر والعراق، القاهرة، ١٩٦٧.
ـ دكتور عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، بيروت، ١٩٧٠.
ـ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء، القاهرة، ١٩٧٤.
ـ الدكتور عيد مرعي: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق. م، دمشق، ١٩٩١.
ـ فؤاد عقاد: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧١.
ـ دكتور محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٨١.
ـ دكتور محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، الرياض، ١٩٧٦.
ـ الدكتور محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة، ١٩٧٦.
ـ الدكتور محمد بيومي مهران: إسرائيل، جـ ٢، الاسكندرية، ١٩٧٨.
الدكتور محمد بيومي مهران: إسرائيل جـ ٣، الاسكندرية، ١٩٧٠.
ـ دكتور محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ١، الكتاب الأول، التاريخ، الاسكندرية، ١٩٨٢.
ـ دكتور محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جـ ٤، في العراق، بيروت، ١٩٨٨ م.
ـ محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، الاسكندرية، ١٩٨٩.
ـ دكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، الاسكندرية، ١٩٩٠.
ـ محمد بيومي مهران: بلاد الشام، الاسكندرية، ١٩٩٠.

ـ دكتور محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث ق. م، الاسكندرية، ١٩٧٧.
ـ دكتور محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الأشورية في وسط آسيا الصغرى في العصر الأشوري القديم، الاسكندرية، ١٩٨٤ م.
ـ نجيب ميخائيل ابراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ ٥، الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٣.

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

- ايفانز (أ.ح): هيرودوت، ترجمة أمين سلامة ومراجعة كمال الملاخ.
- بورهارد بريتيس: نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق، ١٩٨٩.
- جرني (أ. ر): الحيثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد ومراجعة فيصل الوائلي، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دمشق، ١٩٩٠.
- حسن بيرينيا: تاريخ إيران القديم، من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، والسباعي محمد السباعي، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٧٩.
- دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، مراجعة وتقديم أمين الشواربي، القاهرة، ١٩٥٨.
- ديلابورت. (ل): بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال، ومراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر الألف كتاب (٣٥) القاهرة.
- صموئيل كرامر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، القاهرة، ١٩٥٧.
- ليو أوبنهايم: بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعد فيضي، بغداد، ١٩٨١.
- مارجريت روتن: تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، بيروت، ١٩٨٤.
- هنري ساغس: جبروت آشور الذي كان، ترجمة د. آحو يوسف، دمشق، ١٩٩٥.
- هوست كلنجل: حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة غاري شريف، بغداد، ١٩٨٧.
- ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٦١.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- Albright, (W.F.), and lambdin, (T.O.), «The Indo- Hittite Family» in CAH, vol. I, Cambridge, 1970.
- Angel, (J.L.), «The Human Skeletal Remains from Hotu Cave», in PAPS, vol. 96, no. 3, Philadelphia, 1952.
- Armajani, (Y.), Iran, New Jersy, 1972.
- Barton, (C.A.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1929.
- Baumgartel, (E.J.), «Predynastic Egypyt», in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Beaumont, (P.), The Middle East, A Geographical Study, London, 1976.
- Beek, (M.A.), Atlas of Mesopotamia, London, 1962.
- Blegen (C.W.), «The Geographical Distribution of Prehistoric Remains in Greece», in AJA, vol. 32 (1928).
- Bordaz (J.), «Suberde Excavations», in A. St., 15 (1965).
- Bostanci (E.y.), «Researches on the Mediterranean Coast of Anatolia, A New Palaeolithic Site at Beladibi near Antalya» in Anatolia, vol. 4 (1959).
- Botta, (P.E.), Monuments de Nineve, mesurés et dessinés par E. Flandin, Paris, 1849 - 50.
- Bottero, (J.), The Near East, The Early Civilization, London, 1967.
- Bottero, (J.), «Syria Before 2200 B.C.» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Braidwood, (R.J.), and Howe, (B.), «Prehistoric investigations in

Iraqi Kurdistan» in Oriental Institute of the University of Chicago, Series in Ancient Oriental Civilization, Chicago, 1960.
- Braidwood (R.J.), Howe, (B.), Reed, (C.A.), «The Iranian Prehistoric Project» in Science, vol. 133, no. 3458 (7 April, 1961).
- Breasted, (J.H.) Ancient Records of Egypt, vol. IV, Chicago, 1907.
- Breasted, (J.H.), La Conquête de la Civilisation, Paris, 1945.
- Brown, (E.G.), A literary History of Persia, vol. I, Cambridge, 1964.
- Bury, (J.B.), The Ancient Greek Historians, New York, 1958.
- Cameron, (G.G.), «Darius and Xerxes in Balylonia», in AJSL, Lviii, (1941).
- Caton- Thompson, (G.)., and Gardiner, (E.W.), The Desert Fayum, vol. I, London, 1934.
- Childe, (C.), New light on the Most Ancient East, London, 1964.
- Chark, (J.G.D.), «In Mesolithic Times», in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Coon, (C.S.), «Cave Explorations in Iran, 1949», in University Museum Monographs, Philadelphia, 1951.
- Coon, (C.S.), «Excavations in Hotu Cave, Iran 1951, A preliminary report», in P.A.P.S., vol. 96, no. 3, Philadelphia, 1952.
- Coon, (C.S.), Seven Caves, London, 1957.
- Cornelius, (F.), «Geographie des Hetiterreiches», in Or. N.S. 27 (1958).
- CrawFord, (V.E.), Sumerian Economic Texts from the First Dynasty of Isin, New- Haven, 1954.
- Dabbagh, (T.) «Halaf Pottery», in Sumer, 22, (1966).
- Delougaz, (P.), Pottery from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 63, Chicago, 1952.
- Dicks, (B.), The Ancient Persians, How They lived and worked, London, 1979.

- Dupree, (L.B.), «The Pleistocene Artifacts of Hotu Cave, Iran», in PAPS, vol. 96. no. 3, Philadelphia, 1952.
- Dyson, (R.H.), «Problems in the Relative Chronology of Iran, 6000- 2000 B.C.» in Chronologies in Old world Archaeology, U.S.A., 1967.
- Feigin, (S.I.), and B. Berger, «The date- list of the Balylonian Kings Samsuditana», in JNES, vol. 14, (1955).
- Fisher, (W.B.), The Middle East, A Physical, Social, and Regional Geography, London, 1966.
- Fisher, (W.B.), «Physical Geography» in The Cambridge History of Iran, vol. I, The Land of Iran, Cambridge, 1968.
- Frankfort, (H.), Archaeology and the Sumerian Problem, Chicago, 1932.
- Frankfort, (H.) Stratified Cylinder Seals from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 72, Chicago, 1955.
- Frankfort, (H.), The Art and Architecture of the Ancient Orient, (Penguin Books), 1970.
- Frankfort, (H.), The last Predynastic Period in Balylonia», in CAH., vol. I, Part. II, Cambridge, 1971.
- Frye (R.N.), The Heritage of Persia, London, 1963.
- Furness, (A.) «Some Early Pottery of Samo, Kalimnos, and Chios», in PPS, vol. 22 (1956).
- Gadd, (C.J.), «The Cities of Balylonia» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Gadd, (C.J.), «The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Gadd, (C. J.), «Hammurabi and the end of his dynasty», in CAH, vol. II, Part. I, Cambridge, 1973.
- Gardiner, (A.H.) The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, OxFord, 1960.
- Gardiner, (A.H.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.
- Garrod, (D.A.E.), «The Palaeolithic of Southern Kurdistan», in Bull. A.S.P.R., 6, (1930).

- Garrod, (D.A.E.), «Primitive Man in Egypt, Western Asia, and Europe in Palaeolithic Times», in CAH, vol. I, Part. I, Cambridge, 1970.
- Gelb, (I.J.), «Two Assyrian King lists» in JNES, 13, (1954).
- Ghirshman, (R.), Fouilles De Sialk, vol. I, Paris, 1938.
- Ghirshman, (R.), Perso- Iraniens, Medes, Achemenides, Paris, 1963.
- Ghirshman, (R.), Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, Translated from the French by Miss Margared Mum-Rankin, (Pelican Books), London, 1978.
- Glover, (T.R.), The Ancient World, (Pelican Books), 1948.
- Goetze, (A.), «Cilicians», in JCS, 16, 1962.
- Goetze (A.) «Hittite Historical Texts», in ANET (1971).
- Goetze (A.), «The Struggle for the Domination of Syria», (1400-1300 B.C.), in CAH, vol. II, Part II, Cambridge, 1980.
- Goetze (A.) «Anatolia from Shuppiluliumash to the Egyptian war of Muwatallist», in CAH, vol. II, Part II, Cambridge, 1980.
- Gray, (G.B.), «The Reign of Darus», in CAH, vol. IV, Cambridge, 1930.
- Gray, (G.B.), «The Foundation and Extension of the Persian Empire», in CAH., vol. IV, Cambridge, 1964.
- Gurney, (O.R.), «Anatolia C. 1750- 1600 B.C.», in CAH., vol. II, Part I, Cambridge, 1973.
- Gurney, (O.R.), The Hittites (Penguin Books), 1981.
- Guterbock, (H.G.), «The Hurrian Element in the Hittite Empire», in JWH, vol. 2, (1954).
- Guterbock, (H.G.), «The Deeds of Suppilulioma as told by his son, Mursili II», in JCS, 10 (1956).
- Guterbock, (H.G.), «Mursili's Accounts of Suppiluliuma's Dealings with Egypt», in RHA, 18 (1960).
- Guterbock, (H.C.), «The Orth- Central area of Hittite Anatolia», in JNES, vol. 20 (1961).
- Hammond, (N.G.L.), «The Battle of Salamis», in Journal of

Hellenic Studies, vol. LXXVI (1956).
- Herodotus, The Persian wars, Translated by George Rawlenson, with an introduction by Francis R. B Godolphin, New York, 1942.
- Herzfeld, (E.), Iran in the Ancient East, Oxford University Press, 1941.
- Hignett, (C.), Xerxes Invasion of Greece, Oxford, 1963.
- Hinz, (W.), «Persia C. 2400 - 1800 B.C.» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Iliffe, (J.H.) «Persia and the Ancient World» in the Legacy of Persia, Edited by, A.J. Arberry, Oxford, 1963.
- Jackson, (A.V.W.), Zoroaster, the Prophet of Ancient Iran, N.Y,, 1919.
- Jacobsen, (T.), The sumerian King list, Assyrian studies, II, University of Chicago, 1939.
- Jacobsen, (T.), «Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia» in JNES, vol. II, 1943.
- Jones, (H.L.), The Geography of Strabo, vol. I, London, 1960.
- Kansu (S.A.), Nouvelles découvertes Préhistoriques dans les environs D'Ankara, Istanbul, 1937.
- Kansu, (S.A.), «Stone - age Cultures in Turkey» in AJA, vol. 51 (1947).
- King, (L.W.), Chronicles concerning Early Balylonian Kings, vol. II, London, 1907.
- Knudtzon, (J.A.), Die El- Amarna Tefeln, leipzig, 1915.
- Kozay, (H.Z.), Les Fouilles D'Alaca Huyuk, Ankara, 1951.
- Kramer, (S.N.), Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944.
- Kramer, (S.N.), Dilmun, The Land of living, in BASOR, 96, 1944.
- Kramer, (S.N.), «Newlights on the Early History of the Ancient East», in American Journal of Archaeology, vol. 52 (1948).
- Kramer, (S.N.), The Indus civilization and the Dilmun, the Sumerian Paradise land Expedition, Philadelphia, 1964.
- Kramer, (S.N.), The Sumerians, Chicago, 1970.

- Kramer, (S.N.), «The Curse of Agade» in ANET (1971).
- Kupper, (J.R.), Les Nomandes en Mesopotamie au temps de Rois de Mari, Paris, 1957.
- Kupper, (J.R.), «Norther Mesopotamia and Syria» un CAH, vol. II, Part I, Cambridge, 1973.
- Laroche, (E.) «Catalogue des Textes Hittites», in RHA, xiv 158-xvi 162.
- Larousse, Encyclopedia of Archaeology, Translated from the French by Anne Ward, London, 1983.
- Layard, (A.H.), The Monuments of Nineveh, London, 1849-53.
- Leemans, (W.F.), The Old- Balylonian Merchant, Leiden, 1950.
- Legrain, (L.), Business of the Third Dynasty of Ur, London and Philadelphia, 1947.
- Lioyd, (S.), and Safar, (F.), «Tell - Hassuna» in JNES, 4, (1945).
- Lioyd, (S.), and Safar (F.), «Tell Ugair», in JNES, vol. 2 (1943).
- Lioyed, (S.), and Safar, (F.), «Eridu» in Sumer 3 (1947).
- Liod, (S.), «Urk Pottery, A Comparative Study in Relation to Recent Finds at Eridu» in Sumer, 4, (1948).
- Lockhart, (L.), «Persia as Seen by the West», in the Legacy of Persia, Oxford, 1963.
- Luckenbill, (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, I, Chicago, 1968.
- Mallowan, (M.E.L.), and Cruikshank, (J.R.), Prehistoric Assyria, the Excavations at Tell Arpachiyah, London, 1935.
- Mallowan, (M.E.L.), Early Mesopotamia and Iran, London, 1965.
- Mallowan, (M.), «The Development of Cities from Al- Ubaid to the End of UrK 5» in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Mallowan, (M.), «The Early Dynastic Period in Mesopotamia», in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1971.
- Meek, (T.J.), «The Code of Hammurabi» in ANET, p. 163 FF.
- Mellaart, (J.) «Early Chalcolithic Pottery from Catal Huyuk», in A. st, 11 (1961).
- Mellaart, (J.), «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary

Report» in A. st II, (1961).
- Mellaart, (J.), Earliest Civilization of the Near East, London, 1965.
- Mellaart, (J.) «Excavations at Catal- Hüjük» in A. St. vol. 12 (1962), 13 (1963), 14 (1964), 16 (1966).
- Mellaart, (J.) «Anatolia Before 4000 B.C.» in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Mercer, (S.A.B.), The Tell - El Amarna Teblets, I - II, Toronto, 1939.
- Miller, (W.) in Xenophon Cyropaedia, vol I, London, 1960.
- Nassaouhi, (E.), «Grand liste des rois d'Assyrie», in Arch. F. Or., 4, (1927).
- Nollet, (R.)., Farzami, (S.), Iran, in larousse Encyclopedia of World Geography, London, 1967.
- Noth, (M.), The History of Israel, London, 1965.
- Olmstead, (A.T.), History of Assyria, New York, London, 1923.
- Olmsted, (A.T.),«Darius and his Behistun Inscription», in AJSL, LV, (1938).
- Olmstead, (A.T.), History of the Persian Empire, Chicago, 1970.
- Oppenhein, (A.L.), «The Sumerian King List» in ANET, (1971).
- Oppenheim, (A.L.) «Sargon of Agade», in ANET, (1971).
- Parker, (R.A.), «Darius and his Egyptian Campaign», in AJSL, LVIII, (1941).
- Perkins, (A.L.), The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949.
- Poebel, (A.), «The Name of Elam in Sumerian, Akkadian, and Hebrew», in AJSL, vol. 48, (1931- 1932).
- Poebel, (A.), «The Assyrian King List from khorsabad», in JNES, vol. II, (1943).
- Polybius, The Histories, with an English Translation by W.R. Paton, vol.V.
- Posener, (G.), «Le Canal du Nile a la Mer Rouge», in Chronique d'Egypte, 26 (1938).

Radice, (B.), Who's who in the Ancient World, London, 1971.
- Roux, (G.), Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980.
- Rowton, (M.B.), «Mesopotamian Chronology and the Era of Menophres» in Iraq, vol, 8, (1946).
- Rowton, (M.B.)., «Chronology, Ancient western Asia» in CAH., vol. I, part I, Cambridge, 1970.
- Saggs, (H.W.F.), The Greatness that was Babylon, London, 1962.
- Schmidt, (E.F.), Excavations at Tepe Hissar Damghan, Philadelphia, 1937.
- Schmidt, (H.), Tell Halaf, 1, Berlin, 1943.
- Shotwell (James, T.), The Story of Ancient History, New York, 1961.
- Smith, (S.M.A.), Early History of Assyria to 1000 B.C., London, 1928.
- Smith, (S.M.A.), «The Foundation of the Assyrian Empire», in CAH, vol. III, The Assyrian Empire, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «The Superemacy of Assyria», in CAH, wol. III, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «Sennachrib and Esarhaddon», in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «Ashurbanipal and the Fall of Assyria», in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Solecki, (R.S.), «A Paleolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq». Report on a Sounding at Shaindar Cave», in Sumer, vol 8, no. 2 (1952). II (1955).
- Solecki, (R.), «Three Adult Neanderthal Skeletons from Shanidar Cave, Northern Iraq» Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).
- Sollberger, (E.), «Notes on the early inscriptions from Ur and el-Obed» in Iraq, vol. 22 (1960).
- Speiser, (E.A.), Introduction to Hurrian (Ann. A.S.O.R. 20), New Heaven, 1941.
- Speiser, (E.A.), «The Sumerian Problem Reviewd», in HUC, 23

(1950).

- Strabo, The Geography of Strabo, with an English Translation by H.L. Jones, London, 1961.
- Sunderland, (E.), «Early man in Iran», in CHI, vol. I, Cambridge, 1968.
- Thompson, (R.C.), «The New Balylonian Empire» in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Thompson, (R.C.), «Decay and Fall of Balylonia under Nabonidus» in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Wainwright, (G.A.), «The date of the rise of Meroe», in JEA., vol. 38 (1952).
- Watherlin, (L.C.), and langdon, (S.), Excavations at Kish, London, 1930 - 1934.
- Weidner, (E.F.), «Studien Zur Zeitgeschiche Tukulti- Ninurtas I», in Arch, F. or, 13 (1939 - 1941).
- Wilson, (J.), [Egyptian Treaty» in ANET (1971).
- Wiseman, (D.J.), «A New Stele of Assur- Nasir - Pal» in Iraq, vol. 14 (1952).
- Wiseman, (D.J.), «The laws of Hammurabi again», in J.S.S., vol. 7 (1962).
- Wooley, (C.L.), The Royal Cemetery (Ur Excavations, II), London, and Philadelphia 1934).
- Woolley, (C.L.), History Unearthed» Ur of the chaldees», London, 1963.
- Wright, (H.E.), and Howe, (B.), «Soundings at Barda Balka» in Sumer, 7, (1951).
- Xenophon, Anabasis, with an English Translation by C.L. Brawnson, London, 1961.
- Zeiafer, (C.), Die Keramik von dee Qala des Haggi Mohammed; Berlin, 1953.

قائمــــة الخرائـــط

قائمـــة الأشكـــال

قائمة المحتويات

الموضوع

رقم الصفحة